
تحرير أ. ج. إيفانز
هيرودوت
ترجمة أمين سلامة

هيرودوت

تحرير
أ. ج. إيفانز

ترجمة
أمين سلامة

مراجعة
كمال الملاح



هيرودوت

Herodotus

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٤٩ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٧٠.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٨٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مقدمة المؤلف

صدرت ترجمة هيرودوت بقلم جورج رولينسون، لأول مرة، في سنة ١٨٥٨م، وكانت تشغل أربعة مجلدات ضخمة، تتضمن، علاوة على النصوص، مقدمةً في ١٢٠ صفحة، وعددًا كبيرًا من المواضيع الإنشائية والمذكرات التي مع كونها بالغة القيمة للعلماء، فإنها قليلة الأهمية للقارئ العادي.

في سنة ١٩١٠م كتب أ. هـ. بلاكني أعمال هيرودوت من تلك الترجمة، ونشرتها مكتبة أفزيمان، وقد حذف منها جميع الموضوعات الإنشائية، واختصر المذكرات، كما اختصر المقدمة في ٢٠ صفحة. ومع ذلك فقد ضمها مجلدان كبيران يحتوي كل منهما على أكثر من ٣٥٠ صفحة.

وفي الطبعة الحالية، اختصرتُ المقدمة أيضًا، كما اختزلت نصوص ترجمة رولينسون إلى حوالي نصفها الأصلي، وحذفت جميع المواضيع الإنشائية والتذييلات والتعقيبات، ولم أحتفظ بشيء من المذكرات إلا ما يُنتَظر أن يكون ذا متعة عامة.

ومن المشكوك فيه أن يكون ذلك الاقتضاب القاسي قد عمل بطريقة تُرضِي جميع عشاق هيرودوت، بَيْد أنه في هذه الأيام عندما يرغب كثير من القراء في الحصول على معلومات في اللغات القديمة، يجب إصدار طبعة لهيرودوت يرحب بها كثير من القراء الذين لا يجدون الوقت الكافي لقراءة النصوص الأصلية. وذوق الكاتب هو الأساس الذي اختصرتُ بمقتضاه هذه النصوص. ومع أن كثيرًا من النصوص قد اقتضبت إلا أن كلمةً واحدةً لم تُضَف. وإذا كانت هناك صفحات كثيرة يُؤلِم تركُها مَن يعرفون هيرودوت حق المعرفة، فإننا نستطيع القول مطمئنين إن هذه الطبعة لا تحوي شيئًا مما لا يريدون حذفه.

أ. ج. إيفانز

تمهيد

يمكن تحديد العصر الذي عاش فيه هيرودوت، والذي كتب فيه تاريخه إلى حدٍّ ما من الدقة من مؤلفه. فمن ناحية، يبدو أنه تحدث إلى شخص واحد على الأقل كان شاهد عيان لبعض الحوادث الهامة في الحرب الفارسية، ومن ناحية أخرى عاش هيرودوت بعد بدء حرب البيلوبونيز، وكان على إلمام بكثير من الأحداث التي وَقَعت في الجزء الأول منها، وعلى ذلك، لا بد أنه عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، ولا بد أنه كتب بعض أجزاء من تاريخه في زمن مبكر يصل إلى سنة ٤٣٠ق.م. وبطبيعة الحال، لا بد أن يكون قد وُلِد في أوائل ذلك القرن، وأنه من الجيل التالي لجيل فاتحي سالاميس.

من ذلك يُمكننا أن نستنتج أن هيرودوت وُلِد في حوالي عام ٤٨٤ق.م. أما مسقط رأسه فلا يَحوطه أي شك، سواء في العصور القديمة أو في الحديثة. إنه من مدينة هاليكارناسوس، وهي مستعمرة دورية في آسيا الصغرى.

يمكن الحكم على درجة ثقافة هيرودوت من مؤلفه، ولم تصلنا عنها أية معلومات خاصة.

يبدو مما كتبه هيرودوت أنه عبَّ من المنهل الهوميري حتى ارتوى، ويتضح أنه تلميذ هومير من تصميم وخُطة مؤلَّفه، ومن ترتيب ونظام أجزائه، ومن روح وطبيعة أفكاره، ومن عشرة آلاف مصطلح صغير وكلمة استعملها، ويظهر جليًّا أنه كان مُلِمًّا بالملحمتين الإغريقيتين العظيمتين القديمتين بنفس إلمام الرجل الإنجليزي الحديث المثقف بشكسبير، ولم تكن معلوماته الواسعة هذه على حساب التضحية بالقراءات الأخرى، فيمكننا أن نتساءل عمَّا إذا كان هناك مؤلف هام واحد في جميع الأدب الإغريقي أمكنه الحصول عليه ولم يلم به إلمامًا مناسبًا.

إن كان هناك شيء محقق عن حياة مؤلفنا هذا فهو أنه عاش النصف الأول من حياته في آسيا الصغرى، والنصف الآخر في بلاد الإغريق الكبرى.

ومن الواضح أن زيارته لمصر التي تتصل بها رحلاته الأخرى ما في ذلك شك كانت بعد ثورة إيناروس (سنة ٤٦٠ق.م.) إذ يقرر أنه رأى جماجم من قُتلوا في معركة بابريميس Papremis الكبرى، التي تسلم بواسطتها إيناروس مقاليد الحكم، ومع ذلك فلا يمكن أن تكون بعدها بزمن طويل، وإلا لما استُقبل بذلك الترحاب الذي سمح له بحرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها. فهناك كل دليل نستطيع به أن نستنتج منه أن زيارته لمصر كانت في فترة السنوات الست، من ٤٦٠–٤٥٥ق.م. بما فيها أول الفترة وآخرها، والتي خلالها احتلت الجيوش الأثينية تلك المملكة؛ حيث جعل معروفُها المصريين يرحبون بكل إغريقي يزور بلادهم، ويعاملونه بكل مودة على خلاف غيرتهم العادية من الأجانب، وعلى هذا يكون قد زار مصر بين الرابعة والعشرين والتاسعة والعشرين من عمره.

يحتمل أن يكون هيرودوت قد ظل مُقِيمًا في هاليكارناسوس مع قيامه برحلات طويلة لجمع المعلومات التاريخية والجغرافية، حتى قرب عام ٤٤٧ق.م. حيث صار في حوالي السابعة والثلاثين من عمره، وقد وصل بمؤلفه إلى درجة معينة من التمام، ولو أنه كان أقل مما صار إليه أخيرًا. عندئذٍ انتقل إلى بلاد الإغريق نفسها، وأقام في أثينا، والظاهر أن هاليكارناسوس كانت قد طَرَدَت طُغاتها قبيل ذلك وانضمت إلى الحلف الأثيني؛ ولذلك رحب بمؤلفنا الصغير من أجل خاطر بلده، كما رحب به من أجل خاطره هو نفسه. وإذا كان لنا أن نثق بأقوال إيوسيبيوس فإن مجلس أثينا قرر في سنة ٤٤٦ق.م. مكافأة لهيرودوت عن مؤلفه التاريخي العظيم، الذي قرأه علنًا على أهل أثينا.

ليس من الصعب أن نستنتج السبب الذي دفع مؤلِّفنا إلى مغادرة أثينا مع إعجاب أهلها به، والإقامة في إحدى المستعمرات التابعة لها؛ فلم يكن يستطيع الحصول على حقوق المواطن في أثينا، وإن الإغريقي غيرُ المُولع بجمع الأموال أو المهتم بدراسة الفلسفة ليَشُقُّ عليه ألا تكون له حقوق سياسية كي يشترك فيما يكوِّن الحياة اليومية، ويشغل الفكر باستمرار فيما حوله، وقد قال أرسطو: «لا يكون الرجل رجلًا إلا إذا كان مواطنًا»، وهذا هو الشعور الذي كانت تُحِسُّ به جميع الأمة الإغريقية. وفضلًا عن هذا كانت الحياة في أثينا شأنها شأن سائر العواصم، باهظة النفقات، وإن الثروة التي كانت تُعتَبر طائلة في هاليكارناسوس إذا لم تكن قد نفدت في أثينا، فإنها لا تكاد تُمَكِّن الإنسان من الحياة فيها. ويدلُّ قبول هيرودوت مبلغًا من المال من الشعب الأثيني على أن موارد معيشته كانت قد انخفضت

وقت ذاك. ربما تكون موارده قد نضبت من جراء نفقات رحلاته الطويلة. تأثرت بمغادرته هاليكارناسوس. وعلى أية حال دفعته ظروفه إلى الترحيب بالدعوة التي وجهتها أثينا إلى المغامرين في جميع أنحاء بلاد الإغريق كي يحصل كل منهم على قطعة أرض تجعله فوق مستوى الاحتياج، وينال فيها حقوق المواطن، وعلى ذلك انضم هيرودوت في سنة ٤٤٣ق.م. وكان قد جاوز الأربعين من عمره، بناءً على الشهادة الاجتماعية لقُدَامَى الكُتاب، إلى فئة المستعمرين الذين أرسلهم بيريكليس إلى إيطاليا، وصار من أوائل مستوطني ثوريوم.

يبدو أن هيرودوت انكبَّ على مؤلَّفه في ثوريوم، وكرَّس له وقته كله.

وفي الوقت عينه لا نِزاع في أنه كتب مؤلَّفًا منفصلًا عن تاريخ آشور، الذي مال الاتجاه الحديث إلى إنكار نسبته إليه.

أما زمان ومكان موته فموضعان للجدل؛ فلا توجد أية علامة في مؤلَّف هيرودوت تدل على أنه عاش بعد سن الستين، وفضلًا على هذا تُشير بقية الأدلة إلى أنه تُوفِّي في ثوريوم وهو في حوالي الستين من العمر، وبِذَا يكون قد تجنب الويلات التي مرت بوطنه الجديد أثناء الجزء الأخير من الحرب البيلويونيزية، ويكون قد تحاشى أَلَمَ رؤية الولاية التي كان من مواطنيها وهي تنضم إلى صفوف أعداء بلده المحبوب أثينا.

لا جدال إطلاقًا في منزلة هيرودوت ككاتب، وإن الذين يَحُطون من مقدرته كمؤرخ .. ليشيدون بجمال إنشائه وأسلوبه ويعتبرونهما السبب الذي بهر النُّقَاد، وجعلهم يرفعون من قدرته على التأريخ، ويُبَالِغُون في دقة تاريخه، وقلَّمَا يوجد صوت ضد هذا الرأي بين عظماء النقاد، سواء أكانوا من القدامى، أم من المحدثين الذين يتفقون جميعًا على أن مؤلفنا مثالي في ترتيب تواريخه، وجودة إنشائه.

وحدة الموضوع أهم ضروريات كل عمل أدبي، سواء كان شعرًا، أو إنشاءً موضوعيًّا، أو تاريخًا، أو قصصًا. وإذ اختار هيرودوت موضوعًا لمؤلَّفه، جزءًا خاصًّا من تاريخ بلاد الإغريق، وقصر جهوده على سرد الحوادث المتعلقة بموضوعه: إما مباشرةً، أو عن طريق غير مباشر، فقد حصل بذلك على وحدة عمل كافية لإرضاء أقصى مطالب الفن، وهي في الحقيقة معادلة لصفات أبرع ما أنتجه الخيال. فبدلًا من أن يضطلع بالعمل المعقد الصعب، وهو كتابة تاريخ الجنس الهيليني إبان فترة بعينها، جلس وفي ذهنه هدف (أوَّلِي): أن يسجل بإخلاص جميع حوادث حرب معينة. لم يكن ما اختاره لموضوعه الأصلي هو النزاع بين جنسين، ولا تلك الخصومة في أعنف صورها — ذلك النزاع بين الأغارقة والفرس، بل كان قصده الحقيقي كتابة تاريخ حرب الغزو الفارسي لبلاد الإغريق — ذلك النزاع

الذي بدأ بحملة ماردونيوس الأولى، وانتهى بهزيمة الأسطول العظيم والجيش الذي جمعه وقاده كسيركسيس Xerxes ضد الإغريق، هزيمة منكرة. وقد كتب الجزء الأول من سرده للأمور الداخلية لحملة ماردونيس في صور مقدمة يمكننا أن نستخلص منها غرضين؛ كان الغرض الأساسي لهيرودوت هو أن يروي قصة قيام ونمو وتقدم تلك الإمبراطورية العظيمة التي كانت خِصمَ بلاد الإغريق في ذلك النزاع، أما غرضه الثانوي فهو بيان الظروف التي دعت إلى قيام العداوة والحرب بين هاتين الأمتين، وكلا هذين الغرضين ذو علاقة وثيقة بالغرض الأصلي من ذلك التاريخ؛ فأحدهما ضروري للحصول على معلومات دقيقة لتقدير عظمة تلك الحرب والأمجاد التي يحظى بها مَن ينتصر فيها، والغرض الثاني ضروري لإبداء الأسباب التي دعت إلى نشوب الحرب، وليُلْقي ضوءًا هامًّا على سير الغزو وسلوك الغزاة.

لو اقتصر هيرودوت في كتابته على هذه العناوين الثلاثة، وهي: نمو الإمبراطورية الفارسية، والعداوة السابقة بين بلاد الإغريق وفارس، والسير الحقيقي لتلك الحرب العظمى، لكان تاريخه ضعيفًا هزيلًا يفتقر إلى التنوع، ولكي يتحاشى هيرودوت هذه النتائج تراه ينتهز كل فرصة تسنح له، فينحرف عن السرد الأصلي ويضمنه شيئًا من معلوماته الواسعة المتنوعة، سواء كانت تاريخية أو جغرافية أو علم الآثار. وهكذا، وضع أمام مواطنيه صورة عامة عن الدنيا وعن مختلف أجناسها، وعن التاريخ السابق لتلك الشعوب ذات التاريخ، وأضفى على مؤلَّفه عظمة واتساعًا وضعاه في مصاف تواريخ الدرجة الأولى. وقد اهتم في الوقت نفسه بتنويع صفحات مؤلَّفه، فنثَر بين قصصه الجديدة قصصًا قصيرة وأوصافًا من نوع أخف صارت تذييلات لطيفة للسرد الأصلي تُضفي روحًا تُخفِّف من ثقل النغمة العامة، ومن الخواص الرائعة الواضحة في هيرودوت، والتي لاحظها جميع النقاد، تنوُّع وجزالة مواد الحلقات التاريخية. لقد نجح هيرودوت في ربط حلقاته بالموضوع الأصلي، وذلك بدقته الفائقة، وحكمه العظيم على الأحداث، ومثابرته الفذة على العمل، وبذا حافظ على سلامة الموضوع من التعقيد والتضارب ومقاطعة السرد العام.

أما عن وحدة الأسلوب في خطة تاريخه فيمكننا أن نعترف بروعة رسمه للشخصيات، رسمًا ناجحًا قوي التأثير، سواء أكانت تلك الشخصيات شعوبًا أم أفرادًا. وأنَّ تصويرَه للشعوب الأصليين الذين تناولهم سرده، وهم: الفرس والأثينيون والإسبرطيون، لَتصويرٌ تسجيلي غاية في الإبداع، فنراه يصوِّر الشعب الفارسي القديم شجاعًا نشيطًا متوثبًا، قادرًا على قول الحِكَم والأمثال في مواضِعِها الحقة والردود المقنعة، غير أنه مع ذلك

ضعيف، عاطفي، يُطيع حكامه طاعةً عمياء، فيوضح هذا هيرودوت في صفحات مؤلَّفه بأسلوب تصويري دُونه تصوير المصورَين الفرنسيَّين شاندان وموريبه، اللذين صوَّرَا الفُرس المحدثين في القرن الثامن عشر بعد الميلاد من نسل أولئك القدامى. وقد ميز هيرودوت هذا الشعب عن بقية الشعوب البربرية الأخرى، فأبَان رقة أخلاقه ومرحه اللذين يُقربانه من الجنس الهيليني، ولكنه يُناقض الأغارقة في هجرانه العاطفي، وخضوعه في ذلة لأوامر حُكامِه المُستبدين. كل هذا يتجلى بوضوح في ثنايا مؤلَّف هيرودوت، بأسلوب يؤكد صحة المعلومات، وينُم عن الحقيقة الخالصة، ويربط أولئك القوم بالمستشرقين الغريبي الأطوار، وهم «الفرنسيون المقيمون في بلاد الشرق»، الذين كانوا يعيشون في بلادهم وقتذاك. ولما كان الشعب الفارسي القديم نشيطًا، حيويًّا، ذكيًّا، ألمعيًّا، رشيقًا، ولكن في غير كرامة ولا كبرياء، بل كان ذليلًا متملقًا؛ فإمَّا أن يكون طاغية جبارًا، أو يكون عبدًا ذليلًا، فإنه يُناقض أمم الشرق الأخرى التي إما أن تتصف بالفظاظة، والجرأة، والغطرسة، وحب الحرية، كالأكراد والأفغانيين، أو بالخمول والاستهتار كالهندوس. وإن استمرار تصوير الشخصيات المُنقطع النظير هذا لَيؤكدُ إخلاص وصدق مؤلفنا الذي يبدو حتى في القسم الزُّخرفي من موسوعته التاريخية مقصورًا على ذكر الحقائق الواقعية.

أما الأغارقة فيختلفون عن الفرس اختلافًا صارخًا في كثير من الوجوه. نرى ذلك التناقض بوضوح في الخلق الإغريقي الذي يميز الأجناس الدورية الأصل Doric ويتخذ أكمل مظاهره بين الإسبرطيين. فتدل الصورة التي رسمها هيرودوت على القوة والمهارة، وصور الإسبرطيين أمام أعيننا بعدد قليل من اللمسات المتقنة، وببعض القصص المختارة، والملاحظات الحادة بين الفينة والفينة. بهذا يصورهم أمامنا كأفراد وكشعب بطريقة تسجيلية ربما تفوَّق فيها على أي كاتب آخر، فنلمس من خلال سرده اعتزازهم بأنفسهم، وروحهم المولعة بالاستقلال، وخضوعهم التام لقوانينهم عن رغبة خالصة، وشدة بأسهم وقوتهم كجيش محارب، وحكمتهم البالغة، كل هذا في أسلوب تتخلله بعض لمسات من الدعابة والمرح. وفي الوقت ذاته نراه لا يني عن إبداء الجانب الأسود من أخلاقهم، فيُبدي بجانب أنانيتهم، وتأخرهم، وشدة حذرهم في السياسة الشعبية، وخداعهم، ومرائهم، وتملقهم في بعض الأحيان، وعدم قدرتهم على مقاومة السلطات المحتلة، واستعدادهم لقبول الرشوة، وقسوتهم، وافتقارهم التام إلى الرأفة سواء نحو الأصدقاء أو الأعداء، يرسم لنا هيرودوت صورة كاملة لكل هذا، ليست أخاذة في مظهرها بأكثر مما هي رائعة في استمرارها، وتتفوق على كل ما نعرفه من المصادر الأخرى لأئمة رجال الإغريق.

يتجلى مثل ذلك الإخلاص والقوة الوصفية في الصورة التي يُقدمها لنا عن الأثينيين، فهم كالإسبرطيين يحبون الاستقلال والحرية، بواسل ماهرون في القتال، يتفانون في محبة وطنهم، ومنذ أن صارت لهم حكومة تتفق واحتياجاتهم أحبوها وتمسكوا بها. كذلك يُشبهون الإسبرطيين في القسوة وعدم الرحمة بخصومهم، ويختلفون عنهم في صراحة سياستهم الشعبية، ونشاطهم، وحبهم للعمل إلى درجة التهور، وثبات أخلاقهم، وهم يميلون إلى المباهاة أكثر من الكبرياء، ونراهم كجنود يتصفون بالإقدام أكثر من الثبات، أما أخلاقهم فرقيقة وعالية، وهم أذكياء، كُرماء للضيف، يحبون الأناقة وحُسن المظهر، ونراهم في بعض الظروف أكثر اعتدالًا وإنكارًا للذات من أغلب الأغارقة، ويملكون إلى حدٍّ معين روحًا كريمة من الهيلينية الكلية، وإذ أُعجب هيرودوت بالخدمات التي قدمها الأثينيون للفرض المشترك إبان الحرب العظمى، فربما يكون قد بالغ في ادِّعائهم بهذه الصفة الأخيرة، فعلى الأقل سنجد أن اهتمامه الشخصي بهم قد فسر سلوكهم إبان النضال تبعًا لميله إليهم. وتدل الظروف التي حدثت قبل الحرب وبعدها على أنه لم يكن لديهم أيُّ شكٍّ في استعداد الفرس لمقاتلة أبناء جلدتهم في الوقت الذي توقعوا فيه الربح من ذلك العمل. كما لا يجب أن ننسى — في أي تقدير للخلق الأثيني — أنهم ضربوا المثل في الاستعانة بالفرس ضد أعدائهم الهيلينيين. لا نزاع في أن الظروف كانت وقتذاك قاسية، وأن عزمهم على عدم قبول المساعدة على حساب التضحية باستقلالهم كان خليقًا بروحهم العالية كأمة. بَيْد أنه لا تزال هناك حقيقة أن العدو المشترك قد عرف عن طريق دعوة أثينا مقدار ما كانت تأمل فيه من وراء ذلك النزاع الداخلي والغيرة المتبادلة بين الولايات الإغريقية.

من الشخصيات الفردية التي أبدع مؤلفنا في تصويرها ملوك الفرس الأربعة الذين تناولهم سرده، والملوك الإسبرطيون؛ كليومينيس، وليونيداس، وباوسانياس، ورجال السياسة والقوَّاد الأثينيون؛ نيميستوكليس، وأرستيديس، والطغاة؛ بير ياندر، وبولوكراتيس، وبيزيستراتوس، وأماسيس ملك مصر، وكرويسوس ملك ليديا.

ولم تصور شتى ألوان الخلق والذوق الشرقيين بأروع من الصورة التي قدمها لنا هيرودوت عن أربعة من الملوك الأخاميمنيين الأوائل، وهم: كوروس الزعيم الجبلي الساذج، الشديد البأس، البالغ النشاط، والموهوب بالطموح البالغ والنبوغ الحربي العظيم، الذي تغير عندما اتسعت مملكته إلى ملك طيب القلب وصدوق يعتبر نفسه أبًا لشعبه … فكان حليمًا مؤدبًا في معاملة رعاياه. وقمبيز الذي كان الصورة الأولى لطغاة الشرق، ورث عن أبيه القوة وكثيرًا من مواهبه، غير أن ظروف مولده وتربيته العسكرية أفسدته، فصار قاسيًا متهورًا، عنيدًا، لا يكبح جماح نفسه، يثور إذا عُورِض، ولم يكن قاسيًا فحسب، بل

ومتوحشًا أيضًا. وداريوس الذي كان مثال الأمير الشرقي، شجاعًا ذا عقل راجح وداهية، بارعًا في كل فنون الحرب والسِّلم، نظَّم ووحَّد إمبراطوريته، كما عمل على توسيع رقعتها، وعلاوة على ذلك كان رقيق الإحساس، محبًّا لأصدقائه، حليمًا، كريمًا في معاملته لأعدائه المدحورين، ولم يلجأ قط إلى القسوة إلا في مراعاة النظام عندما يحتاج كيان إمبراطوريته إلى قدوة. وكسيركسيس الذي كان الصورة التالية للطاغية وأقل منه، كان ضعيفًا، طائشًا في عقلية الأطفال، كما كان أنانيًّا، وقاسيًا، وجبانًا، ومتقلبًا، ومُنْحَل الأخلاق، ومُترفًا تلعب به النساء، وكذلك رجال الحاشية في سهولة، وعلاوة على ذلك كان يعتقد في الخرافات، مغترًّا بنفسه، خاليًا من الشهامة والنخوة الحقة، ولا يُبدي كرم الخُلق إلا في بعض المناسبات النادرة عندما لا يحدث ما يُعكر صفو مشاعره.

علاوة على مهارة هيرودوت في تصوير الشخصيات نراه قوي التأثير على العواطف، وهي ميزة لا يدانيه فيها إلا قليل من الكتاب، سواء أكانوا مؤرخين أم غير مؤرخين، ومن أمثلة ذلك قصة زوجة إنتافيرنييس وهي تبكي وتعول باستمرار أمام باب الملك، وقصة بساميتيخوس وهو جالس في ضاحية عاصمته يشاهد بعينَي رأسه ابنته تخدم كعبدة، وابنه يُساق إلى الموت، ومع ذلك «لا يُبدي أية علامة على الحزن»، وإنما ينخرط في البكاء عندما يمر به صديق قديم ويسأله صدقة. هاتان القصتان مَثَلان لروعته في ذلك المضمار، في محيط كتاب واحد، يصعب أن نجد لهما مثيلًا في جميع مؤلفات أي مؤرخ آخر. بَيْد أن أعظم نموذج لجدارته في هذا المجال موجود في قصة كرويسوس. ومما استرعى انتباهنا تمامًا أن المجلد الخاص بأشهر الروايات يتضمن حكايات جميلة القصص، علاوة على قصة موت آتيس.

وكذلك يشمل تقريظنا قصة حياة كرويسوس منذ زيارة سولون إلى منظر وضع الجثة فوق كومة الحريق، التي هي من أروع قصص إثارة العواطف؛ إذ تتجلى فيها قوة تراجيدية من الطراز الأول.

ربما كان أعظم مظهر جذاب في جميع مؤلَّف هيرودوت هو التنوع العجيب، فلا يسترسل قط في السرد مدة طويلة دون أن يُضمِّنه مادة استطراديه طريفة من غير أن يُطيل فيها إطالة تبعث على الملل، وكمؤرخ نراه يبزُّ غيره في تنوع معلوماته؛ إذ يحاول أن يضع العالم المعروف كله تقريبًا في نطاق قصته، ويُلقي نظرة على الماضي في بدء قصة كل دولة وكل إمبراطورية، فيضع أمام عيوننا منظرًا شاملًا للتاريخ، به محل لجميع الماضي والحاضر، والقريب والبعيد، والممالك المتحضرة، والقبائل البربرية، والملوك، والكهنة،

والحكماء، والمشرِّعين، والقواد، ورجال البلاط، والأفراد العاديين ... محل يصور ببراعة ما لهم وما عليهم، ويقدمهم لنا في مهارة جذابة. كذلك من أعظم ما يلفت الأنظار تنوع أسلوبه الذي استخدمه بنجاح متساوٍ في كل من الوصف والقصص، ونلاحظ فيه بوضوح علاجه الفذ للموضوعات العاطفية، وانهماكه بين آونة وأخرى في الموضوعات التراجيدية دون أن يكون عاطفيًّا كما في حالة أسطورة جوجيس، وقصة موت كوروس، وانتحار كليومينيس، وفوق كل هذا المشهد الرائع الذي يصور آخر لحظات في حياة بريكساسبيس؛ حيث بلغ هيرودوت الذروة في هذه، وفي روايته لقصة موت آدراستوس.

أعظم ميزة لمؤلفنا وآخر ما يستحق انتباهًا خاصًّا بساطته وسهولته، فسرده وأفكاره ينسابان في سلاسة طوال مؤلَّفه، فنراه يُكثِر من استعمال الكلمات الشائعة والمألوفة، ويتحاشى المحسنات اللفظية والصور البلاغية، الأمر الذي استرعى انتباه جميع النقاد ونال إعجابهم. ليس الإنشاء فنًّا عند هيرودوت، بل هو تدفق تلقائي للألفاظ والعبارات، فلا يُضفي رشاقة مصطنَعة على أسلوبه، ولا يتكلف العبارات البلاغية، بل يكتب كما يقوده موضوعه؛ يرتفع معه، ولا يعلو فوق مستوى الحشمة الطبيعية، أو يصل إلى حد الألفاظ الزخرفية، ليست كلماته بسيطة وعادية فحسب، بل وتركيب جُمَلِه في غاية البساطة والبعد عن التعقيد، وكما لاحظ أرسطو، لا يكتب هيرودوت بعبارات متكلفة، وإنما بجمل مستمرة التدفق لا تنتهي إلا عندما يتم المعنى. ولهذا كان أسلوبه واضحًا رقراقًا، ليس بمتكلف، ولا جاف، ولا يترك مجالًا للشك في معانيه.

لا تتطور بساطة أسلوب هيرودوت من عدم التكلف والعبارات المألوفة إلى الفظاظة والخشونة؛ فأسلوبه كامل حر متدفق، ونلمس فيه اختلافًا واضحًا عن الأسلوب الجاف والعبارات المقتضبة للمؤرخين السابقين. ولو ألقينا نظرة على بعض قطع من مؤلفات كُتَّاب الإغريق المبكرين التي وصلت إلينا لدهشنا لجفاف أسلوبها وبدائيته وعدم حيويته، حتى ولو كان ذلك من أعمال أشهر المؤرخين السابقين أو المعاصرين لمؤلِّفنا. وإذا قارنَّا أسلوب هيرودوت بأسلوب الكُتَّاب العاديين في عصره حصلنا على وسيلة دقيقة لتقدير الفترة التي تفصل بين هيرودوت ككاتب، وبين من سبقوه، وهذه فترة عظيمة بدرجة تجعل الأسلوب الإنشائي الذي كتب به هيرودوت نوعًا من الفن الجديد، وتجعله جديرًا حقًّا باللقب الذي لم يُنازِعه فيه أحد وهو «أبو التاريخ».

هیرودوت



الفصل الأول

أسطورة آيووجوجيس

هذه هي أبحاث هيرودوت الهاليكارناسي التي نشرها أملًا في المحافظة على أعمال الغابرين من الضياع، ولكيلا تفقد عظائم الأعمال التي قام بها الأغارقة والبرابرة حقها من التقدير والإجلال. وعلى العموم لكي يسجل أسباب عدائهم ومنازعاتهم.

تبعًا لأكثر رجال الفرس معرفة بالتاريخ كان الفينيقيون هم الذين بدءوا بتلك المعاكسات، فما إن هاجر أولئك القوم إلى بلاد البحر المتوسط، واستقروا في المناطق التي يقيمون فيها الآن، حتى شرعوا — كما يُقال — في القيام برحلات طويلة، يُحمِّلون سفنهم من منتجات مصر وآشور، فنزلوا في عدة أماكن على ساحل ذلك البحر، منها أرجوس التي كانت ضمن الولايات المنضمة وقتذاك تحت الاسم العام «هيلاسي». عرض الفينيقيون بضائعهم على سكان أرجوس، وظلوا يتاجرون هناك مدة خمسة أو ستة أيام، وفي نهاية تلك المدة، وكانوا قد باعوا كل ما معهم تقريبًا. حضر إلى الشاطئ عدد من السيدات، من بينهم آيو IO ابنة الملك إيناخوس الذي كان — كما قيل — متفقًا مع الأغارقة في رواية نفس هذه القصة. وقفت النساء عند مؤخر السفينة منهمكات في مشترياتهن، فإذا بالفينيقيين يصرخون جميعًا صرخةً واحدةً، وينقضُّون عليهن، فهرب أغلب السيدات، بَيْد أن المعتدين خطفوا كثيرًا منهن وحملوهن إلى عرض البحر، وكانت آيو نفسها ضمن المقبوض عليهن. حمل الفينيقيون النساء في سفينتهم وأقلعوا بهن إلى مصر. وهكذا كان ذهاب آيو إلى مصر تبعًا للقصة الفارسية التي تختلف اختلافًا بيِّنًا عن رواية الفينيقيين. وهكذا بدأت أيضًا سلسلة من أعمال العنف تبعًا لروايتهم.

بعد ذلك بزمن ما، نزل بعض الأغارقة في مدينة تورمي على الساحل الفينيقي، ولا يعرف الرواة اسم هؤلاء الإغريق، ولكن ربما كانوا من الكريتيين، فخطفوا يوروبي ابنة ملكها، وبهذا انتقموا لخطف آيو ابنة ملكهم. بَيْد أن الأغارقة — كما يقولون — قاموا بعمل

عدواني ثانٍ؛ إذ استقلوا سفينة حربية وأبحروا إلى آيا إحدى مدن كولخيس الواقعة على نهر فاسيس، وبعد أن أنجزوا المهمة التي حضروا من أجلها خطفوا ميديا ابنة ملك تلك البلاد، فأرسل الملك رسولًا إلى بلاد الإغريق يطلب التعويض عن تلك الإساءة وإعادة الطفلة، بَيْد أن الإغريق ردوا عليه بأنهم لم يتسلموا تعويضًا عن إساءة خطف آيو الأرجوسية؛ ولذلك فهم لن يدفعوا تعويضًا عن إساءتهم هذه.

في الجيل التالي لذلك الجيل، تبعًا لنفس الرواة، كان ألكسندر بن بريام يحتفظ بهذه الأمور في ذهنه، وعزم على أن يخطف لنفسه زوجة من بلاد الإغريق، ومما قوَّى عزمه هذا أن الإغريق لم يُكفِّروا عن أعمالهم العدوانية، وعلى ذلك لا يحق له أن يُكفِّر عن أي عمل عدواني يقوم به. وهكذا خطف هيلين، وعند ذلك قرر الأغارقة قبل الالتجاء إلى أية إجراءات أن يُوفدوا من قِبَلِهم رسلًا يطلبون إعادة الأميرة، وترضية عن تلك الإهانة، فقوبل طلبهم بالإشارة إلى العدوان السابق بخطف ميديا، وسُئِلوا بأية وجوه جاءوا يطلبون الترضية بينما سبق لهم أن رفضوا كل طلبات الترضية أو إعادة من خطفوهن.

بناءً على هذا كانت الأضرار الحادثة كلها مجرد اعتداءات عادية بين الطرفين، غير أن الفرس يعتبرون الأغارقة مُخطئين أبلغ الخطأ فيما تلا ذلك من اعتداءات؛ إذ أرسلوا جيشًا إلى آسيا قبل أن يحدث أي اعتداء على أوروبا. أما خطف النساء فهو — كما يقولون — من أعمال الأوغاد، بينما أعمال الاستفزاز التي حدثت من أعمال المجانين، فلا يهتم الحكماء بمسائل النساء تلك؛ إذ لا يُمكن أن تُخطف سيدة بغير رضاها، فعندما خطف الأغارقة نساء الآسيويين لم يهتم هؤلاء بمثل هذه السفاسف، إلا أن الإغريق بسبب فتاة لاكيدايونية جمعوا جيشًا في عداد الحصى، وغزوا به آسيا، وخربوا مملكة بريام. ومنذ ذلك الحين ينظر الآسيويون إلى الأغارقة كأعدائهم اللدودين. يعتبر الفرس آسيا بشتى قبائلها البربرية التي تقيم فيها مواطنين وإخوانًا لهم، ولكنهم ينظرون إلى أوروبا والأمة الإغريقية كبلاد وأمم منفصلة عنهم.

هذه هي رواية الفرس لتلك الاعتداءات، ويذكرون أن الهجوم على طروادة كان سببه تلك العداوة القديمة. ومع ذلك فإن الأغارقة يروون قصة أخرى عن خطف آيو تختلف عن رواية الفرس لها، فهم يُنكرون استخدامهم لأي عنف في نقلها إلى مصر، ويقولون إن الفتاة نفسها كوَّنت علاقة غرامية مع رُبَّان السفينة عندما كانت راسية في أرجوس، ولما وجدت نفسها حبلى صحبت الفينيقيين بمحض إرادتها عند مغادرتهم لبلدها خشية العار عندما يفتضح أمرها أمام والديها، وخوفًا من زجرهما إياها. وسواء أكانت هذه الرواية الأخيرة صحيحة أم كانت على خلاف ذلك، فلن أتعرض لمناقشتها.

انتقل الحكم الملكي في ليديا من أسرة هرقل إلى أسرة كرويسوس بالكيفية الآتية: كان يحكم سارديس ملك اسمه كانداوليس، أطلق عليه الإغريق اسم مورسيلوس.

أحب كانداوليس زوجته حبًّا جمًّا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل كان يتوهم أنها أجمل امرأة في العالم كله، فكان لهذا الوهم نتائج غريبة؛ إذ كان ضمن حرسه الخاص رجل اسمه جوجيس بن داسكولوس، حَبَاه الملك بعطفه وثقته، فكان يسند إليه جميع عظائم أموره، ويُفضي إليه بجمال زوجته الفذ … سارت الأمور على هذا المنوال ردحًا من الزمن، وأخيرًا شاءت الأقدار أن ينتهي الموضوع على أسوأ حال فقال الملك لتابعه ذات يوم: «أرى أنك لا تُقدِّر ما أخبرتك به عن فتنة زوجتي وجمالها الرائع يا جوجيس، وبما أن أُذنَي المرء أقل تصديقًا من عينَيه عادة فتعال، ودبِّر لنفسك طريقة تُشاهد بها زوجتي عارية»، عندئذٍ صاح جوجيس قائلًا: «ما هذا الهراء الذي أفلت من بين شفتيك يا سيدي؟! أتريدني أن أنظر إلى سيدتي وهي عارية؟! تروَّ فيما تقول يا سيدي، إن المرأة تتخلى عن حيائها وهي بملابسها، لقد ميَّز آباؤنا في سالف العصور الصواب من الخطأ في وضوح تام، ومن الحكمة أن نخضع لتعاليمهم، ثم إن هناك مثلًا قديمًا يقول: «لينظر كل امرئ إلى ما يملكه» إنني أعتبر زوجتك أجمل مخلوقة على ظهر البسيطة، ولكني أرجوك يا سيدي ألا تأمرني بمثل هذا العمل الشرير.»

هكذا حاول جوجيس التنحي عما اقترحه عليه الملك، وكان يرتجف خشية أن يناله أذى من جراء هذا الرفض، بَيْد أن الملك رد عليه بقوله: «تشجَّع يا صديقي، لا تظن أنني أقصد اختبارك بهذا، كما لا تخف أي أذى على يد سيدتك، تأكد أنني سأدبر الأمر بحيث لا تعرف أنك رأيتها، سأجعلك تقف وراء باب حجرة نومنا المفتوح، فعندما أدخل لأنام ستتبعني زوجتي، وبجانب الباب كرسي تضع عليه ملابسها وهي تخلعها قطعة قطعة، سيمكنك أن تراها بهذه الطريقة، وعندما تسير من جانب الكرسي إلى الفراش، وقد أدارت ظهرها نحوك، تسلل خارجًا، واجتهد ألا تراك وأنت تمر من الباب.»

لم يسع جوجيس أن يرفض، فأبدى استعداده لطاعة سيده، وعندما حان موعد النوم، صحب كانداوليس حارسه إلى مخدعه، وما هي إلا لحظة حتى دخلت الملكة وبعد برهة اتجهت نحو السرير، وما إن أدارت ظهرها حتى تسلل جوجيس خارجًا، إلا أن الملكة رغم هذا، لمحته وهو يخرج من الحجرة، وتكهنت في الحال بما حدث، ومع ذلك فلم تصرخ كما يقتضي منها حياؤها، ولم تُظهِر أنها لاحظت شيئًا، ولكنها اعتزمت في قرارة نفسها أن تنتقم من ذلك الزوج الذي كشف عورتها أمام رجل غريب؛ إذ كان من العار كل العار عند الليديين وحتى عند البرابرة عادةً أن يُرى الإنسان عاريًا حتى ولو كان رجلًا.

لم تبدُ من الملكة أية بادرة تنم عن معرفتها بما حدث، ولم تتفوَّه بأي كلام يشي بها، غير أنه ما إن أشرقت شمس الصباح حتى اختارت من بين حاشيتها من تثق في إخلاصهم أكثر من غيرهم، فأخبرتهم بما انتوت فعله حتى يكون على بَيِّنة بما سيحدث، ثم أمرت بمثول جوجيس في حضرتها، وكان من عادة الملكة أن تطلبه كثيرًا؛ لتتحدث إليه في أمور شتى، وكان متعودًا أن يُلبي طلبها، ولذلك أطاع الأمر دون أن يُساوره أي شك من ناحية علمها بما تجرأ عليه، ولما مثل بين يديها، قالت له: «اختر لنفسك أي الطريقين يا جوجيس؛ إما أن تقتل كانداوليس وتتزوجني، وتحصل على تاج ليديا، وإما أن تموت في هذه اللحظة في غرفة نومه جزاء طاعتك جميع أوامر سيدك، فنظرتَ إلى ما ليس من حقك، والآن تستلزم الضرورة إما أن يموت ذلك الذي أشار عليك بما حدث، أو تموت أنت يا من رأيتني عارية وخرقت تقاليدنا»، عند ذلك وقف جوجيس لفترة من الوقت حائرًا مبهوتًا، وبعد أن أفاق من ذهوله، أخذ يتوسل إلى الملكة ألا تُجبره على إتيان مثل هذا العمل الشاق. ولما رأى أن توسلاته ذهبت أدراج الرياح، وأنه ينبغي له إما أن يَقتُل أو يُقتَل، اختار الحياة لنفسه قائلًا: «إذا كان لا بد من أن يكون الأمر على هذا النحو، وأنك تُلزمينني كرهًا على قتل سيدي، فأخبريني بالطريقة التي أُنفذ بها ذلك»، فقالت الملكة: «اقتله في نفس الموضع الذي رأيتني فيه عارية، وليكن اغتياله وهو نائم.»

دُبِّر كل شيء لاغتيال الملك، وعندما خَيَّم الظلام على الكون، ورأى جوجيس أن لا مفر من أن يَقتُل كانداوليس، أو يَقتُل نفسه، تبع سيدته إلى حجرة النوم، فأعطته خنجرًا، وخبأته وراء نفس الباب، وعندما استغرق الملك في النوم تسلل جوجيس إلى داخل مخدعه وغيَّب الخنجر في صدره، فقتله، وبهذا انتقلت زوجة كانداوليس ومملكته إلى جوجيس.

الفصل الثاني

أسطورة أريون

كان بريناندر بن كويبسيلوس ملكًا على كورنثة وكان طاغية جبارًا، ويُقال إن حادثًا عجيبًا جدًّا حدث في عصره، ويتفق الكورنثيون والليسبيون في روايتهم له، فيقولون إن أريون الذي بلده ميثومنا كان موسيقيًّا بارعًا في العزف على القيثارة، لا يدانيه فيه أي شخص آخر على وجه الأرض في عصره، وكان تبعًا لما نعلمه أول من ابتكر البحر الشعري المعروف باسم dithyrambic؛ ليطلق عليه اسمه، وليُنشِده في كورنثة، وذات مرة حمله دلفين فوق ظهره حتى وصل إلى تايناروم.

عاش أريون عدة سنوات في بلاط بريانيدر، إلى أن استبد به الشوق للسفر إلى إيطاليا وصقلية، وبعد أن جمع أموالًا طائلةً في تلك السنوات من البحَّارة الكورنثيين؛ إذ رأى أنهم خير مَن يثق فيهم ويكون في أمان بينهم، فركب السفينة وأقلع راجعًا من تارينتوم، ولما وصلت السفينة البلاد أراد أن يعبر البحر عائدًا إلى كورنثة، فاستأجر سفينة لجماعة إلى عرض البحر. تآمر البحارة فيما بينهم على أن يقذفوا به في اليم ويستولوا على ثروته، ولما علم بتدبيرهم، جثا على ركبتَيه وأخذ يستعطفهم ويتوسل إليهم أن يتركوه حيًّا ويأخذوا أمواله حلالًا لهم، غير أنهم رفضوا وطلبوا منه إما أن يقتل نفسه في الحال إن كان يرغب في أن يُدفَن على اليابسة، أو لا يضيِّع الوقت فيقفز من فوق ظهر السفينة في الماء، فتوسل إليهم ثانية أن يسمحوا له ما دامت هذه هي مشيئتهم بأن يصعد إلى السطح الأوسط للسفينة مرتديًا كامل ثيابه الرسمية، ويعزف ويغني، حتى إذا ما انتهت أغنيته أغرق نفسه. فسُرَّ البحَّارة لفرصة سماعهم أعظم موسيقى في العالم، ومنحوه ذلك الطلب، وانسحبوا من كوثل السفينة إلى وسطها، بينما ارتدى أريون ثيابه الرسمية كاملة كما لو كان ذاهبًا لإحياء حفل عظيم، وأخذ قيثارته، ووقف على أعلى سطحٍ بوسط السفينة وشرع يغني الأغنية الأورفية، ولما انتهى منها قذف نفسه إلى البحر وهو في تلك الملابس،

عندئذٍ أكمل الكورنثيون إبحارهم إلى كورنثة، أما أريون فيُقال إن دلفينًا حمله فوق ظهره وظل سابحًا حتى أوصله إلى تايناروم؛ حيث خرج إلى الشاطئ وأتم رحلته إلى كورنثة في ثيابه الموسيقية، وهناك قصَّ كل ما حدث له. بَيْد أن برياندر لم يصدق روايته ووضعه تحت الحراسة ليمنعه من مغادرة كورنثة، وظل يُراقب عودة البحَّارة في لهفة. وعندما وصلوا إلى هناك استدعاهم إليه وطلب منهم أن يخبروه بأية أنباء عن أريون إن كانوا يعلمون عنه شيئًا، فأجابوه بأن أريون حي يرزق وفي صحة جيدة بإيطاليا، وأنهم تركوه في تارينتوم حيث يعمل بنجاح ويكسب أموالًا كثيرة. في تلك الآونة ظهر أمامهم أريون بنفس الصورة التي كان عليها عندما قفز من فوق ظهر السفينة، فذُهِل الرجال وأُسقِط في أيديهم وعرفوا أن أمرهم افتُضح، فاعترفوا بجريمتهم.

هذه هي الرواية التي يحكيها الكورنثيون والليسبيون، وحتى اليوم يقدم أهل تايناروم التقدمات أمام محراب أريون؛ حيث يقف تمثال صغير من البُرونز يمثل رجلًا على ظهر دُلفين.

الفصل الثالث

أسطورة سولون

تولى كرويسوس بن ألياتيس مقاليد الحكم بعد موت أبيه، وكان إذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمره، فكانت أفسوس أولَ مدينة إغريقية هاجمها، وعندما حاصرها، كرسها أهلها للربة ديانا بأن مدُّوا حبلًا من سور المدينة إلى معبد تلك الربة[1] الذي كان على مسافة بعيدة من تلك المدينة القديمة التي حاصرها كرويسوس وقتذاك. وتبلغ تلك المسافة سبعة فور لونج (الفور لونج $\frac{١}{٨}$ ميل).[2] كان أهل أفسوس كما ذكرنا أول من هاجمهم كرويسوس، وبعد ذلك تَذَرَّع بحجة ما، وشن الحرب على الولاية الأيونية والأيولية مُبديًا سببًا للشكوى كلما استطاع، فإذا لم يجد سببًا للشكوى احتج ببعض الأعذار الواهية.

بهذه الطريقة جعل كرويسوس نفسه سيدًا على جميع المدن الإغريقية في آسيا، وأجبرها على أن تتبعه. بعد ذلك أنشأ يُفكر في بناء أسطول ليهاجم به سكان الجُزر الإغريقية، فأعد عُدته لتنفيذ تلك الرغبة، بيد أن بياس البرييني أحبط مسعاه في ذلك المشروع، فقد سأله الملك عندما عاد من سارديس عما إذا كان قد سمع أخبارًا من بلاد الإغريق، فأجابه بقوله: «نعم يا سيدي؛ يَجِدُّ سكان الجُزر في جمع عشرة آلاف حصان للقيام بحملة عليك وعلى عاصمة مُلكك»، وإذ اعتقد كرويسوس أن بياس يقول الحقيقة

[1] يذكر بلوطارخ (سولون، الباب الثاني عشر) قصة مماثلة لهذه؛ إذ يقول إن اللاجئين الذين اتُّهِمُوا بفتنة كولون في أثينا ربطوا أنفسهم إلى المذبح بحبل، فإذا قُطع الحبل فقدوا صفتهم المقدسة. كذلك عندما كرس بولوكرايتس جزيرة رينيا إلى أبولو الديلياني وصلها بدبلوس بسلسلة (ثوكردبس الباب الثالث صفحة ١٠٤).

[2] نعلم من هذا أن موقع مدينة أفسوس تغيَّر من عهد كرويسوس إلى عهد هيرودوت والمباني التي شاهدها هيرودوت هي التي احترقت في سنة ٣٥٦ق.م.

صاح قائلًا: «عسى أن تضع الآلهة هذه الفكرة في أذهانهم كي يهاجموا أبناء الليديين بالفرسان!» فرد عليه بياس يقول: «يبدو أيها الملك أنك تريد مهاجمة سكان الجزر بالفرسان فوق الأرض الأصلية، وإنك لتعلم حق العلم ماذا ستكون النتيجة، وماذا تظن أن يأمل فيه أهل الجزر خيرًا من هذا بعد أن سمعوا أنك تزمع بناء أسطول لتهاجمهم به وتنتقم منهم جزاء إساءة إخوانهم الذين استعبدتهم؟» وقع ذلك الكلام في نفس كرويسوس موقع السحر، واعتقد أن هناك ما يُبرر جمعهم للخيول، فصرف من ذهنه فكرة بناء أسطول، وأبرم معاهدة صداقة مع أيونيِّي الجزر.

عندما ضُمت كل هذه الفتوحات إلى الإمبراطورية الليدية، وبلغت ساردیس أوجَ عظمتها، وفدَ إليها جميع حكماء الإغريق في ذلك العصر، واحدًا بعد آخر، ومن بينهم سولون الأثيني[٣] عندما خرج في رحلاته، ولكن الحقيقة هو أنه هرب من أثينا؛ لئلا يضطر بناءً على طلب أهلها أن يلغي أي قانون من القوانين التي سنَّها لهم، ولم يكن بوسع الأثينيين أن يلغوا أيها بدون موافقته؛ لأنهم أقسموا أيمانًا مغلظة أن يخضعوا للقوانين التي يفرضها عليهم سولون لمدة عشر سنوات.

لهذا السبب، ولكي يرى العالم، خرج سولون في رحلاته فذهب إلى مصر إلى بلاط أماسيس، وذهب أيضًا لزيارة كرويسوس في ساردیس فأكرم كوريسوس وفادته واستضافه في قصره الملكي. وفي اليوم الثالث أو الرابع أمر كرويسوس خدمه أن يطلعوا سولون على كنوزه وعظمته وأُبَّهته، فلما رأى سولون كل ذلك وفحص بنفسه كل شيء، سأله الملك: «أيها الغريب الأثيني لقد سمعنا الكثير عن حكمتك ورحلاتك خلال البلدان حبًّا في المعرفة ورغبة في مشاهدة غرائب الدنيا لهذا تجدني متلهِّفًا لأعرف منك؛ من هو أسعد رجل رأيته؟» ألقى كرويسوس هذا السؤال على سولون؛ لأنه كان يظن نفسه أسعد رجل على ظهر الغبراء، بَيْد أن سولون أجابه بلا نفاق ولا تملُّق، بل تبعًا لشعوره الحق، فقال: «أسعد رجل شاهدته هو تيلوس الأثيني يا سيدي.» فذُهل كرويسوس مما سمع، وقال محتدًّا: «ولماذا تعتبر تيلوس أسعد رجل؟» فأجابه سولون بقوله: «أولًا: لأن مملكته ازدهرت في عصره، وله هو نفسه أولاد على قدرٍ بالغ من الجمال والصلاح، ولأنه عاش

[٣] أهملنا زيارة سولون لكرويسوس قبل عهد بلوطارخ (سولون، الباب ٢٧)؛ إذ اعتُبرت خرافيةً بناءً على الصعوبات التاريخية. فمن المحتمل جدًّا أن يكون كرويسوس قد حكم من سنة ٥٦٨ق.م. ولا شك في أن سولون عاش بعد أن اغتصب بيسيتراتوس مقاليد الحكم في أثينا سنة ٥٦٠ق.م.

ورأى كلاًّ منهم يُنجب أطفالًا، ورأى أولئك الأطفال وقد كبروا وترعرعوا، وزيادة على ذلك فبعد أن قضى حياته فيما يعتبرها شعبنا حياة مريحة مات بمجد منقطع النظير؛ إذ هبَّ لنجدة شعبه في قتالٍ بين الأثينيين وجيرانهم قرب اليوسيس فمات شجاعًا في حومة الوغى، فدفنه الأثينيون باحتفال رائع في البقعة التي سقط فيها، وقدموا له أعظم فروض التبجيل والاحترام.»

هكذا نصح سولون كرويسوس بالمثل الذي قدمه له عن تيلوس، مُعَدِّدًا مميزات السعادة الكثيرةَ المظاهر. وبعد أن انتهى سولون من ذلك سأله كرويسوس مرةً ثانيةً عمن يعتبره في المرتبة الثانية من السعادة بعد تيلوس، متوقعًا أن يكون هو في تلك المنزلة، مهما كانت الظروف، غير أن سولون خيَّب ظنه بقوله: «كليوبيس وبيتو؛ إنهما شابان من سكان أرجوس، كانَا ذوَي أموال تكفي لسد حاجاتهما، وقد وُهِبا علاوةً على ذلك قوة بدنية نالا بواسطتها الجوائز في المباريات الرياضية، ويروي القوم عنهما هذه القصة: كان الشعب يحتفل بعيد الربة جونو في أرجوص، وكان لابد من أن تذهب والدتهما إلى المعبد في عربة، بَيْد أن الثيران التي تجر العربة تأخرت في المجيء من الحقل، فخشي الشابان أن يمنع ذلك ذهاب أمهما إلى المعبد في الوقت المناسب، فما كان منهما إلا أن وَضعَا النير على عنقيهما وجرَّا العربة التي ركبتها أمهما لمسافة خمسة وأربعين فورلنجًا (الفورلنج ١/٨ ميل) حتى وقفَا بها أمام المعبد. وهكذا قامَا بعمل مجيد أمام كافة جمهور المحتفلين بتكريم الربَّة، كما أن حياتهما انقضت على خير ما تكون عليه نهاية الحياة، وكذلك أوضح الرب أن الموت أفضل للإنسان من الحياة؛ فقد أثنى الرجال الملتفون حول العربة على شجاعة وقوة الشابين، وأثنت النساء الأرجوسيات على تلك الأم التي حوبيت بنعمة مثل هذين الابنين، واغتبطت الأم نفسها بذلك العمل وبالثناء الذي نالته فوقفت أمام تمثال الربة، وتوسلت إليها أن تمنح ولديها كليوبيس وبيتو اللذين كرَّماها وشرَّفاها أقصى نعمة يمكن أن ينالها البشر، وما إن انتهت من صلاتها حتى قدمت الذبائح واشترك الجميع في الوليمة، وبعد ذلك غلب النعاس الشابين فناما في المعبد، ولكنهما لم يستيقظَا من النوم بعد ذلك، بل غادرَا الدنيا، وإذ اعتبرهما الأرجوسيون من بين أفاضل الرجال، صنعوا لهما تمثالين أقاموهما في محراب دلفي.»

عندما وضع سولون هذين الشابين في المرتبة الثانية من السعادة صاح كرويسوس غاضبًا فقال: «إذن فماذا تكون سعادتي أيها الغريب الأثيني، إذ لم تقدرها بشيء، ولم تضعها حتى في مستوى الرجال العاديين؟!»

فقال سولون: «أي كرويسوس! إنك لتسأل عن حال الإنسان، وتوجه سؤالك إلى رجل يعرف أن السلطة هي أكثر شيء مُلئ بالحسد، ومولعة بالتنكيد علينا غاية النكد، فالحياة الطويلة تمكِّن المرء من أن يرى كثيرًا، ويجرب كثيرًا ما لا يحبه، إنني أعتبر أقصى حياة للإنسان سبعين عامًا، فيكون مجموع الأيام التي يقضيها في ذلك العمر ستة وعشرين ألفًا ومائتين وخمسين يومًا لا يمر منها يومٌ إلا ويرى فيه حادثًا يختلف عن سائر الأحداث التي شاهدها قبل ذلك، وعلى ذلك يكون المرء مجموعة من الأحداث. أما عن نفسي فأرى أنك واسع الغنى بدرجة مدهشة، وأنك سيد على عدة أمم. وأما بخصوص السعادة التي تسألني عنها فليس عندي ما أرد به عليك إلا بعد أن أسمع أنك أنهيت حياتك نهاية سعيدة، فمن المؤكد أن من يملك خزائن الدنيا من الكنوز ليس أقرب من السعادة ممن يملك ما يكفي حاجته اليومية فحسب، إلا إذا حالفه حسن الحظ، وبذا يستمر يتمتع بخيراته إلى آخر أيام حياته. فقد عاكَسَ الحظ كثيرين ممن يملكون ثروات طائلة، كما ساعد الحظ كثيرين من متوسطي الحال، ولا يتفوق النوع الأول من هذين على النوع الثاني إلا في ناحيتين، أما النوع الثاني فيتفوق على الأول في عدة نواحٍ؛ فالرجل الغني أقدر من متوسط الحال على نَيْل كل حاجاته والتغلب على المصائب المفاجئة، أما النوع الثاني فأقل مقاومة لهذه النوائب (التي يحفظه حسن حظه منها)، غير أنه يتمتع بكل النعم التالية: إنه كامل الصحة، وأقوى على مقاومة الأمراض، وخالٍ من سوء الحظ، سعيد بأولاده وبحسن منظره، فلو أنهى حياته علاوة على ذلك نهاية طيبة كان حقيقة هو الرجل الذي تنشدُه، الرجل الذي يصح بحقٍّ أن يوصف بالسعادة، وإلى أن يموت، ذلك الرجل يمكنك أن تطلق عليه أي اسم قل إنه محظوظ، وليس سعيدًا، والحقيقة أنه من النادر أن يتصف أي رجل بجميع هذه الميزات، مثله في ذلك مثل الدول فما من دولة تملك في بلدها كل ما تحتاجه، فبينما تملك كل منها أشياء معينة ينقصها أشياء أخرى، وأفضل دولة هي التي تملك معظم احتياجاتها. كذلك الأمرُ؛ ما من مخلوق بشري واحد كامل من جميع الوجوه، لا بد من وجود نقص ما. فمن يضم أكبر عدد من المميزات ويحتفظ بها إلى يوم مماته؛ حيث يموت هادئًا هو وحده تبعًا لحُكمي يا سيدي مَن يصح أن يُقال عنه إنه سعيد. إننا ننتظر النهاية في كل حالة؛ فالرب يمنح البشر قبسًا من السعادة، ثم يغمرهم بعد ذلك في الخراب.»

هكذا تحدَّث سولون إلى كرويسوس، وهو حديث لم يجلب عليه مالًا ولا أمجادًا، فعندما رحل عن البلاد لم يهتم به الملك؛ إذ كان يعتقد أن من لا يحكم بالغِنى الحاضر، وينتظر معرفة النهاية أولًا، لا شك معتوه غشى الله على بصيرته.

الفصل الرابع

قصة أدراستوس

بعد أن غادر سولون بلاط كرويسوس انتقم الرب من هذا الملك المغرور انتقامًا فظيعًا عقابًا له على اعتباره نفسَه أسعد رجل. بدأ ذلك الانتقام بأن رأى كرويسوس حلمًا أبانَ له حقيقة الكوارث التي توشك أن تحيق به في شخص ولده؛ فقد كان لكرويسوس ولدان؛ أحدهما مصاب بعاهة طبيعية؛ إذ كان أصم وأبكم، أما الابن الثاني فيمتاز على سائر أترابه في جميع الصفات. كان اسمه آتوس، وهو الذي أشار إليه الحلم بأنه سيموت بضربة من سلاح حديدي، فلما استيقظ كرويسوس من نومه ذُعِر ذعرًا بالغًا فقام في الحال يخطب عروسًا لابنه، وكان من عادة ذلك الابن في السنين الماضية أن يخرج مع القوات الليدية إلى ميدان القتال، بَيْد أن والده الآن لم يسمح له بمرافقتهم، وزيادة في الحيطة انتزع الأب جميع الحراب والرماح وأسلحة القتال من مساكن الرجال بالقصر، ووضعها في أكوام بغرف السيدات؛ لئلا تسقط إحداها وهي معلقة على الحائط فوق ابنه فتقتله.

حدث أنه عندما كان كرويسوس مشغولًا في الاستعداد لحفلات الزواج أقبل رجل من سارديس يحمل على رأسه لعنة الدماء، كان فروجي الأصل من أسرة أحد ملوك فروجيا، جاء إلى قصر كرويسوس متوسلًا أن يسمح له بأن يتطهَّر تبعًا لعادات تلك البلاد، وكانت طريقة التطهر الليدية هي الطريقة الإغريقية نفسها تقريبًا، فمنحه كريسوس أمنيته وقام له بالطقوس المألوفة، وبعد أن تَطهَّر ذلك الغريب سأله كرويسوس عن نسبه وعن مملكته بقوله: «من أنت أيها الغريب؟ ومن أي أجزاء فروجيا هربت لاجئًا إلى وطني؟ زيادة على ذلك أي رجل أو امرأة قتَلت؟» فأجاب الفروجي قائلًا: «أيها الملك! أنا

ابن جورردياس بن ميداس، واسمي أدراستوس[١] وأما من قتلتُه فهو شقيقي، لذلك طردني أبي من مملكته وفقدت كل شيء، فهربت إلى هنا»، فقال كرويوس: «إنك سليل بيت صديق لي، وقد أتيت إلى أصدقاء، لن تحتاج إلى شيء طالما أنت في حماي، اصبر على سوء طالعك وتحمله على أحسن ما يناسبك قدرَ طاقتك». ومن تلك اللحظة عاش أدراستوس في قصر ذلك الملك.

حدَث أن ظهر في الوقت نفسه خنزير بري ضخم في أوليمبوس الموزية، كان يهبط من المنحدرات الجبلية ويعيث فسادًا في حقول القمح التي يملكها الموزيون، وكثيرًا ما تجمع الفلاحون ليصيدوه، ولكن بدلًا من أن يصيبوه بالأذى كان هو يُمنِّيهم بخسائر فادحة في الأرواح. وأخيرًا أوفدوا رسلًا إلى كرويسوس يقولون له: «أيها الملك! لقد ظهر في بلادنا وحش ضخم عبارة عن خنزير بري، خرب مزروعات أراضينا، وقد حاولنا جهدنا أن نفتِك به ولكن دون جدوى، والآن، نتوسل إليك أن تبعث إلينا بابنك ليصحبنا ومعه نخبة من الشبان الأقوياء وكلاب الصيد؛ حتى نستطيع أن نخلص بلدنا من ذلك الوحش.» هكذا نص توسلهم.

بيد أن كرويسوس تذكر حلمه، فرد عليهم بقوله: «تتحدثون بعد الآن عن ذهاب ابني معكم، فليس هذا من الحكمة في شيء لقد تزوج حديثًا، وهو جدٌّ مشغول في زواجه، سأمنحكم فئة منتخبة من الليديين، وجميع الرجال المتخصصين في الصيد، وكذلك كلاب الصيد، وسآمر مَن أُرسلهم بأن يقدموا لكم كل مساعدة لتخليص بلادكم من ذلك الوحش.»

قنع الموزيون بهذا الرد، غير أن آتوس سمع بطلب الموزيين، وبرفض أبيه أن يرسله معهم، فدخل على أبيه فجأة وخاطبه بقوله: «أبتاه! كانت أشرف وأنسب مهمة لي من قبل أن أُرافق الجنود في الحروب، وأشترك في فرق الصيد، وبذا أنال المجد لنفسي، إلا أنك تحرمني الآن كليهما، مع أنك لم تشاهدني قَط جبانًا، بأي وجه أسير جيئةً وذهابًا؟ ماذا يظن بي المواطنون؟ وماذا تظن بي عروسي الشابة؟ فإما تسمح لي بمطاردة ذلك الخنزير، أو تقنعني بأنه من الخير لي أن أسير تبعًا لرغباتك.»

---

[١] معنى أدراستوس هو «المحكوم عليه»، أو «الرجل غير القادر على الهرب»، أما آتوس فمعناه «الشاب الخاضع لسلطة آتي» أو «الرجل الأعمى شرعًا».

قال: «اسمع يا بني! لم أمنعك بسبب أنني رأيتُ منك جبنًا أو نحوه أغضبني وجعلني أمنعك الذهاب، ولكني أمنعك لأنني رأيتُ حلمًا في نومي، حذرني من أنك ستموت في ريعان شبابك بطعنة من سلاح حديدي. هذا هو ما حدَا بي أن أُسرِع بتزويجك، ثم جعلني أمنعك الآن أن تذهب في هذه الرحلة، إنني أبذل كل جهدي في مراقبتك؛ عساي أُبعِد عنك القضاء بكل وسيلة في مدة حياتي؛ لأنك ابني الوحيد، أما أخوك الآخر الفاقد السمع فلا أعتبره موجودًا.»

فقال الشاب: «لن ألومك يا أبتاه على مراقبتك إياي بعد أن رأيت مثل ذلك الحلم المزعج، ولكن ماذا لو كنتَ مخطئًا؟ ولو أخطأت في فهم الحلم فهمًا صحيحًا فلا لوم عليَّ أن أوضحتُ لك موضع خطئك ... يتكهن الحلم الذي رأيته أنت نفسك بأنني سأُقتل بسلاح حديدي، فهل للخنزير البري يدان يضرب بهما؟ وأين له بسلاح من الحديد يضرب به؟ هذا ما تخافه عليَّ. لو قال الحلم إنني سأُطعن بناب لحقَّ لك أن تمنعني الذهاب لصيد ذلك الوحش، ولكنه قال إنني سأُطعن بسلاح، ولن نقاتل رجالًا في هذه الرحلة، بل حيوانًا متوحشًا؛ إذن أرجوك أن تُصرح لي بالذهاب معهم.»

فقال كرويسوس: «الحق معك يا ولدي، إن تفسيرك للحلم لأصح من تفسيري، إذن فأنا أخضع لهذا التفسير، وأُغيِّر رأيي، وأُصرح لك بالذهاب.»

عندئذٍ أرسل الملك لطلب أدراستوس الفروجي، فلما جاء قال له: «عندما ضربتُك بقضيب اللعنة طهرتك وجعلتك تعيش معي في قصري ولم أمنعك شيئًا، والآن ينبغي أن ترد لي هذا الجميل بأن تقبل مُرافقة ولدي في رحلة الصيد هذه، وأن تحرسه فيها لو هاجمتكم عصابة لصوص في خلال الطريق، وفضلًا عن هذا فمن حقك أن تذهب حيث تستطيع أن تنال الشهرة لنفسك بالأعمال النبيلة، هذه تقاليد أسرتكم، وإنك لشجاع وقوي.»

فأجاب أدراستوس بقوله: «لولا طلبك يا مولاي لابتعدت عن مغامرة الصيد هذه؛ إذ أرى أنه لا يليق برجل منحوس الطالع مثلي أن يُرافق زملاء أسعد منه حظًّا، وعلاوة على هذا فليست لي الجرأة على مثل هذا العمل، لقد تخلفت عنها في مرات كثيرة ولأسباب عدة، ولكن بما أنك تُحَتِّم عليَّ الذهاب فيها فأنا مُلزم بعمل ما يُرضيك (إذ الحقيقة أنه يجب عليَّ أن أرد الجميل)، وعلى ذلك فأنا طوع أمرك، أما عن ابنك الذي تضعه في عهدتي فتأكد أنه سيعود إليك سليمًا سالمًا، بقدر ما تتوقف هذه السلامة على عناية حارسه.»

ما إن اطمأن كرويسوس على سلامة ولده حتى سمح لهما بالرحيل برفقة فئةٍ من الشبان المختارين، ومعهم عدد من كلاب المُطاردة. ولما بلغ الجميع أوليمبوس، انتشروا في طلب ذلك الحيوان، وسرعان ما عثروا عليه، فالتفَّ حوله الصيادون في دائرة، وأخذوا يمطرونه وابلًا من أسلحتهم، فحاكاهم الرجل الغريب الذي تطهر من لعنة الدماء، والذي يُسمَّى أدراستوس، فقذف رمحه نحو الخنزير، ولكنه أخطأ الهدف فطاش الرمح وأصاب آتوس، وهكذا قُتل ابن كرويسوس بسلاح حديدي، وتحققت نبوءة الحلم، فأسرع رسولٌ يحمل النبأ إلى الملك في سارديس، وأخبره بقصة القتال وبالقضاء الذي أصاب ولده.

وكان وقْع الصدمة بالغًا على كرويسوس، أن يعلم بموت ولده، ولكنَّ ألمه كان أشد وأنكى عندما عرف أن الشخص الذي طهره هو بنفسه الذي قتل ولده، وفي ذروة حزنه نادى جوبيتر كاثارسيوس؛ ليكون شاهدًا على ما أصابه على يدي ذلك الرجل الغريب.

ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد الليديون يحملون جثة الشاب، ومن خلفهم القاتل، وما إن صار في حضرة الملك حتى اتخذ موقفه أمام الجمع، ومد يديه نحو كرويسوس مسلِّمًا نفسه إليه، وتوسل إليه أن يُضحيَ به فوق جثة ابنه، «كانت جريرته الأولى عبئًا ثقيلًا، فإذا به يُضيف إليها جريرة أخرى، وجلب الخراب على الرجل الذي طهره، وعلى ذلك لا يستطيع أن يعيش»، وعندما سمع كرويسوس كلامه تأثَّر غاية التأثُّر، فأخذته الشفقة على أدراستوس برغم ألمه الشديد على فَقْد فلذة كبده، فقال: «كفى يا صديقي! لقد نلتَ كل ما أريده من انتقام؛ إذ حكمت على نفسك بالموت، بَيْد أن الحقيقة هي أنك لست بالشخص الذي ضرني، بل الفاعل الحقيقي والمُتَسبب فيما أصابني من نحس هو أحد الآلهة، وقد حُذِّرت منه منذ زمن طويل، أما أنت فكنت الأداة التي قامت بالضربة عن غير قصد.» بعد ذلك دَفَن كرويسوس ابنه بالاحتفال والأمجاد اللائقة به. أما أدراستوس بن جوردياس بن ميداس، قاتل أخيه وجالب الخراب على مَن طهَّره فقد اعتبر نفسه أتعس مخلوق عرفه، انتظر حتى شمل الهدوء ذلك المكان ثم قتل نفسه فوق قبر آتوس. وأما كرويسوس فلزم الحداد سنتين كاملتين حزنًا على ولده.

الفصل الخامس

كرويسوس

بعد مرور عامين على موت آتوس شُغل كرويسوس عن حزنه بسبب الأخبار التي وصلته عن الأحداث الجارية في الخارج، فقد علم أن كوروس بن قمبيز خرب إمبراطورية آسياجيس بن كياكساريس، وأن قوة الفرس تزداد يومًا بعد يوم، فأخذ يُفكر في نفسه عما يستطيع فعله؛ ليوقف ازدياد قوة أولئك القوم قبل أن تبلغ الذروة. وإذ بدأت هذه الفكرة تعتمل في ذهنه عزم على أن يختبر كل وحي في بلاد الإغريق، ووحي ليبيا.[١] وعلى ذلك بعث رسله إلى مختلف الجهات، فذهب بعضهم إلى دلفي، والبعض الآخر إلى أباي[٢] في فوكيس، وبعضٌ ثالث إلى دودونا، وآخرون إلى أمفياراوس، وغيرهم إلى تروفونيوس، وكذلك إلى برانكيداي في ميليزيا. وهذه جميعًا هي التي أرسل يختبرها في بلاد الإغريق، كما أوفد رسلًا آخرين إلى ليبيا لاختبار وحي آمون. ذهب أولئك الرسل؛ ليعرفوا قدرة كل وحي على التكهُّن، فإذا ما ظهر صدق إجابة أي وحي منها أوفد إليه رسلًا آخرين يسألونه عما إذا كان بوسعه أن يُهاجم الفرس.

أمر كرويسوس مَن أوفدهم بأن يعدوا مائة يوم ابتداءً من يوم سفرهم من ساردیس، وفي اليوم المائة يسألون الوحي عما يفعله كرويسوس ابن إلياتيس ملك ليديا في تلك اللحظة، وعند ذلك ينبغي لهم أن يكتبوا الردَّ ويعودوا به إليه. ولم يسجل التاريخ

[١] الوحي الموجود في ليبيا (بأفريقيا) هو وحي آمون؛ إذ كان هيرودوت يعتبر مصر من آسيا وليست دولة أفريقية.

[٢] يبدو أن وحي أباي كان في المرتبة الثانية بعد وحي دلفي، ويبدو أنه لم يكن لدى الشرقيين أي وحي في بلادهم.

من هذه الردود غير ردٍّ وحي دلفي، فما إن دخل الرسل المحراب[٣] حتى قالت لهم الكاهنة في أسلوب شعري سداسي التفعيلات قبل أن يسألوها عن أي شيء:

بوسعي أن أعد الرمال، وأن أقيس المحيط، ولي آذان تسمع الصامتين، وأعرف ما يجول بخاطر الأبكم، وإن حواسي لتشمُّ رائحة سلحفاة ذات درقة تُطبَخ الآن فوق النار مع لحم خروف في مرجل الوعاء السُّفلي من النحاس والغطاء أعلاه من النحاس أيضًا.

دوَّن الليديون هذه الكلمات بمجرد أن خرجت من بين شفتي الكاهنة، ثم عادوا أدراجهم إلى سارديس، وعندما رجع الرُّسل بالردود التي تلقوها جميعًا، فضَّ كرويسوس اللفافات وقرأ ما كُتِب في كل منها، فلم تثبت صحة غير رد واحد،[٤] هو رد وحي دلفي. فما إن سمع ذلك الرد حتى شرع في تقديم فروض العبادة مُعلِنًا أن وحي دلفي هو الوحي الوحيد الصادق، إنه الوحي الوحيد الذي عرف حقيقة ما سُئل عنه. إذ بعد أن رحل الرُّسل في مهمتهم، أخذ كرويسوس يُفكر في الشيء الأكثر احتمالًا ألاَّ يتنبأ أي وحي في أنه يفعله، ثم انتظر حتى جاء اليوم المتفق عليه، فأخذ سلحفاة وخروفًا، وقطعهما بيديه قِطَعًا، ووضعهما معًا على النار في مِرجل من النحاس ذي غطاء من النحاس أيضًا.

هذا هو الرد الذي تلقاه كرويسوس من دلفي، أما الرد الذي تلقاه الرسل الليديون الذين ذهبوا إلى محراب أمفياراوس، وقاموا هناك بالطقوس المعتادة فلا يُمكنني أن أذكره؛ إذ لم يُسجل، وكل ما عُرف عنه هو أن كرويسوس وجده يقول الحقيقة.

بعد ذلك عزم كرويسوس على إرضاء الإله الدلفي بالذبائح الفخمة، فقدم له ثلاثة آلاف رأس من كل نوع من حيوانات الذبائح، وعلاوة على ذلك صنع كومة ضخمة وُضِع فوقها مقاعدُ وأسرَّةٌ مكسوة بالفضة والذهب، وكئوسٌ من الذهب، وأثوابٌ وصديرياتٍ من الحرير الأرجواني، أحرقها جميعًا أملًا في أن يضمن لنفسه الحظوة لدى ذلك الرب.

[٣] Uèypov هو المحراب الداخلي أو الغرفة المقدسة؛ حيث تنطق الكاهنة بأقوال الوحي.

[٤] يستحيل أن نناقش موضوعًا مثل طبيعة كل وحي قديم؛ إذ كُتِبَت عن ذلك الموضوع مجلدات عدة، وكانت في حدود مذكرة. ولكني سأراعي في حكمي على هذا الموضوع نقطتين ليس غير، وهما: (أولًا) أن الكاهنة التي قابلها القديس بولس عند أول نزوله ببلاد الإغريق الأوروبية كان بها حقيقة مس من الشيطان، فأخرج القديس بولس ذلك الروح الشرير منها، وبذا جرد سادتها من أمل في الربح (الفصل السادس عشر ١٦–١٩). (ثانيًا) وجد أنه ربما كانت ظاهرة التنويم المغناطيسي أبسط وأصدق تفسير لصدق تكهنات الوحي.

وبعد أن فرغ من كل هذا أصدر أوامره لجميع شعبه بأن يقدم كل منهم ذبيحة بقدر ما تسمح به موارده، وبعد تقديم الذبائح صهر الملك كمية عظيمة من الذهب وصبها في قوالب مستطيلة الشكل، طول كل منها ست راحات، والعرض ثلاث راحات، والسُّمْك راحة يد واحدة، فكان مجموع هذه القوالب مائة وسبعة عشر قالبًا، أربعة منها من الذهب الخالص، ووزن كل قالب ثالنتان ونصف ثالنت (الثالنت يُعادل وزن ٥٧ رطلًا إنجليزيًّا)، وبقيتها من سبائك الذهب غير النقي، ووزن كل منها ثالنتان، وفوق كل هذا أمر بصُنع تمثال أسدٍ من الذهب النضار وزنه عشرة ثالنتات، وعندما احترق معبد دلفي عن آخره سقط ذلك التمثال من فوق القوالب الذهبية التي كان يقف عليها، وهو الآن محفوظ في خزانة المالية بمدينة كورنثة، ويزن الآن ستة ثالنتات ونصف ثالنت بعد أن فقد ثلاثة ثالنتات ونصف بفعل النار.

صدرت الأوامر إلى الرسل الذين عهد إليهم بتسليم هذه الهدايا أن يسألوا الوحيَين الصادقَين عما إذا كان يصح لكرويسوس أن يشتبك في حرب مع الفرس، فإن جاء الرد بالإيجاب سُئِلا ثانيةً عما إذا كان يجب عليه أن يقوي جيوشه بقوات حليفه، وبناءً على هذه التعليمات عندما بلغ الرسل وجهتهم وقدموا الهدايا، أخذت كل فئة منهم تستشير الوحي الذي ذهبت إليه بقولها: «لما كان كرويسوس ملك ليديا وغيرها من الممالك الأخرى يعتقد أن هذا هو الوحي الصادق الوحيد في العالم كله، فقد أرسل لك هذه الهدايا التي تستحقها اكتشافاتك الصادقة، ويطلب منك الآن أن تخبره عما إذا كان يصح له أن يُحارب الفرس. فإن كان هذا من صالحه فهل ينبغي أن يقوي جيوشه بقوات دولة حليفة؟» فاتفق الوحيان في مضمون ردهما الذي ينص على أنه إذا هاجم كرويسوس دولة الفرس خرَّب إمبراطورية قوية، وأوصياه بأن ينتقي أقوى الولايات الإغريقية ويتحالف معها.

عندما وصل الردان إلى كرويسوس ابتهج غاية الابتهاج؛ إذ تأكد عندئذٍ من أن بوسعه أن يُحطم الإمبراطورية الفارسية.

بعد أن قدم كرويسوس تلك الهدايا إلى الدلفيين بعث يستشير الوحي للمرة الثالثة؛ إذ لما تأكد من صدق نبوءاته رغب في أن يستغله باستمرار، فكان السؤال الذي طلب الإجابة عنه هو: هل سيدوم عهد مملكته طويلًا؟ فجاء رد الكاهنة كما يلي:

انتظر إلى الوقت الذي يتبوأ فيه بغل عرش ميديا، ثم اخرج أيها الليدي الرقيق إلى حصن هيرموس أسرِع .. أسرع بالسير ولا تخجل، أو تسلك مسلك الجبناء.

سُرَّ الملك بهذا الرد دون غيره؛ إذ لا يبدو من المعقول إطلاقًا أن يأتي بغل ويصير ملكًا على الميديين، فاستنتج من هذا أن المُلك لن يُفارقه أو يُفارق نسله من بعده.

في تلك الأثناء فسر كرويسوس قول الوحي تفسيرًا خاطئًا، فقاد جيوشه إلى كبادوكيا متوقعًا أن يهزم كورس ويُحطم إمبراطورية الفرس، وبينما هو مشغول في الاستعداد لهجومه، تقدَّم منه رجل ليدي يُدعى ساندانيس، وكان الشعب ينظر إليه دائمًا على أنه من الحكماء، وبعد ذلك لمع اسمه حقًّا بين مواطنيه، فنصح الملك بقوله:

«أيها الملك، إنك على وشك محاربة قوم يرتدون سراويل من الجلد، وكذلك جميع ملابسهم الأخرى من الجلد أيضًا. إنهم قوم لا يأكلون ما يشتهون، وإنما يتغذون بما يمكنهم الحصول عليه من أرضٍ جدباء قاسية. قوم غير مولعين بشرب الخمر، بل يشربون الماء. قوم ليس لديهم تين ولا أية فاكهة أخرى يأكلونها، فإذا فُرض وهزمتهم، فماذا يمكنك الحصول عليه منهم وقد رأيت أنهم لا يملكون شيئًا على الإطلاق؟ أما إذا هزموك فانظر إلى جميع الطيبات التي ستخسرها. فإن ذاقوا مرة واحدة ما لدينا من خيرات، فلن يتركونا قط، ولن نستطيع إطلاقًا أن نتحرر من قبضتهم، أما عن نفسي فإنني أشكر الآلهة على أنها لم تلفت أنظار الفرس إلى غزو ليديا.»

كان ساندانيس كمن يضرب في حديد بارد؛ إذ لم تثنِ نصيحته كرويسوس عن عزمه، مع أن الفرس كانوا حقًّا لا يملكون، قبل غزو ليديا أي شيء من ترف الحياة ومباهجها.

عندما بلغ كرويسوس نهر هاليس، نقل قواته إلى شاطئه الآخر عبر الجسور القائمة هناك إلى هذا اليوم، تبعًا لما أعرفه. ولكن تبعًا للاعتقاد الشائع بين الأغارقة، نقلها بمساعدة ثاليس الميليسي، فيَروُون أن كرويسوس كان في حيرةٍ، كيف يستطيع نقل قواته إلى الشاطئ الآخر؟ إذ لم تكن تلك الجسور قد أُقيمت بعدُ في ذلك الوقت، وأن ثاليس الذي تصادف وجوده في المعسكر وقتذاك قسم مجرى النهر قسمين، وجعله يجري على كل من جانبي الجيش بدلًا من جريانه على يسار الجيش فقط، فعل هذا بالكيفية الآتية: حفر قناة عميقة على مسافة ما من المعسكر، وجعلها منحنية في شكل نصف دائرة لكي تمر خلف المعسكر، وبهذا العمل غير النهر مسيره إلى هذه القناة الجديدة حيث ترك مجراه الأصلي ودار حول الجيش ثم عاد ثانيةً إلى مجراه القديم، وبهذا شطر النهر إلى مجريين يمكن عبور كل منهما في سهولة ويسر. ويقول البعض إنه حوَّل الماء تمامًا من المجرى الأصلي إلى القناة، بَيْد أنني أُخالف هذا الرأي؛ إذ لا يُمكنني أن أتصور كيف أمكنهم عبوره عند عودتهم.

بعد أن عبر كرويسوس نهر هاليس مع القوات التي تحت إمرته دخل منطقة كبادوكيا التي تُسمى بتيريا، وتقع بجوار مدينة سبنوبي التي تقع بدورها على نهر

إيوكسيني، وهي أقوى نقطة في جميع تلك المنطقة، فأقام كرويسوس معسكره فيها وأخذ يُخرِّب حقول السوريين، ثم حاصر أهم مدينة في بتيريا واستولى عليها، وأخذ أهلها عبيدًا، كما جعل نفسه سيدًا على القرى المحيطة بها. وهكذا جرَّ الخراب على السوريين الذين لم يجنوا ذنبًا في حقه. في تلك الأثناء جمع كوروس جيشًا وسار به لمواجهة كرويسوس، وكان يزيد من أعداده في كل خطوة يتقدمها بقوات جديدة من الأمم التي يمر بها في طريقه. وقبل أن يبدأ بالمسير بعث رسلًا إلى الأيونيين يدعوهم إلى الثورة ضد ذلك الملك الليدي، غير أنهم رفضوا دعوته، ومع هذا سار كوروس لمواجهة العدو، وعسكر أمامه في منطقة بتيريا؛ حيث اختبرت قوة كل من الجيشين المتحاربين. كان القتال حارًّا مريرًا، فوصل عدد القتلى من كل فريق إلى رقم بالغ، وكانت الحرب سجالًا بينهما، فلما خيم الظلام على ميدان القتال لم يكن أيهما قد أحرز انتصارًا ما، وهكذا حارب كل من الفريقين بشجاعة وبسالة.

عزا كرويسوس عدم نجاحه في الحرب إلى قلة عدد قواته عن قوات عدوه، ولما لم يكرر كوروس هجومه في اليوم التالي رجع كرويسوس أدراجه إلى سارديس معتزمًا أن يجمع حلفاءه ويعاود الكرَّة في الربيع. فما إن بلغها حتى أوفد الرسل إلى شتى حلفائه يطلب منهم أن ينضموا إليه في سارديس، في خلال خمسة شهور من رحيل رسله، ثم سرح جيشه المكون من الجنود المرتزقة الذي اشتبك في القتال مع الفرس، ثم سار معه إلى العاصمة، وأمر الجنود بالعودة إلى بيوتهم، ولم يتصور قط أن كوروس سيتجرأ بعد معركة تساوت فيها القوتان على السير لمهاجمة سارديس.

بينما كان كرويسوس لا يزال على ذلك الرأي، اجتاحت الأفاعي جميع الضواحي المحيطة بساردیس، فلما رأتها الخيول تركت مراعيها وهرعت إلى الضواحي لتأكل تلك الأفاعي، وعندما أبصر الملك هذا المنظر الغريب، اعتبره علامة من لدن الآلهة، فأرسل في الحال مبعوثين إلى عرافي تلميسوس ليستشيرهم في معنى ذلك الأمر، فوصل الرسل إلى تلك المدينة وحصلوا على تفسير لهذا الموضوع من العرافين، بَيْد أن القدَر لم يمكنهم من العودة إلى سيدهم؛ إذ أُسِر كرويسوس قبل أن يعودوا إلى ساردیس .. قرر العرافون التلميسيون أنه يجب على كرويسوس أن يتوقع دخول جيش من الغزاة الأجانب في مملكته، وأنهم سيستعبدون شعبه عند مجيئهم؛ لأن الأفعى هي طفل الأرض أي ساكن البلد، والحصان محارب أجنبي. وكان كرويسوس قد وقع في الأسر عندما أفضى العرافون بتفسيرهم، ولم يكونوا يعرفون ما حدث في ساردیس، ولا مصير ملكها.

عندما انصرف كرويسوس فجأة بجيشه بعد موقعة بتيريا معتزمًا تسريح الجنود ظنًّا منه أنه قد تخلى عن القتال وانتهى الأمر عند هذا الحدِّ، بَيْد أن كوروس أخذ يفكر قليلًا، فرأى من الحكمة أن يهاجم سارديس بغاية السرعة قبل أن يتمكن الليديون من جمع فلول جيشهم مرة أخرى. فما إن قرر ذلك، حتى أسرع، دون أن يُضيِّع وقتًا في تنفيذ خطته، فسار حثيثًا حتى كان هو أول من أعلن مجيئه إلى الملك الليدي، فارتبك الملك ووقع في حيرة من تطور الأحداث بتلك السرعة، هذه الأحداث التي لم يعمل لها حسابًا، والتي جاءت على عكس ما كان يتوقع، ومع ذلك قاد الليديين إلى القتال، ولم يكن في آسيا كلها، في ذلك الوقت شعب أشجع ولا أقدر على القتال من شعب ليديا. كانوا يقاتلون وهم على صهوات جيادهم، ويحملون مزاريق طويلة القنا، وكانوا بارعين في قيادة تلك الجياد.

التقى الجيشان في السهل الواقع أمام سارديس، وكان سهلًا منبسطًا فسيحًا خاليًا من الأشجار، يرويه نهر هولوس وبعض الروافد الأخرى التي تصب في مجرى متسع يسمى هيرموس.

لما أبصر كوروس الليديين يُنظمون صفوفهم للقتال، خشي قوة الفرسان، فعَمد إلى حيلة أشار بها عليه أحد الميديين المدعو هارباجوس فجمع كافة الجمال التي كانت تحمل المؤن والأمتعة لجيشه، ورفع عنها أحمالها، وجعل جنوده يركبونها بنفس الطريقة التي يركب بها الفرسان الخيول، ثم أمر بأن يتقدم هؤلاء أمام الجيش لمقاتلة الفرسان الليديين، على أن يتبعهم المشاة، ويكون فرسانه في المؤخرة، وبعد أن نظم جيشه على هذه الصورة، أمر قواته بأن يقتلوا كل من يقع في طريقهم من الليديين دون شفقة ولا رحمة ماعدا كرويسوس الذي يجب أن يقبضوا عليه حيًّا ولا يقتلوه أبدًا حتى ولو أبدى مقاومة.

والسبب في مواجهة الفرسان بالجمال، هو أن الحصان يخاف الجمل بطبيعته لا يستطيع احتمال رؤيته أو شم رائحته، وبهذه الطريقة كان يأمل في أن يجعل الفرسان عديمة النفع لكرويسوس الذي كان يضع جُل أمله في النصر على أولئك الفرسان. فما إن التحم الجيشان في القتال، وأبصرت الخيول الليدية الجِمال وشمَّت رائحتها، حتى جفلت وهربت مذعورة. وبهذه الحيلة ذهبت جميع آمال كرويسوس أدراج الرياح. ومع ذلك، فقد حارب الليديون ببسالة. فعندما أدركوا ما حدث قفزوا من فوق ظهور جيادهم، وواجهوا الفرس راجلين. وقد استغرقت المعركة وقتًا طويلًا، غير أن الليديين لم يستطيعوا الصمود أمام الفرس فنكصوا على أعقابهم، وأطلقوا العنان لأقدامهم يسابقون الريح، فطاردهم الفرس حتى أسوارهم، وحاصروا ساردیس.

هكذا بدأ الحصار. وفي تلك الأثناء، رأى كرويسوس أن المدينة لن تصمد طويلًا أمام الحصار، فبعث رسلًا آخرين إلى حلفائه. كانت التعليمات التي تلقاها الرسل الأوائل أن يأمروا الحلفاء بالاجتماع في سارديس في الشهر الخامس، أما الذين أرسلهم الآن فكان عليهم أن يُخبروهم بأنه محاصَر فعلًا، وأن يهبُّوا لنجدته بأقصى ما يمكنهم من السرعة، ومن بين جميع الحلفاء لم ينسَ كرويسوس أن يرسل في طلب النجدة من لاكيدايمون.

حدث في ذلك الوقت أن كان الإسبرطيون أنفسهم مشغولين في نزاع مع الأرجوسيين حول موضع يُقال له ثوريا، فقد جمع الأرجوسيون قواتٍ ليمنعوا الإسبرطيين من احتلال ثوريا، فاتفق الطرفان على أن يختار كل منهم ثلاثمائة جندي من رجاله، ويتقاتل هؤلاء، فمن تكون له الغلبة يُصبح ذلك الموضع ملكًا له، كما اتفقَا أيضًا على أن تعود بقية القوات الأخرى إلى بلادها ولا تبقى لمشاهدة القتال؛ إذ الخطر في بقائها هناك؛ لأن الجيش الذي يرى فريقه مهزومًا سيضطر إلى مساعدته. وبعد الاتفاق على هذه الشروط، انصرف الجيشان تاركين ثلاثمائة جندي مُختارين من كل فريق ليتقاتلوا من أجل تلك البقعة. فبدأت المعركة، وظل الجانبان متعادلين في القوة، حتى إنه عندما أقبل المساء وتعذر القتال بسبب الظلام، لم يبقَ حيًّا من كل أولئك الستمائة غير ثلاثة رجال؛ اثنين من الأرجوسيين، هما الكانور وكروميوس، وإسبرطي واحد هو أوثرياداس، فاعتبر الأرجوسيان أنهما منتصران، وعلى ذلك أسرعا بالعودة إلى أرجوس، أما أوثرباداس الإسبرطي فبقي في الميدان، وجرَّد جثث قتلى الأرجوسيين من أسلحتهم، وحملها إلى المعسكر الإسبرطي. وفي اليوم التالي عاد الجيشان لمعرفة نتيجة المعركة، فتنازعَا في أول الأمر؛ إذ ادَّعى كل منهما أنه المنتصر، وكانت حجة أحدهما أن عدد الأحياء من فريقه يزيد على عدد الأحياء من الفريق الآخر، أما حجة الثاني فلأن الرجل الباقي من فريقه ظل في الميدان وجرَّد قتلى أعدائه من أسلحتهم، بينما هرب الرجلان الباقيان من الفريق المُعادي، وأخيرًا تطور النزاع من الكلام إلى الضربات، ونشأت معركة بين الجانبين كانت خسائرهما فيها فادحة، وفي النهاية انتصر اللاكيدايمونيون، عند ذلك قصَّ الأرجوسيون شعر رءوسهم، وكان من عادتهم أن يحتفظوا بشعورهم طويلة، واتخذوا قانونًا لهم أيدوه بلعنة ألا يطيلوا شعورهم، وألا تلبس نساؤهم الذهب إلا إذا استردوا ثوريا. وفي الوقت ذاته آلى اللاكيدايمونيون على أنفسهم عكس هذا العهد تمامًا، أن يُطيلوا شعورهم التي اعتادوا أن يقصوها، ويُقال إن أوثرياداس الشخص الذي بقي حيًّا من الثلاثمائة، أحس بالعار بعد أن رأى ما أصاب مواطنيه من قتل وخسارة، فلم يستطع العودة إلى إسبرطة، وقتل نفسه في ثوريا.

ولو أن الإسبرطيين كانوا مشغولين بهذه الأحداث، إلا أنهم عندما حضر إليهم رسول سارديس يرجوهم في أن يهبُّوا لمساعدة الملك المحاصَر، بدءوا من فورهم في العمل على تقديم المعونة، وعندما أتموا استعداداتهم، وكانت السفن على أهبة الرحيل، جاءهم رسول آخر وأخبرهم بأن المدينة قد سقطت في يد العدو، وأن كرويسوس وقع في الأسر، فحزن الإسبرطيون كثيرًا على سوء حظ ذلك الملك، وأوقفوا إرسال النجدة.

أما الطريقة التي سقطت بها سارديس في يد الأعداء فهي كما يأتي: في اليوم الرابع عشر من بدء الحصار، أمر كوروس بعض الفرسان أن يمروا بين صفوفه ويعلنوا على الجيش كله أن الملك سيمنح جائزة لأول جندي يتسلق الحائط، ثم أمر بالهجوم على الأسوار، ولكن دون جدوى، فانسحبت قواته إلى مواقعها، بَيْد أن رجلًا ماردِيًّا يُسمَّى هورديادِيس صمم في قرارة نفسه على أن يجرب تسلُّق الحصن في مكان ليس به أحد من الحراس إطلاقًا. كانت هناك صخرة شاهقة شديدة الانحدار في موضع ما من سور الحصن، وكان الحصن (كما يبدو) منيعًا يستحيل تسلقه في ذلك الموضع بحيث لم يخشَ الليديون اقتحامه إطلاقًا. كان ذلك المكان هو الموضع الوحيد الذي لم يطُف به ملكهم ميليس meles مع الأسد الذي أحضرته له معشوقته، فعندما قرر العرافون التلميسيون أنه إذا طاف الأسد حول وسائل الدفاع امتنعت سارديس على العدو، ولهذا سار ميليس بالأسد حول جميع سور الحصن ما عدا ذلك الموضع الذي بدا الحصن فيه منيع الاقتحام. احتقر ميليس فكرة الطواف بالأسد عند ذلك الجانب الذي كان ينظر إليه كمجرد هوة سحيقة في غاية الأمان. كان ذلك الموضع في جانب المدينة المواجه لجبل تمولوس ومع ذلك فقد رأى هورديادِيس جنديًّا ليديًّا في اليوم السابق يهبط من تلك الصخرة بعد أن تدحرجت خوذته من فوق قمتها، ورآه يلتقطها ويصعد بها ثانية. عند ذلك بدأ يفكر فيما شاهده، ووضع في نفسه خطة، فقام وتسلَّق الصخرة بنفسه، وحذا حذوه الرجال الفارسيون الآخرون، حتى صار فوق قمتها عدد كبير، وهكذا سقطت ساردِيس ونُهِب جميع ما فيها.

أما كرويسوس نفسه، فهذا ما أصابه من جراء سقوط عاصمته. كان له ابنٌ سَبَق أن تحدثنا عنه، وكان شابًّا قويًّا، إلا أن عيبه الوحيد هو أنه كان أصم وأبكم، وقد عمل كرويسوس، في أيام عزِّه، كل ما في وسعه من أجل هذا الابن، ومن بين ما عمله أنه أرسل يستشير وحي دلفي بشأنه، وهاك الرد الذي جاءه من الكاهنة:

أيها الملك الليدي الواسع السلطان، يا كرويسوس الساذج المدهوش لا ينبغي قط أن تسمع في قصرك صوت مَن تتوسل مِن أجله أن ينطق بأصوات حكيمة، فمن الأفضل أن يظل ابنك صامتًا! يا ويلتاه! ويح اليوم الذي تسمع فيه أذنك صوته لأول مرة.

عندما سقطت المدينة، كان أحد الفرس على وشك أن يقتل كرويسوس غير عارف شخصيته، ورأى كرويسوس الرجل منقضًّا عليه، وتحت ضغط مصيبته لم يهتم بأن يتحاشى الضربة؛ إذ لم يكترث لأن تكون هي الضربة القاضية، بَيْد أن ابنه الأبكم عندما أبصر الفارسي مندفعًا نحو والده ارتعد خوفًا، ومن هول ذعره انطلق لسانه فقال: «ابتعد أيها الرجل ولا تقتل كرويسوس»، فكانت هذه أول مرة نطق فيها بكلمة في حياته كلها، وبعد ذلك استعاد قوة الكلام بقية عمره.

هكذا سقطت سارديس في يد الفرس، ووقع كرويسوس نفسُه في قبضتهم بعد أن حكم أربعة عشر عامًا، وحُوصِر في حاضرة مُلكه أربعة عشر يومًا. وبهذا تحققت نبوءة الوحي الذي قال: إنه سيخرب إمبراطورية قوية، فقد خرب إمبراطوريته هو نفسه وليس إمبراطورية الفرس. بعد ذلك قام جنود الفرس الذين أسروا كرويسوس بنقله إلى ملكهم كوروس، فأمر هذا الأخير بعمل كومة حريق ضخمة، ووُضع كرويسوس فوقها مقيدًا بالسلاسل ومعه أربعة عشر من أبناء ليديا. ولست أدري ما إذا كان كوروس قد اعتزم تقديم القرابين لإله ما من باكورة ثمار انتصاره، أو إذا كان قد نذر نذرًا وشرع يوفيه عند ذاك، أو ما إذا كان قد سمع أن كرويسوس رجل مقدس، ورغب في أن يرى ما إذا كان أحد الشخصيات السماوية سيظهر لإنقاذه من الحرق حيًّا. وبينما كان كوروس مشغولًا في عمله، وكان كرويسوس فوق الكومة، مرت بذهن هذا الأخير وهو في أشد حالات محنته أن هناك تحذيرًا مقدسًا في الألفاظ التي سمعها من فم سولون: «ما من أحد يكون سعيدًا وهو حي»، فعندما تذكر هذه العبارة تنفس نفسًا عميقًا، وخرج عن صمته الطويل، وصاح بأعلى صوته مرددًا اسم سولون ثلاث مرات، فطرقت سمع كوروس تلك الأصوات، وأمر المترجمين بأن يستفهموا من كرويسوس عمن كان يُناديه، فاقتربوا منه وسألوه، ولكنه لزم الصمت، وظل مدة طويلة لا يُجيب على أسئلتهم، حتى اضطُر أخيرًا إلى أن يقول شيئًا، فصاح قائلًا: «إنه رجل أدفع أعز ما عندي لأراه يتحدث إلى كل ملك»، ولما لم يفهم المترجمون المعنى الذي يقصده بهذا الرد، رجوه في أن يُفسر لهم كلامه، ولما ألحوا عليه في طلب الرد وبَدَا عليهم القلق، أخبرهم كرويسوس كيف جاء سولون الأثيني منذ مدة طويلة، ورأى كل عظمته فاستخف بها، وكيف أن كل ما قاله قد تحقق الآن. وبرغم أن ذلك كان شيئًا خاصًّا به وحده إلا أنه ينطبق على الجنس البشري عامة، ولا سيما على مَن يعتبرون أنفسهم سعداء. وبينما كان يتكلم أُضرمت النار في الكومة، وبدأ جزءها الخارجي يشتعل. بعد ذلك سمع كوروس من المترجمين ما قاله كرويسوس

فلانت عريكته، وتحركت في نفسه عاطفة الشفقة، وفكر في أنه هو نفسه إنسان، وأن كرويسوس إنسان مثله، وكان من قبل متمتعًا بنعيم الحظ مثله أيضًا ذلك الذي سيُحرق حيًّا. وإذ خاف تبكيت الضمير، وتسلطت على ذهنه فكرة أن كل ما هو بشر فليس بآمن، وعلى ذلك أمر رجاله بإطفاء النيران المتأججة بكل ما في مُكنَتهم من سرعة، وأن ينزلوا كرويسوس ومن معه من الليديين من فوق الكومة، بَيْد أن أحدًا لم يستطع التغلب على اللهب المستمر.

بعد ذلك، كما يقول الليديون عندما رأى كرويسوس الجهد الذي بذله الجنود في إخماد النيران، عرف أن كوروس قد ثاب إلى رشده وعاودته الشفقة، ولما رأى كذلك أن لا فائدة من جهودهم، وأن أولئك الرجال لن يستطيعوا السيطرة على النيران، صاح بأعلى صوته يُنادي الإله أبولو Apollo وصلَّى إليه إن كان قد تسلم على يديه أية هدايا مقبولة أن يأتي ويُخلصه من ذلك الخطر المُحدِق به، ولما كان يتوسل إلى ذلك الإله والدموع تنهمر غزيرة من عينيه، وعلى الرغم من أن السماء كانت صافية الأديم وقتذاك، وليس في الجو أي نفحة من الريح، فقد تجمعت السحب الدكناء وهبت العاصفة فوق رءوسهم، ونزل المطر وابلًا حتى أُطفئت النيران بسرعة، وإذ اقتنع كوروس بتلك الظاهرة تأكد أن كرويسوس لا بد أن يكون رجلًا طيبًا ومحبوبًا لدى السماء، فسأله بعد أن أنزلوه من فوق الكومة: «من الذي حرَّضك على أن تقود جيشًا وتُهاجم به مملكتي فصرت عدوي بدلًا من أن تستمر صديقًا لي؟» فأجاب كرويسوس قائلًا: «اعلم أيها الملك أن ما فعلته قد أتى عليك بالنفع وباء عليَّ بالخسران، فإن كان هناك لوم فإنما يقع على إله الإغريق الذي شجعني على أن أبدأ الحرب. لم تبلغ درجة الغباء بأحد أن يُفضِّل الحرب على السلم، تلك الحرب التي جعلت الآباء يدفنون أبناءهم بدلًا من أن يدفن الأبناء آباءهم، بَيْد أن هذه هي مشيئة الآلهة.»

هذا ما قاله كرويسوس، فأمر كوروس بفك قيوده، وأجلسه قريبًا منه، وبالغ في احترامه، ناظرًا إليه بكل تقدير وإعجاب، وكذلك فعلت الحاشية. فظل كرويسوس غارقًا في التفكير لا ينبس ببنت شفة، وبعد برهة حانت منه التفاتة فأبصر الجنود الفارسيين مُنهمكين في نهب المدينة، فقال لكوروس: «أتسمح لي أيها الملك بأن أُصارحك بما يجول في خاطري، أم السكوت أفضل؟» فأمره كوروس بأن يتكلم بما في ضميره بكل جرأة، فسأله كرويسوس: «ماذا يفعل أولئك الرجال؟ وما الذي يشغلون أنفسهم به إلى هذه الدرجة يا كوروس؟» قال «إنهم ينهبون المدينة ويأخذون أموالها ونفائسها.» قال: «ليست هذه مدينتي ولا أموالي، لم تُصبح هذه ملكًا لي بحال ما، إنها ثروتك هذه التي ينهبونها.»

أُعجب كوروس بما قاله كرويسوس، فأمر جميع حاشيته بالانسحاب بعيدًا، ثم سأله عن أنسب شيء يمكن أن يفعله إزاء هذا النهب، فأجاب كرويسوس بقوله: «بما أن الآلهة جعلتني عبدًا لك يا كوروس، يبدو لي أنه من واجبي أن أوضح لك ما أراه من صالحك. إن رعاياك الفارسيين قوم فقراء ذوو روح مزهوة، فإذا سمحت لهم بنهب المدينة وامتلاك أموالها وكنوزها فلا تتوقع منهم إلا أن يتألب عليك مَن ينال منهم الثروة أكثر من الجميع، فإن راقك حديثي هذا، فافعل ما أُشير به عليك، أيها الملك: ضع بعضًا من حرسك الخاص عند كل باب من أبواب المدينة، ومُرهم بأن يأخذوا الغنائم من الجنود وهم خارجون، وأن يُخبروهم بأنهم يجمعون الغنائم لأنه يجب تقديم العشور لجوبيتر، بهذا يُمكنك أن تتجنب العداوة التي يشعرون بها نحوك لو أخذت الغنائم منهم بالقوة، وعندما يجدون أن ما أقترحه عليك عدل وواجب فإنهم سيقدِّمون ما نهبوه عن طيب خاطر.»

أما سرور كوروس بهذه النصيحة فحدِّث عنه ولا حرج؛ إذ رآها عين الصواب، فأثنى على أصالة رأي كرويسوس أجمل الثناء وأعظمه، وأمر حرسه الخاص بأن يفعل كما اقترح، ثم استدار إلى كرويسوس وقال له: «أيا كرويسوس إنك لبالغ الحكمة حقًّا في أقوالك وفي أفعالك، وإنك لمُعتزم حقًّا أن تُبرهن على أنك أمير مخلص وفي، اطلب مني ما تشاء كهدية لك»، فقال كرويسوس «أي سيدي! أرجو أن ترسل هذه السلاسل والأصفاد إلى إله الأغارقة الذي كنت أُجِلَّه فوق سائر الآلهة، واسأله ما إذا كان يُهمه أن يخدع من يقدِّمون له الخيرات، سيكون هذا أعظم معروف يُمكنك أن تمنحني إياه.» وعندما سمع كوروس كلامه هذا سأله عن التهمة التي يوجهها إلى ذلك الرب، فقص عليه كرويسوس كل ما فعله، والردود التي جاءته من الوحي، والهدايا التي أرسلها إليه، والذبائح التي قدمها له، كما أخبره كيف شجعه الوحي على أن يشن الحرب على فارس، وروى له كل هذا، وفي النهاية طلب السماح له بزجر ذلك الإله على مسلكه، فقال كوروس ضاحكًا: «سأمنحك هذا بغير شك، وكل ما تطلبه مني في أي وقت.» فلما رأى كرويسوس إجابته إلى طلبه أرسل بعض الليديين إلى دلفي وأخبرهم بأن يضعوا أغلاله على عتبة المعبد ويسألوا الإله بقولهم: «ألا يخجل من تشجيعه كرويسوس على تخريب إمبراطورية كوروس بأن يشن الحرب على فارس، فكانت أولى ثمرات تلك الحرب هذه السلاسل؟» وبعد أن يقولوا هذا عليهم أن يُشيروا إلى السلاسل ويقولوا: «هل من عادة آلهة الإغريق أن يُنكِروا الجميل؟»

ذهب الليديون إلى دلفي، وقاموا برسالتهم، فردت عليهم الكاهنة بقولها: «من المستحيل حتى على أي إله أن يُفلِت من القضاء المحتوم، لقد عوقب كرويسوس عن

جريمة اقترفها خامس أسلافه، ذلك الذي عندما كان حارسًا خاصًّا في الأسرة الهرقليدية اشترك في مؤامرة قامت بها سيدة، فقتل سيده واغتصب عرشه بغير حق، فقرر أبولو ألا تسقط سارديس في حياة كرويسوس، بل أجلسها إلى عهد ابنه، ومع ذلك فلم يستطع مقاومة الأقدار. لقد وهب كرويسوس كل ما سمحت به الأقدار، أخبروا كرويسوس بأن أبولو أجَّل سقوط ساردیس ثلاث سنوات كاملة، وأنه صار أسيرًا بعد الموعد الذي حُدد ليقع فيه في الأسر بثلاث سنوات، وعلاوة على هذا فإن أبولو هو الذي خلصه من الاحتراق حيًّا فوق الكومة، ولا حق لكرويسوس في أن يشكو من الإجابة التي تلقاها من الوحي؛ إذ عندما أخبره الوحي بأنه إذا هاجم فارس خرَّب إمبراطورية قوية، كان يجب عليه إن كان حكيمًا أن يُرسل ثانية ويستفهم عن الإمبراطورية التي يقصدها الوحي، هل هي إمبراطورية كوروس، أو إمبراطوريته هو نفسه، وبما أنه لم يفهم ما قيل، ولم يُكلف نفسه مئونة السؤال عن تفسير ما غمض عليه، فلا حق له في أن يلوم غير نفسه عما حدث. وزيادة على هذا، فقد أساء فهم الرد الأخير الذي قيل له عن البغل؛ لأن والدي كوروس كانَا من جنسيتين مختلفتين ومن طبقتين مختلفتين أيضًا، فأُمُّه أميرة ميدية، هي ابنة الملك أستياجيس، وأبوه فارسي من عامة الشعب، تزوج من سيدته الملكة رغم جميع الاعتبارات.»

هكذا كان رد الكاهنة، فلما رجع الليديون إلى ساردیس وأفضوا إلى كرويسوس بكل ما سمعوه، اعترف بأنه المُخطئ وليس الإله … هذه هي الكيفية التي هزمت بها أيونيا لأول مرة، وبهذا انتهت إمبراطورية كرويسوس.

الفصل السادس

أسطورة كوروس

أوضحنا فيما سبق كيف وقع الليديون تحت نير الحكم الفارسي. ومن سياق التاريخ أراني مُضطرًّا إلى البحث عمن يكون كوروس هذا الذي خرَّب الإمبراطورية الليدية، وبأية وسائل صار الفرس سادة آسيا كلها. وسأتبع هنا روايات المصادر الفارسية التي يبدو أن هدفها ليس تفخيم الفتوحات الفارسية، بل ذكر الحقيقة المجردة، وعلاوة على هذا فإني أعرف ثلاثة طرق أخرى تُروى بها قصة كوروس، وكلها تختلف عن روايتي لها.

كان يعيش في فارس رجل ميدي يُدعى ديوكيس، ابن فراور تيس، وكان على قدرٍ بالغ من الحكمة، فأدرك حاجته إلى التمتع بسلطان الملك، ولكي يحصل على ما يطمح إليه كوَّن لنفسه خطة، وعمل على تنفيذها بالطريقة الآتية: لما كان الميديون يعيشون في ذلك الوقت في قرى مُتناثرة دون أن تحكمهم أية سلطة مركزية، سادت الفوضى وانتشرت السرقة والنهب والقتل في جميع أنحاء البلاد، وكان ديوكيس هذا ذا مكانة محترمة في قريته، فقرَّر أن يلتزم هو نفسه الاستقامة والجد، ويُراعي العدل في الحكم بين المتنازعين من زملائه. كان العدل والظلم في حرب دائمة، وعلى ذلك شرع يسلك مسلكًا مستقيمًا ظاهرًا. وسُرعان ما لاحظ أهل قريته أمانته ونزاهته، فانتخبوه قاضيًا يفصل في منازعاتهم. ولما كان يضع نُصب عينيه أن يصير ملكًا أبْدى مُنتهى الأمانة والعدل في أحكامه. وبذا نال منزلة سامية بين أهل قريته حتى جذب إليه أنظار أهالي القرى المُحيطة. كان الأهلون فيما مضى يعانون الأَمَرَّين من الظلم وأحكام الاستبداد لدرجة أنهم عندما سمعوا عن استقامة ديوكيس، وإحقاقه الحق بصورة مُنقطعة النظير صاروا يلجئون إليه في شتى مُنازعاتهم وقضاياهم، حتى أصبحوا لا يثقون في أحد غيره.

كان عدد الشكاوى التي تُقدم إليه في ازدياد مُطرد، كلما عَلِم الناس بعدل أحكامه. فلما شعر بأهميته بين مواطنيه، أعلن أنه لن ينظر في القضايا بعد ذلك، ولم يعد يظهر في

المكان الذي اعتاد الجلوس فيه للفصل في القضايا وإقامة العدل قائلًا: «إن مما يتعارض ومصالحه أن يقضي اليوم كله في تنظيم شئون غيره من الناس ويُهمل أمور نفسه.» ولذلك اجتمع الميديون من كافة البلاد، وعقدوا مجلسًا يتشاورون فيه في أمور دولتهم، وكان معظم الخطباء على ما أعتقد من أصدقاء ديوكيس، فكانوا يقولون: «لا يُمكننا الاستمرار في المعيشة بهذه المملكة في حالتها الراهنة، وعلى ذلك هيا بنا نُعيِّن لنا ملكًا يحكم البلاد بالعدل ويضرب على أيدي المفسدين، وبذا نستطيع نحن أنفسنا أن نلتفت إلى شئوننا الخاصة، ولا نضطر إلى ترك وطننا بسبب هذه الفوضى.» فتأثر المجلس بهذه الحجج وقرر تعيين ملك.

بعد ذلك كان على الجمع أن يتشاوروا فيمن ينتخبونه لهذا المنصب، وعندما فُتِح باب المناقشة كان كل لسان يَذكُر اسم ديوكيس، ويَفيض عليه بالثناء والمديح، حتى أجمعوا كلهم على تنصيبه ملكًا عليهم. عند ذلك وجد أنه بحاجة إلى قصر يتفق ومنزلته، وحرس خاص له، فأجاب الميديون رغبته وبنوا له قصرًا عظيمًا قوي البناء[1] في الموضع الذي اختاره بنفسه، وأعطوه الحرية في انتقاء حرسه الخاص من بين أفراد الأمة كلها. وبعد أن جلس على العرش طلب منهم بناء مدينة كبيرة واحدة، وأن يهجروا القرى الصغيرة التي كانوا يقيمون فيها من قبل، وبذا تكون العاصمة الجديدة موضع اهتمامهم، فأطاع الميديون هذه المشيئة أيضًا، وبنوا المدينة التي أطلقوا عليها اسم أجباتانا Agbatana، وكانت ضخمة الأسوار قويتها، ترتفع في دوائر؛ واحدة داخل أخرى. كان تصميم المدينة أن يرتفع كل سور عن الآخر بمقدار الأبراج المُقامة فوقه، وساعد على ذلك بعض الشيء طبيعةُ أرض التل الذي بُنيت عليه المدينة؛ إذ كان معتدل الانحدار، أما الفضل الأكبر في إتمامها على تلك الصورة فكان للفن. كانت الأسوار مكونة من سبع دوائر يتوسط آخر دائرة منها قصر الملك وبيت المال. كان السور الخارجي على غرار سور أثينا، وكانت أبراجه بيضاء اللون، وأبراج السور الثاني سوداء اللون، والثالث حمراء، والرابع زرقاء، والخامس برتقالية، وقد طُليت كل هذه الأبراج بالطلاء الملون، أما أبراج السورين الأخيرين فقد كُسيَت بالفضة والذهب على الترتيب.

[1] يقول بوليبيوس إن محيط القصر الملكي في أجباتانا كان سبعة استادات (الاستاد = ٥٨٢ قدمًا، فيكون طول محيطه أكثر من أربعة أخماس الميل أي حوالي ١٢٥٠ مترًا).

صنع ديوكيس كل هذه التحصينات من أجل نفسه، ومن أجل قصره. أما الشعب فكان عليه أن يبني بيوته خارج نطاق الأسوار. ولما انتهى من بناء المدينة بدأ ينظم قواعد التشريفات الملكية، فلم يُسمح لأحد بالاتصال بالملك مباشرة، وإنما يكون اتصال الشعب به عن طريق الرسل، وحرَّم على أفراد الرعية رؤية ملكهم، كما حرم على أي فرد مهما كانت منزلته أن يضحك أو يبصق في حضرة الملك. وضع ديوكيس هذه المراسيم التي كان أول من ابتدعها ضمانًا لسلامته؛ لأن نبلاء مملكته الذين نشئوا وتربوا معه وكانوا من أصل عريق حقًّا وليسوا أقل منه في صفات الرجولة، إذ اختلطوا به كثيرًا، تأثروا من رؤيته متفوقًا عليهم، وبذا لا يستبعد أن يدبروا المؤامرات ضده، بينما إذا امتنعت عليهم رؤيته ظنوه من طينة غير طينتهم.

بعد أن أتم ديوكيس هذه الترتيبات، ووطَّد مركزه على العرش استمر يفصل في القضايا بنفس العدل الذي كان يحكم به من قبل، كانت القضايا تُرسَل إليه كتابةً، فيفصل فيها ويصدر حكمه، ثمَّ تبلغ الأحكام إلى أطراف النزاع. وعلاوة على هذا، كان له جواسيس وعيون في جميع أنحاء مملكته، يبلغونه عن كل ما يرونه من أعمال الظلم والخروج على القانون، وعندئذٍ ينال الآثم العقاب الذي يتفق وما ارتكبه من إثم.

وهكذا جمع ديوكيس الميديين في أمة واحدة، وحكمهم بمفرده.

تُوفِّي ديوكيس بعد أن حكم ثلاثة وخمسين عامًا، فتولى الحكم بعده ابنه فراورتيس. لم يقنع هذا الأمير بممتلكاته التي لم تتجاوز الأمة الميدية فحسب، فبدأ في توسيع ملكه بمهاجمة الفرس. سار إليهم على رأس جيش فأخضعهم تحت نير الحكم الميدي قبل أية دولة أخرى، فأصبح بعد نجاحه في تلك الحرب ملكًا على أمتين بالِغَتَي القوة، ثم شرع في فتح آسيا متغلِّبًا عليها منطقة بعد أخرى. وأخيرًا اشتبك في حرب مع الآشوريين الذين كانت تتبعهم نينوى، والذين كانوا من قبل سادة آسيا، في ذلك الوقت تمرد عليهم حلفاؤهم وتخلوا عن مساعدتهم، فوقفوا وحدهم في القتال. ومع ذلك، كانت أحوالهم الداخلية مزدهرة كما كانت من قبل. ولما هاجمهم فراورتيس هلك في حملته عليهم هو ومعظم جيشه، وبذا مات بعد أن حكم الميديين اثنتين وعشرين سنة.

بعد موت فراورتيس خلَفه على العرش ابنه كياكساريس، ويُروَى عنه أنه كان مُحبًّا للقتال أكثر من أي ملك آخر من أسلافه، وأنه أول من نظم الجيوش في آسيا، وقسم الجنود إلى كتائب، وجعل الرمَّاحين قسمًا منفصلًا عن النبَّالين وعن الفرسان بعد أن كانوا مختلطين معًا قبل ذلك. كان ذلك الملك هو الذي حارب الليديين عندما تحول النهار فجأة

إلى ليل، وأخضع لحُكمه جميع دول آسيا إلى ما بعد نهر هاليس. جمع ذلك الملك كل الأمم الخاضعة لحكمه وسار بهم لمحاربة نينوى معتزمًا الأخذ بثأر أبيه، ومؤمِّلًا أن ينتصر في غزو هذه المدينة، فالتحم الجيشان في معركة هُزم فيها الآشوريون، وبدأ كياكساريس بحصار المدينة فإذا بجيش عرمرم من السكوثيين يهجم عليهم بقيادة الملك ماديس، وكاد يُطارد الكيميريين من أوروبا، وهكذا دخل السكوثيون الأراضي الميدية.

بعد أن غزا السكوثيون ميديا وجدوا معارضة قوية من الميديين الذين اشتبكوا معهم في حرب شعواء، ولكنهم هُزموا في النهاية وفقدوا إمبراطوريتهم، وبذا أصبح السكوثيون سادة آسيا.

لم يقنع السكوثيون بذلك النصر، فتقدموا في سيرهم قاصدين غزو مصر، بَيْد أنهم عندما وصلوا إلى فلسطين قابلهم بساميتيخوس ملك مصر بالهدايا والتضرُّعات، وبذا نجح في وقف تقدمهم إلى بلاده. وعند عودتهم مروا بمدينة أسكالون في سوريا[٢] فسار الجزء الأكبر منهم في طريقه دون إحداث أي ضرر، أما القلة التي كانت في المؤخرة فنهبت معبد فينوس السماوية،[٣] وقد استفسرت عن هذا الأمر فعلمت أن معبد أسكالون هو أقدم المعابد المُكرسة لتلك الربَّة؛ إذ بُني معبدها في قبرص باعتراف القبرصيين أنفسهم محاكاة لمعبدها في أسكالون. أما معبدها الموجود في كوثيرا فبناه الفينيقيون التابعون لذلك الجزء من سوريا، وقد عاقبت هذه الربة السكوثيين الذين نهبوا معبدها بأن سلطت عليهم المرض الأنثوي (ربما يقصد هيرودوت بهذا المرض الولع الشديد بالنساء) الذي لا يزال عالقًا بذريتهم. ويعترف أولئك السكوثيون بأنهم أُصيبوا بهذا المرض بسبب نهبهم ذلك المعبد. ويستطيع السائحون الذين يزورون سكوسيا أن يعرفوا أي نوع من الأمراض هذا الذي سلطته عليهم تلك الربة، ويُطلق على من يُصابون به اسم Enarees.

ظل السكوثيون يحكمون آسيا مدة ثمانٍ وعشرين سنة، أظهروا فيها منتهى الوقاحة والغطرسة والاستبداد حتى عمَّ الخراب كل مكان؛ ففضلًا عن الجزية المعتادة فرضوا

---

[٢] كانت أسكالون من أقدم مدن فلسطين (القضاة ١: ٨، ١٤، ١٩ وغيرها) جاء ذكر أسكالون لأول مرة في المخطوطات المسمارية في عصر سيناكيريب الذي فتحها في حملته الشهيرة التي قام بها في السنة الثالثة من حكمه.

[٣] ربما يقصد هيرودوت الربة السورية أثيرجاتيس أوديركيتو التي كانوا يعبدونها في أسكالون وفي سائر المدن السورية، وتصور في هيئة حورية بحرية نصفها العلوي لامرأة والسُّفلي لسمكة. ويمكن تشبيهها بأستراتي ومن ثَم بفينوس الإغريقية.

كثيرًا من الضرائب الإضافية على عدة أمم، وكانوا يحددونها حسبما يتراءى لهم، وعاثوا فسادًا في طول البلاد وعرضها، ونهبوا من جميع الأفراد كل ما أمكنهم نهبه، وأخيرًا وقد بلغ السيل الزُّبَى، دعا كياكساريس والميديون أكبر عدد منهم إلى وليمة قدموا لهم فيها كميات وافرة من الخمر حتى سكروا، عندئذٍ أعملوا فيهم التقتيل حتى أبادوهم عن بكرة أبيهم. وبعد ذلك استعاد الميديون إمبراطوريتهم بكامل حدودها السابقة، فأخذوا نينوى — وسأروي كيفية أخذهم إياها في باب آخر — وفتحوا جميع آشور ما خلا منطقة بابل، بعد ذلك مات كياكساريس وقد حكم الميديون أربعين سنة بما فيها المدة التي حكم فيها السكوثيون.

ورث أستياجيس بن كياكساريس العرش بعد أبيه، وكان له ابنة تُدعى ماندانى. وذات ليلة رأى فيها ما يراه النائم حلمًا عجيبًا بخصوصها، رأى أن تيارًا عظيمًا من الماء تدفق منها، ولم يملأ عاصمته فحسب، بل وغمر جميع آسيا، فعرض رؤياه على الكهنة Magi الذين لهم موهبة في تفسير الأحلام، فأخبروه بمعناه كاملًا، فلما سمع تأويلهم ذُعِر ذعرًا بالغًا، وعلى هذا عندما كبرت ابنته وبلغت سن النضج لم يزوجها لأحد من الميديين ذوي المستوى المناسب لئلا يتحقق الحلم، وإنما زوجها لرجل فارسي من أسرة طيبة حقًّا، وكان هادئ الطباع، يعتبره الملك أقل منزلة من أي رجل ميدي متوسط الحال.

هكذا تزوج قمبيز (وهو اسم الرجل الفارسي) ماندانى، وفي السنة الأولى لزواجها رأى أستياجيس حلمًا آخر. رأى كرمة نبتت من رحم ابنته وظللت جميع آسيا، وبعد أن عرضه أيضًا على مفسري الأحلام أرسل في استدعاء ماندانى التي كانت وقتذاك حُبلى في شهورها الأخيرة، وعندما حضرت إليه أقام عليها الحراسة مُعتزِمًا قتل الطفل الذي تلده؛ لأن الكهنة أخبروه بأن مولود ابنته سيحكم آسيا بدلًا منه، ولكي يتحاشى أستياجيس حدوث هذا، ما إن ولدت ابنته طفلها كوروس حتى أرسل يستدعي هارباجوس، وكان رجلًا من أفراد بيته، كما كان أخلص ميدي للملك الذي اعتاد على أن يعهد إليه بجميع شئونه، فقال له: «إني آمرك يا هارباجوس ألا تُهمل في العمل الذي سأعهد به إليك، لا تَخُن مصالح مليكك من أجل خاطر الآخرين؛ لئلا تجلب الخراب على رأسك في أي وقت تظهر فيه خيانتك. خذ الطفل الذي ولدته ابنتي ماندانى معك إلى بيتك حيث تقتله، ثم ادفنه»، فأجاب الآخر قائلًا: «لم يحدث أن عصى هارباجوس لك أمرًا في وقت يا سيدي، كن على يقين من أنه سيظل كذلك في المستقبل جميعه، ولن يأتيَ أمرًا أبدًا يُمكن أن تستاء منه، فطالما كانت مشيئتك أن يتم هذا الأمر فمن واجبي أن أُنفذ أمرك بكل إخلاص.»

عندما سَمِعَ الملك إجابة هارباجوس هذه سلمه الطفل ملفوفًا في ثياب الموت، فأسرع الأخير إلى منزله يبكي، فلما بلغه وجد زوجته فقص عليها الخبر، فقالت: «وماذا تنوي في دخيلة نفسك أن تفعل الآن؟» قال: «لن أُنفذ رغبة أستياجيس، فلن يكون في أي وقت أشد جنونًا ولا تهورًا منه الآن، ولكني لست ذلك الرجل الذي يوافقه على هذا أو يُساعده على القتل بهذه الصورة، هناك عدة أسباب تمنعني من قتل الطفل؛ فأولًا: ينتمي إليَّ هذا الطفل من ناحيتَي القرابة والصداقة، وثانيًا: إن أستياجيس رجل عجوز لا ولد له، فإذا مات ورثت ابنته التاج — ابنته التي يريد أن يستخدمني في قتل ابنها هذا — فماذا يبقى لي إذن غير الخطر، وأشد الأخطار هولًا؟ حقًّا يجب أن يموت الطفل حفظًا لسلامتي، ولكنَّ شخصًا ما من أتباع أستياجيس هو الذي سيقتله ولست أنا أو أحد من أتباعي.»

ما إن قال هذا حتى بعث رسولًا يطلب حضور رجل يُقال له ميتراداتيس وهو أحد الرعاة التابعين لأستياجيس؛ إذ كان هارباجوس يعرف أن مراعيه أنسب مكان يتم فيه هذا الغرض؛ لأنها تقع وسط الجبال وتؤمُّها الوحوش الكاسرة، وقد تزوج هذا الرجل إحدى إماء الملك واسمها الميدي سباكو؛ ومعناه بالإغريقية كونو ومعنى اللفظ الميدي «خنزيرة» وتقع الجبال التي ترعى الماشية على جوانبها، شمالي أجباتانا جهة إيوكسين، وهذه الأخيرة منطقة ميدية على حدود ساسبيريا عبارة عن مرتفع كثير الجبال ومكسو بالغابات، بينما سائر الأراضي الميدية الأخرى سهول منبسطة.

أسرع ذلك الراعي بتلبية نداء هارباجوس، فلما وصل إليه قال له الأخير: «يأمرك أستياجيس بأن تأخذ هذا الطفل وتضعه في أكثر مناطق الجبال خطرًا؛ حيث تفتك به الوحوش بسرعة، كما أمرني أن أُخبرك بأنك إذا لم تقتل هذا الطفل، وسمحت له بالهروب بطريقةٍ ما فسيقتلك أشنع قتلة، وقد عينني أنا نفسي لأتأكد من موت الطفل.»

بعد أن سمع الراعي هذا الكلام أخذ الطفل على ذراعيه، وعاد به من الطريق التي جاء منها حتى بلغ الموضع الذي ترعى فيه قطعانه، ولحسن الحظ كانت زوجته حبلى في آخر شهورها فجاءها المخاض في غياب زوجها، ووضعت طفلًا ذكرًا، وكان كل من الراعي وزوجته في قلق على الآخر. أما هو؛ فبسبب أن زوجته كانت في آخر أيام الحمل ويتوقع أن تلد طفلها الأول في أية لحظة، وأما هي؛ فلأن هارباجوس لم يسبق أن أرسل في طلب زوجها قبل ذلك، فلما وصل إلى بيته ورأته زوجته يعود إليها على غير انتظار، كانت أول من بدأ بالكلام، ورجته في أن يُخبرها لماذا أرسل هارباجوس في طلبه بهذه السرعة، فقال لها: «زوجتي عندما ذهبت إلى المدينة رأيت وسمعت أشياء — أقسم بالسماء —

أنني لم أرَ مثلها يحدث لسادتي من قبل، كل فرد في بيت هارباجوس كان يبكي، ففزعت غاية الفزع، ولكني برغم هذا دخلت البيت، وماذا رأيت بمجرد دخولي غير طفل فوق الأرض يصرخ ويتلوى، وقد غُطي كله بالذهب، ولُف بملابس جميلة الألوان، وما إن رآني هارباجوس حتى أمرني بأن أحمل الطفل بين ذراعي وأنصرف به، وماذا تظنين أن أفعل به؟ أن أتركه في الجبال حيث تكثر الوحوش المفترسة، وأخبرني بأن الملك نفسه هو الذي أمر بهذا، وهددني بالوعيد المُخيف إن لم أُطِع أمره. وهكذا حملت الطفل على ذراعي وجئت به، وكنت أعتقد أنه ابن إحدى إماء الملك، وقد أدهشتني حقًّا رؤية الذهب وملابس الطفل الجميلة، ولم أستطع تعليل مثل ذلك البكاء في منزل هارباجوس، ولكن سُرعان ما عرفت الحقيقة كلها، فقد أرسلوا معي خادمًا يدلني على الطريق إلى خارج المدينة، ويُسلمني الطفل، فأخبرني ذلك الخادم أن أم الطفل هي ماندانى ابنة الملك، وأن أباه قمبيز بن كوروس، وأن الملك هو الذي أمر بقتله، وانظري ها هو الطفل.»

عند ذلك كشف الراعي الغطاء عن الطفل لتراه زوجته، فما إن رأت جماله وحُسن شكله حتى انخرطت في البكاء وتعلَّقت بركبتي زوجها متوسلة ألا يتصرف في هذا الطفل بحال ما، فأجابها بأنه لا يستطيع أن يفعل غير ما أُمر به؛ إذ من المؤكد أن هارباجوس سيرسل من يتأكد من تنفيذ الأمر، وإن خالف فلا ينتظر غير أشنع ميتة، فلما وجدت الزوجة أنها أخفقت في أولى محاولاتها، قالت ثانية: «إذن، فبما أنه لا فائدة من أي توسل أو رجاء ولا بد من رؤية طفل مقتول فوق الجبال فلا أقلَّ من أن تفعل ما سأشير به عليك، خذ الطفل الذي ولدته ميتًا منذ لحظات، وضعه على الجبل، وبذا نربي نحن مولود ابنة أستياجيس، ولا تُتهَم أنت بعدم الإخلاص للملك، ولا نكون قد أسأنا التصرف في صالح أنفسنا، سيحظى ابننا الميت بجنازة ملكية، ولا يُقتل هذا الطفل الحي.»

وجد الراعي أن هذه المشورة هي خير رأي يُمكن العمل به في مثل هذه الظروف، وعلى ذلك عمل بها في الحال، فأعطى زوجته الطفل الذي كان عليه أن يقتله، وأخذ طفله الميت ووضعه في المهد الذي حمل فيه الآخر بعد أن ألبسه جميع الملابس الملكية الفاخرة، ثم انصرف به فتركه في أشد مواضع الجبال وحشية، وبعد ثلاثة أيام ترك أحد مساعديه لحراسة الجثة، وانطلق إلى المدينة فذهب مباشرة إلى بيت هارباجوس وأعلن استعداده لإطلاعهم على جثة الطفل، فأرسل هارباجوس رجلًا من حرسه الخاص كان يثق به أكثر من غيره ليرى الجثة بنفسه، ولما اقتنع برؤيتها أمر بإقامة الجنازة، وهكذا دُفن

ابن الراعي، أما الطفل الآخر الذي عُرِف بعد ذلك باسم كوروس فأخذته زوجة الراعي ونشَّأته باسم آخر.

لما بلغ الصبي العاشرة من عمره حدث أمر سأرويه الآن كان سببًا في اكتشاف حقيقة شخصيته، «كان يلعب ذات يوم في القرية حيث تُرعَى قطعان الماشية مع بعض غلمان من نفس سنه، فاختار الصبيان ابن الراعي كما كانوا يسمونه؛ ليكون ملكهم، فأخذ يُصدِر أوامره إليهم؛ بعضهم يبني له البيوت، وآخرون يعملون حرسًا له، ويكون أحدهم جاسوسًا للملك، وآخر يقوم بتوصيل الرسائل، وهكذا كان لكل غلام من أصدقائه عمل في مملكته، وكان بينهم ابن أرتيمباريس أحد أعيان الميديين المُبرَّزين، فرفض ذلك الولد أن يقوم بما خصصه له كوروس من عمل، فما كان من كوروس إلا أن أمر بالقبض عليه، ولما نُفِّذ أمره أخذ السوط فضربه به ضربًا مُبرِّحًا، وما إن أخلى سبيلَ ابن أرتيمباريس حتى أسرع إلى المدينة وهو في أشد حالات الغضب مما أصابه على يدي ابن الراعي من ضرب لا يليق بمنزلته، وشكا إلى والده — والدموع تنهمر غزيرة من مآقيه — ما لقيه من كوروس، وطبعًا لم يقل إن اسمه كوروس؛ إذ لم يكن قد سُمِّي بهذا الاسم بعد، بل قال إنه ابن راعي أبقار الملك، فانطلق أرتيمباريس والشرر يتطاير من عينيه ودخل على أستياجيس، ومعه ولده فشكا إليه ما حل بابنه، وأشار إلى كتف الصبي وقال: «هكذا أيها الملك أهان كرامتنا أحد عبيدك ... ابن راعٍ».»

عندما رأى الملك آثار الضرب، وسمع هذه الألفاظ، أراد أن يقتص لابن أرتيمباريس إكرامًا لخاطر والده، فأرسل يستدعي الراعي وابنه، فلما مثُلا بين يديه، أحدق أستياجيس في عيني كوروس، وقال له: «كيف أتتك الجرأة وأنت ابن رجل حقير كهذا، أن تفعل ما فعلت بابن هذا النبيل الذي هو من أعظم أفراد حاشيتي؟!» فأجاب الصبي قائلًا: «مولاي لم أفعل به غير ما يستحق، لقد انتخبني صبيان القرية ملكًا عليهم في اللعب؛ لأنهم اعتقدوا أنني خير من يصلح لهذا المنصب، وكان هذا الغلام نفسُه واحدًا ممن انتخبوني، وقد فعل سائر الصبيان الآخرين ما أمرتهم بعمله إلا هذا الصبي الذي رفض أمري واستخف به، حتى نال جزاءه الوفاق، فإن كنتُ أستحق العقاب على هذا العمل فها أنا ذا على استعداد لتُنزله بي.»

بينما كان الصبي يتكلم شك أستياجيس في شخصيته، خُيل إليه أنه يرى في وجه الغلام ملامحَ تشبه ملامحه هو نفسه، كما أن هناك نُبلًا في إجابته، وعلاوة على ذلك فإن سنه تنطبق وسن حفيده الذي أمر بقتله، وإذ دُهش أستياجيس من كل هذا

ظل صامتًا لا يستطيع الكلام فترة من الوقت، ثم استعاد قدرته بصعوبة، ورغب في التخلص من أرتيمباريس كي يستطيع استجواب الراعي على انفراد، فقال للأول: «أعدك يا أرتيمباريس بأن أُسوي هذه المسألة بحيث لا تكون لك أو لابنك أي شكوى بعد ذلك»، فخرج أرتيمباريس من حضرته، ثم أشار الملك إلى الخدم فأخذوا كوروس إلى جناح داخلي، ولما بقيَ الملك والراعي وحدهما سأله من أين حصل على ذلك الصبي، ومَن الذي أعطاه إياه، فأجاب الراعي بأن الصبي ابنه، أنجبه هو بنفسه، وأن الأم التي ولدته لا تزال على قيد الحياة، وتعيش معه في بيته، فلاحظ أستياجيس أن الرجل وقع فريسة مشورة سيئة فأوقع نفسه في مثل هذا المأزق، فأصدر الملك أمره إلى الحراس بالقبض عليه، وبينما كانوا يجرونه إلى السجن بدأ القصة من أولها، وقص على الملك القصة من بدايتها كما حصلت فعلًا دون أن يُخفِيَ شيئًا، وفي النهاية توسل إلى الملك مُتَضرعًا أن يمنحه العفو.

لما عرف أستياجيس الحقيقة من الراعي لم يهتم بعقابه بعد ذلك، ولكن غضبه كله انحصر في هارباجوس، فأمر الحراس باستدعائه إلى حضرته، فلما جاء سأله الملك: «بأية ميتة يا هارباجوس قتلتَ طفل ابنتي الذي سلمته إليك؟» فلما أبصر هارباجوس راعي البقر في الحجرة لم يعمد إلى الكذب؛ لئلا يظهر افتراؤه وخيانته، فأجاب بقوله: «مولاي عندما وضعت الطفل بين يدي أخذتُ أفكر من فوري في الطريقة التي أُنفذ بها رغبتك، فرأيت ألا أحمِل في رقبتي جرم تلويث يدي بالدم الذي كان في الحقيقة دم ابنتك، ودمك أنت نفسك، وأكون في الوقت ذاته مخلصًا لشخصك، وهاك الطريقة التي عمدت إليها: استدعيت هذا الراعي وأعطيته الطفل، وأخبرته بأن يقتله بأمر الملك، ولستُ كاذبًا في هذا لأنك أمرت به، وفضلًا عن هذا، فلما أعطيته الطفل أمرته بأن يتركه في مكان موحش بالجبال، ويراقبه عن كثب حتى يموت، وهددته بأقسى أنواع العقاب إن أهمل، وبعد أن نفذ كل ما أمرته به ومات الطفل أرسلت أحد خصياني الذي أثق به أكثر من غيره فرأى الجثة نيابة عني، وبعد ذلك دفنت الطفل، هذه يا مولاي هي الحقيقة الخالصة، وهذه هي الميتة التي مات بها ذلك الطفل.»

هكذا روى هارباجوس القصة كلها بطريقة بسيطة صادقة، وعند ذلك لم يُظهِر أستياجيس أية أمارة تنمُّ عن غضبه الشديد، بل أخذ يُكرِّر على مسامعه ما عرفه من الراعي، ثم أردف قائلًا: «وهكذا بقي الطفل حيًّا، وهذا خير ما عمل؛ إذ سبَّب لي قتل الطفل حزنًا شديدًا، وحزَّت في قلبي تعنيفات ابنتي حقًّا، لقد لعب الحظ دورًا خدمنا به في هذه المسألة، انصرف إلى بيتك الآن وأرسل ابنك ليكون بصحبة هذا الضيف العزيز.

وإني لأعتزم تقديم الذبائح إلى الآلهة الذين يستحقونها شكرًا على سلامة الطفل، ويسرني أن أدعوك الليلة إلى الوليمة.»

عندما سمع هارباجوس قول الملك تنفس الصعداء، ورجع إلى بيته مبتهجًا إذ وجد أن عدم طاعته أمر الملك كان من حسن حظه، وأنه بدلًا من العقاب مدعوٌّ إلى مأدبة تقديم الشكر للآلهة بمناسبة هذا الحادث السعيد، فما إن وصل إلى بيته حتى نادى ابنه، وكان شابًّا في حوالي الثالثة عشرة من العمر، وحيد والديه، وأمره بأن يتوجه إلى قصر أستياجيس ويقوم بكل ما يطلبه منه. وفي غمرة سروره ذهب إلى زوجته وأخبرها بكل ما حدث. في تلك الأثناء أخذ أستياجيس الغلام ابن هارباجوس، وذبحه ثم قطعه قطعًا، شوى بعضها على النار، وسلق بعضًا آخر منها، ولما انتهى من إعدادها جميعًا حفظها لوقت الحاجة إليها.

ولما أقبلت ساعة الوليمة، جلس المدعوون جميعًا إلى المائدة، وقُدِّمت إليهم صنوف اللحم، أما هارباجوس فجلس وحده إلى مائدة خاصة، لم يقدم له سوى لحم ابنه ليس غير، وُضِع أمامه جميع اللحم ما عدا اليدين والقدمين والرأس، التي حُفِظت في سلة ووُضِع فوقها غطاء، ولما أكل هارباجوس كفايته من اللحم، استدعاه إليه أستياجيس ليعرف منه كيف التَذَّ بالوليمة، فأجاب أنه تمتع بوليمة فاخرة، وعندئذٍ أحضر المختصون السلة ووضَعوها أمام هارباجوس وطلبوا منه أن يكشف غطاءها، ويختار لنفسه ما يُحِبُّ منها، فرفع الغطاء عن السلة فرأى بداخلها بقايا جثة ابنه، ومع ذلك فلم يُفقِده منظرها رشده أو يُخرِجه عن صوابه، ولما سأله الملك عما إذا كان يَعرِف أي حيوان هذا الذي أكل من لحمه، أجاب بأنه يعرفه حق المعرفة، وأن كل ما يفعله الملك جميل مقبول. وبعد أن رد عليه هكذا حمل معه بقايا الجثة وبعض قطع اللحم المطهية التي لم يأكلها، وعاد إلى بيته ودفن تلك البقايا.

ذلك كان عقاب أستياجيس لهارباجوس. بعد ذلك شَرَع الملك يُفكر فيما يعمله بحفيده كوروس، فأرسل إلى الكهنة الذين سبق أن فسروا له حلمه، وسألهم عمَّا يهم خاطره، وكيف فسروه له، فأجابوه إجابة لا تختلف قط عما سبق أن قالوه: «يجب أن يكون هذا الولد ملكًا إذا كبر ولم يمت صغيرًا.» فقال لهم أستياجيس: «ولكن الصبي أفلت من الموت، ولا يزالُ حيًّا، لقد رُبِّي في الريف، وأقامه أطفال القرية الذين يلعب معهم ملكًا عليهم، كان له حرسه الخاص، وحُجابه، ومراسلوه، وجميع الموظفين الآخرين اللازمين لخدمة الملك، فأخبروني إذن ما معنى هذا الأمر؟ وماذا ينطوي عليه؟» فأجاب

الكهنة: «إذا كان الغلام قد عاش وحكم ملكًا دون تدبير أحد فإننا نُبشِّركَ بالفرح، لا تخف منه بعد ذلك فلن يحكم ثانيةً، فقد سَبق أن رأينا تكهنات كثيرة تتم بطريقة غريبة، وأحلامًا أكثر منها تحققت بصورة عجيبة.» فلما سَمِعَ أستياجيس ردهم قال: «هذا ما فكرت فيه أنا نفسي، وأميل إلى تصديقه، لقد صار الغلام ملكًا، وبذا تم تحقيق الحلم، وليس هناك ما يدعو إلى الخوف منه بعد ذلك، ومع هذا فأرجو أن تهتموا بذلك الأمر غاية الاهتمام ثم انصحوني بخير النصائح اللازمة لسلام بيتي ومصالحكم أنتم أنفسكم.» فأجاب الكهنة قائلين: «حقًّا أيها الملك إنه لمن صالحنا جدًّا أن تظل مملكتك ثابتة على أساس راسخ؛ إذ لو ذهبت إلى هذا الصبي لوقعت في أيد أجنبية؛ لأنه فارسي، وعندئذٍ نفقد حريتنا نحن معشر الميديين، ويحتقرنا الفرس ويعتبروننا أغرابًا، ولكن طالما تبقى يا مواطننا فوق العرش فإننا نحظى بكل ما يحفظ شرفنا، ومع ذلك فلسنا محرومين من نصيب في حكومتك، إذن فهناك كثير من الأسباب تدعونا إلى التنبؤ بعناية من أجلك ومن أجل مملكتك، وإن وجدنا أي داعٍ للخوف في الوقت الحاضر فكن على يقين من أننا لن نُخفيه عنك، بَيْد أننا اقتنعنا حقًّا بأن الحلم قد تحقق بهذه الطريقة البريئة، وبذا زالت جميع مخاوفنا واطمأنت نفوسنا، ونطلب منك أن تترك مخاوفك أنت أيضًا، أما بخصوص الولد نفسه فإننا ننصحك بإرساله إلى أبويه في فارس.»

سُر أستياجيس عندما سَمِعَ تأويل الكهنة، وأرسل يستدعي كوروس ليَمثُل بين يديه، فلما جاء قال له: «أي طفلي، دعاني حلم إلى أن أُلحِق بك الأذى، غير أن ذلك الحلم انتهى إلى لا شيء، وقد أنقذَك من هذا الأذى حظُّك الحسن، ارحل الآن مُطمئنًّا إلى فارس، وسأُرسِل معك من يُرافِقك في رحلتك وستحظى في نهاية تلك الرحلة برؤية أبيك وأمك الحقيقيين، وهما يختلفان تمام الاختلاف عن ميتراداتيس راعي الأبقار وزوجته.»

صرف أستياجيس حفيده بهذه الكلمات. وعندما وصل الغلام إلى بيت قمبيز، شاهد والدَيه اللذين عندما عَرَفا شخصيته عانقاه بحرارة بعد أن كانَا يعتقدان أنه قُتِل بعد ولادته مباشرة، وعلى هذا سألاه كيف نجا من الموت، فأخبرهما بأنه لم يكن يَعرِف من أمره شيئًا إلى ما قبل ذلك بفترة وجيزة، وكان مُخطِئًا كل الخطأ في حقيقة نسبه، ولم يعرفه إلا في أثناء الطريق وهو آتٍ من ميديا، كان يعتقد أنه ابن راعي أبقار الملك، غير أن رسول الملك الذي رافقه في الرحلة قَصَّ عليه كل شيء، ثم تحدَّث عن زوجة الراعي التي ربته، وأفاض في الثناء عليها، فكان يُكرر دائمًا في حديثه عن نفسه اسم كونو، كانت

كونو كل شيء، فلما سَمِع أبواه الاسم من فمه أذاعَا بين الفرس أنه عندما تُرِكَ كوروس بين الجبال أرضعته خنزيرة. هذا هو منشأ تلك الإشاعة.

عندما بَلَغَ كوروس مبلَغَ الرجال واشتهر بأنه أشجع وأبرز شخصية بين مواطنيه بدأ هارباجوس الذي صمم في دخيلة نفسه على الانتقام من أستياجيس يتودَّد إليه، ويُبدي إخلاصه له بالهدايا وبالرسائل؛ إذ كانت منزلته متواضعة لا يأمل بواسطتها في الانتقام بغير مساعدة أجنبية، فلما وجد أن كوروس الذي لحقه من الضرر ما يُماثِل ضرره قد كبر بهذه الصورة رأى فيه مَن ينتقم له، فأخذ يعمل على تأييده ومساعدته في ذلك الأمر، ومهَّد الطريق فعلًا لتنفيذ خطته بأن أَوعَز إلى كثير من عظماء النُّبلاء الميديين الذين استاءوا من فظاظة مَلِكهم وحكمه الاستبدادي أن خير ما يُمكِنهم عمله هو أن يقيموا كوروس ملكًا عليهم، ويخلعوا أستياجيس. فلما تمَّت هذه الاستعدادات، وصار هارباجوس مستعدًّا للثورة تلهف إلى إبلاغ نواياه إلى كوروس الذي كان لا يزال مُقيمًا بفارس، بيد أن الحراسة كانت شديدة على الطريق بين فارس وميديا؛ ولذا كان عليه أن يتدبر وسيلة لتوصيل كلمة إلى كوروس سرًّا، فلجأ إلى الوسيلة الآتية: أخذ أرنبًا وشق بطنها دون أن يُتلِف فراءها، ثم وضع بداخل البطن خِطابًا بكل ما يُريد أن يقول له، وبعد ذلك خاط البطن بعناية، وأعطى الأرنب إلى عبد من أخلص عبيده، فتَنَكَّر العبد في زي صياد يَحمِل شباك الصيد، وذهب إلى فارس يحمل ذلك الصيد هدية إلى كوروس، وأمره بأن يُخبِر كوروس شفويًّا أن يفتح بطن الأرنب بنفسه دون أن يكون معه أحد في ذلك الوقت.

تم كل شيء كما أراد هارباجوس، عندما شق كوروس بطن الأرنب وجد بداخله الخطاب، فقرأ فيه: «يا ابن قمبيز لا شك أن الآلهة ترعاك، وإلا لَمَا اجتزت كل هذه المغامرات العديدة العجيبة. هذا هو الوقت الذي تأخذ فيه بثأرك من أستياجيس قاتلك. تذكَّر أنه كان يريد موتك، وأنك لتدين بحياتك الآن لي وللآلهة، ولا أظنك جاهلًا ما فعله بك، ولا ما أصابني على يديه بسبب أني سلمتُك لراعي الأبقار ولم أقتلك. أصغِ إليَّ الآن وأطِع مشورتي، تُصبِح إمبراطورية أستياجيس كلها ملكًا لك، ادفع راية العصيان في فارس، ثم سِر مباشرة إلى ميديا، فسواء اختارني أستياجيس لقيادة قواته ضدك، أو اختار غيري من أمراء ميديا، فكل شيء سيتم حسبما ترغب، سيكونون أول من يتخلى عنه وينضمون إلى جانبك، وسيحاولون جهدهم تأليب قواته ضده، تأكد أن كل شيء من جانبنا على أتم استعداد، وما عليك إلا أن تقوم بدورك وتقوم به على وجه السرعة.»

ما إن علم كوروس بمضمون الخطاب حتى شرع يُفكر في الكيفية التي يحثُّ بها الفرس على الثورة، وبعد تفكير طويل عزم على الفكرة الآتية: كتب ما رآه لازمًا على قرطاس، ثم طلب عقد اجتماع للفرس، فلما اجتمعوا أفضى إليهم بمحتويات القرطاس، وقرأ فيه أن أستياجيس قد عيَّنه قائدًا عليهم، ثم قال: «والآن، بما أن الأمور صارت على هذا النحو فإني آمر كل فرد منكم أن يُحضِر منجله ويعود.» وبعد ذلك صرف الاجتماع.

أطاع الفرس أمر كوروس، وعادوا إليه بمناجلهم، فقادهم إلى بقعة من الأرض مربعة الشكل طول ضلعها ثمانية عشر أو عشرون فورلنجًا، مليئة بالشوك، وأمرهم بتطهيرها من الأشواك قبل أن ينصرم النهار. ولما أنجزوا ما أمرهم به أصدر إليهم أمرًا ثانيًا أن يستحم كل واحد منهم في صباح اليوم التالي ويأتي إليه، وفي أثناء ذلك جمع كل قطعان والده من الأغنام والماعز، كل ثيرانه وذبحها جميعًا، واستعد لتقديم وليمة للجيش الفارسي برمته، كما أعد لهم خمرًا وخُبزًا من أجود الأنواع. وعند مطلع الغد جاء الفرس، فأمرهم بالجلوس على الحشائش والتمتع بالوليمة، وبعد أن انتهوا من الطعام والشراب، طلب منهم أن يخبروه: «أيهما ألذ لهم، عمل اليوم أم عمل الأمس؟» فأجابوا على الفور «إن التناقض لعظيم حقًّا؛ فلم يأتِ لهم عمل الأمس إلا بكل قبيح شاق، أما عمل اليوم فجاءهم بكل ما هو حسن لذيذ.» فما إن سمع كوروس منهم هذا حتى تمسك بأقوالهم وأفضى إليهم بما يهدف إليه قائلًا: «هكذا يا رجال فارس ستصير الأمور معكم، إن اخترتم طاعة أمري استمتعتم بهذه الخيرات وبعشرات الآلاف مثلها، ولم تعرفوا للمشقات بعد ذلك طعمًا، أما إذا رفضتم العمل بمشورتي فاستعدوا من الآن لأعمال مُتعِبة كثيرة، شبيهة بعمل الأمس، وعلى ذلك أطيعوني الآن وكونوا أحرارًا، أما عن نفسي فإني أشعر بأن العناية الإلهية قد اختارتني لتحريركم، وأما أنتم فلا أعتقد أنكم أقل من الميديين في أي شيء، ولا سيما في الشجاعة، جاهروا بعصيانكم لأستياجيس دون أن تتأخروا في ذلك لحظة واحدة.»

كان الفرس يئنون تحت نير الحكم الميدي، فلما وجدوا من يقودهم الآن سرهم أن يدفعوا عنهم ذلك النير .. في أثناء ذلك عَلِمَ أستياجيس بأفعال كوروس، فأوفد إليه رسولًا يطلب مثوله بين يديه، فأجاب كوروس: «قل لأستياجيس إنني سأحضر إليه بأسرع مما يُحِب.» وعندما تسلم أستياجيس الرد قام في الحال وسلح جميع رعاياه، وكأنما قد جردته الآلهة من كل إدراك فعيَّن هارباجوس قائدًا لجيشه ناسيًا أنه سبق أن جرحه جرحًا لا يلتئم، وعندما التقى الجيشان واشتبكا قاتلت فئة قليلة من الميديين لم يكونوا على علم

بالسر، وانضم آخرون علنًا إلى جموع الفرس، أما الجزء الأكبر الباقي فألَمَّ به الذعر والخوف فأطلق العنان لقدميه.

لما عَلِم أستياجيس بفرار جيشه المُخزي، وتشتيت شمله، أخذ يكيل التهديد والوعيد ضد كوروس قائلًا: «لن يجد كوروس داعيًا لفرحه بعد ذلك»، فقبض في الحال على الكهنة الذين أشاروا عليه بالسماح لكوروس بالهرب وقتلهم، ثم سلح جميع الميديين الباقين في المدينة، صغارًا وكبارًا، وهاجم بهم الفرس في معركة هُزِم فيها هزيمة ساحقة؛ إذ أُبِيد جيشه ووقع هو نفسه في أيدي العدو.

عندئذٍ اقترب منه هارباجوس وأخذ يُعلِن له شماتته، ويتهكم عليه، ويُذكِّره بأعمال الظلم التي كان يأتيها، ومنها ذلك العشاء الذي قَدَّمَ له فيه لحم ابنه، وسأله كيف يتمتع وقتئذٍ بالعبودية بعد أن كان ملِكًا؟ فسأله أستياجيس بدوره: لماذا ينسب إلى نفسه أعمال كوروس؟ فأجاب هارباجوس يقول: «لأن خطابي هو الذي جعله يتألب ضدك، وهكذا يكون لي شرف هذا التدبير.» فاتهمه أستياجيس بأنه إذن أغبى وأظلم رجل، أغبى؛ لأنه كان في مقدوره أن يلبس التاج على رأسه إن كانت هذه المؤامرة كلها من تدبيره بدلًا من أن يضعه على رأس رجل آخر، وأظلم؛ لأنه بسبب وليمة جلب العبودية على الميديين، فلو فُرِض أنه اضطر إلى تحويل السلطان إلى شخص آخر لكان الأولى أن يكون هذا الشخص ميديًّا وليس فارسيًّا، وعلاوة على ذلك، فقد استُعبِد كل الميديين الذين لم يشتركوا في المقاومة بدلًا من أن يصيروا سادة، كما استُعبِد جميع الذين غدوا رعايا حتى ذلك الوقت.

وهكذا فقد أستياجيس تاجه بعد أن حكم خمسة وثلاثين عامًا، وأوقع الميديين تحت حكم الفرس نتيجةً لقسوته، فقد ظلت إمبراطوريتهم في آسيا إلى ما بعد نهر هاليس مدة مائة وثمانٍ وعشرين سنة، باستثناء الفترة التي حكمهم فيها السكوثيون. بعد ذلك ندم الميديون على خضوعهم للأجنبي، فثاروا ضد داريوس ولكنه هزمهم في المعركة التي دارت رحاها وأخضعهم، وعلى ذلك حدث في عهد أستياجيس أن ثار الفرس على الميديين بزعامة كوروس، وصاروا نتيجة لهذا حكام آسيا. أما أستياجيس فقد أبقاه كوروس في بلاطه بقية حياته، ولم يُصِبه بأي أذى بعد ذلك.

هذه هي ظروف مولد وتنشئة كوروس، وتلك هي الخطوات التي أوصلته إلى العرش. وفي تاريخ متأخر هاجمه كرويسوس، بَيْد أنه هُزِم كما سَبق أن أوضحنا في باب مُتقدم، وكانت هزيمته لكرويسوس سببًا في جعله سيدًا على آسيا كلها.

الفصل السابع

الفُرس

كان الفُرس يتبعون عادات وتقاليد، أعرف منها ما يلي: لم يكن لديهم أية صور أو تماثيل للآلهة، ولا معابد ولا مذابح؛ إذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الحماقة، وأظن هذا راجع إلى عدم اعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من نفس طبيعة البشر كما يتصور الإغريق، ومع ذلك كان من عادتهم أن يصعدوا إلى قمم أعلى الجبال، ويُقدِّموا الذبائح لجوبيتر، وهو الاسم الذي يُطلقونه على المجموعة الكونية كلها. كما كان من عادتهم أيضًا أن يُقدموا الذبائح للشمس، وللقمر، وللأرض، وللنار، وللماء، وللرياح. هذه فقط هي الآلهة التي توارثوا عبادتها عن أسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة.

أما أعظم يوم يحتفلون به من بين أيام السنة كلها فهو يوم عيد ميلادهم، فكان من عادتهم أن يُقيموا وليمة في ذلك اليوم، تُقدَّم فيها أطعمة أفخر من أطعمتهم العادية، فكان ذوو اليسار يشوُون ثورًا، وحصانًا، وجملًا، وحمارًا كاملة[١] ويُقدمونها في ذلك اليوم على هذه الصورة. أما الطبقات الأفقر فيُقدمون أنواعًا من الحيوانات أصغر من تلك. وكان من عادتهم أيضًا أن يأكلوا قليلًا من الأطعمة الجافة، وكثيرًا من الحلويات والفاكهة، يقدِّمونها على المائدة على عدة دفعات، بضعة أطباق في كل دفعة، ولهذا كانوا يقولون «عندما يأكل الأغارقة يتركون المائدة وهم جياع؛ إذ لا يقدِّمون زيادة على اللحوم سوى القليل. أما إذا وجدوا أمامهم مزيدًا من الأطعمة فإنهم لا يكفون عن الأكل.» والفرس

[١] من العادات المتبعة في الدول الشرقية اليوم أن يشوُوا الخروف كاملًا، حتى على الموائد العادية. وتُتَّبع هذه العادة في الأعياد في دلماشيا وبعض دول أوروبية أخرى.

مولعون بالخمر، يعبون منها كميات كبيرة[٢] ويُحرمون القيء وإطاعة مطالب الطبيعة (كالتجشؤ والعطاس وما إليها) في حضور الغير. هذه عادتهم في تلك الأمور.

كذلك من عادتهم أن يتناقشوا في الأمور الهامة وهم سُكارَى، وعندما يفيقون في الصباح يوضع أمامهم القرار الذي اتخذوه ليلًا بوساطة صاحب الدار التي اتُّخذ فيها، فإن وافقوا عليه عملوا به وإلا تركوه، ومع ذلك فأحيانًا تحدث المناقشة الأولى وهم في حالة اتزانهم، ولكنهم في تلك الحالة لا بد أن يتخذوا القرار وهم تحت تأثير الخمر.[٣]

إذا قابل الفارسي فارسيًّا آخر أمكنك أن تعرف ما إذا كان الشخصان المتقابلان من درجة واحدة بالعلامات الآتية: إذا قَبَّل كل منهما الآخر من شفتيه بدلًا من التحية بالكلام، أما إذا كان أحدهما أقل درجة من الآخر فإن القُبلة تكون على الخد، وإذا كان البون شاسعًا بين الدرجتين استلقى الأقل درجة على الأرض،[٤] وأعظم تقديرهم للأمم الأجنبية هو لأقرب جيرانهم، أما الأمم التي تعيش بعد أولئك الجيران، في الموقع، فيكون تقديرهم لها في المرتبة الثانية، وهكذا مع بقية الأمم، كلما بَعُد مكان الأمة عنهم قَلَّ تقديرهم لها؛ والسبب في ذلك أنهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم متفوقون على بقية البشر في كل شيء، ويقترب الآخرون منهم في الميزات بنسبة قربهم من بلادهم، أما الأمم النائية الموقع عنهم فأكثر البشر انغماسًا في الرذيلة والانحطاط.

لا تُبارَى أمة الفرس في محاكاتهم للتقاليد الأجنبية؛[٥] فقد اقتبسوا زي ملابسهم عن الميديين؛ إذ وجدوه أرقى من زيهم، ويلبسون في الحرب درع الصدر المصرية، وما إن يسمعوا عن صنف من صنوف الترف حتى يُحاكوه، وعلى هذا فمن العادات الجديدة

[٢] من عادة الفرس المترفين اليوم أن يجلسوا إلى المائدة قبل العشاء بعدة ساعات يشربون الخمر ويأكلون الفواكه المجففة كالجوز والبندق واللوز والفستق واللب وغيرها، والحقيقة أن الآكلين يجلسون إلى المائدة في الساعة السابعة، ولا يُقدَّم لهم العشاء إلا في الساعة الحادية عشرة.

[٣] يؤكد تاكيتوس أنه كان من عادة الجرمانيين أن يتناقشوا في مواضيع السلم والحرب وهم تحت تأثير الخمر، ويحتفظون بقرارهم إلى الصباح.

[٤] لا يزال الفرس مشهورين باتباع الرسميات وآداب المعاشرة.

[٥] يبدو من الباب الخامس أن زي الفرس الوطني القديم كان سترة ضيقة وسروالًا من الجلد، أما الزي الميدي فكان، تبعًا لكسينوفون، يخفي تقاطيع الجسم ويُعطيه مظهر العظمة والأناقة ويبدو أنه كان جلبابًا فضفاضًا.

عليهم أنهم تعلموا الانغماس في الأمور الجنسية من الإغريق، فاقتنى كلٌّ منهم عددًا من الزوجات، وعددًا أكبر من المحظيات.

أما الرجولة الكاملة فأُولَى خواصها البسالة في استخدام الأسلحة، ويليها في المرتبة أن يكون الرجل كثير الأبناء. وفي كل عام يُقدم الملك هدايا ثمينة لمن يُبرهن على أنه أب لأكبر عدد من الأبناء؛ إذ يعتبرون كثرة العدد قوة. ويُعلَّم الأبناءُ بعناية — منذ عامهم الخامس حتى يبلغوا العشرين من العمر — ثلاثةَ أمور ليس غير هي: ركوب الخيل، واستخدام القوس، وقول الصدق.[٦] ولا يُسمح للأبناء — قبل الخامسة من العمر — بأن يراهم أبوهم، بل يقضون حياتهم إذ ذاك وسط السيدات؛ وذلك حتى إذا مات الطفل صغيرًا لم يحزن أبوه على موته.

في اعتقادي أن هذه قاعدة تنطوي على كثير من الحكمة، وكذلك القاعدة الآتية: لا يحكم الملك على أي فرد بالموت من أجل هفوة واحدة، ولا يُعاقب الرجل الفارسي عبده عقابًا شديدًا على هفوة واحدة، بل تُقارن حسناته وسيئاته في كل حالة، فإن رجحت كفة السيئات على كفة الحسنات عوقب العبد.

يتمسك الفرس بأنه لم يحدث قط أن قتل أحد أباه أو أمه، ولكنهم على يقين من أنه إذا حدث ذلك، وحُققت المسألة من أساسها، ظهر أن الولد إما أن يكون مجنونًا أو ابن زنا؛ إذ يقولون إنه لا يُمكِن أن يهلك الأب الحقيقي بيدَي ولده.

كذلك يُحرمون الكلام في الأشياء التي لا يحل فعلها، ويليها في مرتبة الرذيلة أن يكون المرء مديونًا، فمن الأسباب الأخرى أن يُضطر المدين إلى الكذب. وإذا أُصيب رجل فارسي بالجُذام فلا يُسمح له بدخول أية مدينة أو بالتعامل مع أي فارسي آخر، لا بد أن يكون ذلك الشخص حسب قولهم قد أذنب في حق الشمس. أما الأجانب المصابون بهذا المرض فيُجبَرون على مغادرة المملكة كلها، وحتى المُصابون بالبرص يُطرَدون كذلك للذنب نفسه، ولا يلوِّثون قط نهرًا بإفرازات أجسامِهم، ولا حتى يغسلون أيديهم في نهر، ولا يسمحون للغير بفعل ذلك؛ لأنهم يُبجلون الأنهار تبجيلًا عظيمًا. وهناك شيء غريب آخر لم يُلاحظه الفرس أنفسهم ولكنه لم يفُتني؛ تنتهي جميع أسمائهم الدالة على بعض

[٦] ناقش لارشر تقدير الفرس للصدق من قوة خطبة داريوس في الكتاب الثالث (الباب ٢٤). ومع ذلك فلا يوجد في التاريخ ذكر لهذه الخُطبة إطلاقًا. ويتضح تقدير الفرس الخاص لقول الصدق وضوحًا بَيِّنًا مع مخطوطات داريوس التي تذكر أن الكذب عنوان الشر.

الميزات الجسدية أو العقلية بنفس الحرف؛ الحرف الذي يُسميه الدوريون «سان» San، ويُسميه الأيونيون سيما Sigma (حرف س في اللغة العربية). ومن يرغب في التحقق من هذا يجد أن جميع الأسماء الفارسية بغير استثناء تنتهي بهذا الحرف.

هذا هو ما أستطيع ذكره عن الفرس، وأنا على يقين منه تبعًا لمعلوماتي الواقعية. وهناك عادة أخرى يتكلمون عنها بتحفظ ولا يذكرونها جهرًا، وتختص بموتاهم. يقولون: إن جثة الفارسي الذَّكر لا تُدفن إطلاقًا إلا بعد أن يُمزِّقها كلب أو طائر جارح. ولا شك في أن هذه العادة معروفة لدى الماجي (الكهنة الميديون)؛ إذ يُمارسونها علنًا دونما إخفاء، وبعد ذلك تُطلى أجسام الموتى بالشمع ثم تُدفن في الأرض.

والماجي فئة غريبة الأطوار، يختلفون تمام الاختلاف عن الكهنة المصريين، والحقيقة أنهم يختلفون عن سائر الناس مهما كانت جنسيتهم. ويُحرِّم الكهنة المصريون قتل أي حيوان حي إلا ما يُقدمونه قُربانًا، أما الماجي فعلى نقيض ذلك، يقتلون بأيديهم جميع أنواع الحيوان ما خلا الكلاب والإنسان، ويبدو أنهم يجدون لذة في قتل الحيوان؛ إذ يقتلونه بسرعة كما يقتلون الحيوانات الأخرى كالنمل والأفاعي والطيور والزواحف، ومع ذلك فبما أن هذه عادتهم فلنحتفظ بها. ثم أرجع إلى قصتي السابقة.

الفصل الثامن

ثورة سارديس

ما إن غزا الفرس ليديا حتى أرسل الأغارقة الأيونيون والأيوليون سفراءهم إلى كوروس في سارديس يتوسلون إليه في أن يكونوا تابعين له بنفس الشروط التي حصلوا عليها من كرويسوس، فأصغى كوروس بانتباه إلى مقترحاتهم ورد عليهم بأسطورة، فقال: «يُحكى أن زامرًا كان يسير ذات يوم على شاطئ البحر فأبصر بعض الأسماك، فطفق يعزف لها على زمارته، ظنًّا منه أنها ستخرج إليه فوق الأرض، ولما رأى أخيرًا أن لا جدوى مما يؤمِّله أحضر شبكة وأحاط بها كمية كبيرة من السمك، وسحبها إلى الشاطئ. عندئذٍ أخذت الأسماك تقفز وترقص، ولكنه قال لها: «دعي عنك الرقص الآن؛ إذ رفضت الرقص عندما عزفت لك على المزمار.»» رد كوروس هكذا على الأيونيين والأيوليين؛ لأنه عندما بعث إليه الرسل يحثهم على الثورة ضد كرويسوس رفضوا طلبه. وما إن تم له الاستيلاء على سارديس حتى جاءوا يعرضون عليه الطاعة. إذن فقد رد عليهم بهذا الرد وهو غاضب، فلما سمع الأيونيون إجابته شرعوا في الحال يحصنون مدنهم، وعقدوا اجتماعات في البانيونيوم، كان يحضرها جميع الأيونيين ما عدا الميليسيين الذين عقد معهم كوروس تحالفًا منفصلًا، ومنحهم بموجبه نفس الشروط التي حصلوا عليها من كرويسوس، فقرر الأيونيون الآخرون أن يرسلوا السفراء إلى إسبرطة يطلبون مساعدتها.

عندما وصل سفراء الأيونيين والأيوليين الذين ذهبوا إلى إسبرطة بأقصى سرعة إلى تلك المدينة، اختاروا من بينهم رجلًا فينيقيًّا يدعى بوثيرموس لينوب عنهم في الكلام، ولكي يجذب إليه أكبر عدد من المُستمعين ارتدى ثوبًا من الأرجوان، ثم وقف يتكلم، فألقى خطابًا طويلًا توسل فيه إلى الإسبرطيين أن يهبُّوا لمساعدة مواطنيه، غير أنهم لم يكونوا على استعداد لقَبول التوسل، فأعطَوا أصواتهم ضد إرسال أية نجدة. وعلى هذا عاد السفراء أدراجهم، بَيْد أن اللاكيدايمونيين — بالرغم من رفضهم توسُّلِ أولئك الأقوام —

أرسلوا سفينة ذات خمسين مجدافًا تحمل بعض الرجال الإسبرطيين إلى ساحل آسيا، وكان غرضهم من ذلك على ما أظن هو مراقبة كوروس وأيونيا، فلما بلغ هؤلاء الرجال فوكيا أرسلوا إلى سارديس أعظم رجل بينهم واسمه لاكرينيس؛ ليحذِّر كوروس باسم اللاكيدايمونيين من التعرض لأية مدينة إغريقية؛ لأنهم لن يسمحوا له بهذا.

يُقال إن كوروس عندما سَمِع كلام ذلك الرسول، سأل بعض الأغارقة الذين كانوا واقفين قريبًا منه: «من يكون أولئك اللاكيدايمونيين؟ وما عددهم حتى يرسلوا إليه مثل ذلك الإعلان؟» ولما سَمِع إجابتهم التفت إلى الرسول الإسبرطي وقال له: «لم يحدث حتى الآن أن خِفتُ أي رجال لديهم ميدان وسط مدينتهم حيث يجتمعون معًا، ويخدع كل منهم الآخر، ويحنثون في أيمانهم. إذا قُدِّر لي أن أعيش فسيكون لدى الإسبرطيين مشاكل تشغلهم بالتحدث فيها بدلًا من الاهتمام بأمور الأيونيين.» قصد كوروس بهذا الكلام زجر جميع الإغريق؛ لأن لهم أسواقًا للبيع والشراء، في حين لا يعرف هذه العادة الفرس الذين لا يشترون من أسواقٍ مكشوفةٍ. والحقيقة أنه لا يوجد في بلادهم، ولا سوق واحدة.

بعد هذه المقابلة غادر كوروس ساردیس، بعد أن عهد بها إلى تابالوس الفارسي، وعُيِّن باكتياس الليدي ليجمع الأموال الخاصة بكرويسوس وغيره من الليديين ويحضرها إليه. أما كوروس فقد توجه بنفسه إلى أجباتانا ومعه كرويسوس غير عابئ بأن يكون الأيونيون هدفه المباشر. كانت لديه خطط أعظم من هذه؛ كان يعتزم أن يُحارب بنفسه بابل والباكتريانيين والسكوثيين ومصر، وعلى ذلك اعتزم أن يعهد إلى أحد قواده بموضوع غزو أيونيا.

ما إن غادر كوروس ساردیس حتى حثَّ باكتياس مواطنيه على الثورة علنًا ضد كوروس وضد وكيله تابالوس، ولما كانت تحت تصرفه أموال ضخمة أبحر بها واستخدمها في استئجار قوات من المرتزقة، وفي الوقت نفسه جعل سكان الشاطئ ينضمون إلى جيشه، وبعد ذلك سار للاستيلاء على ساردیس؛ حيثُ حاصر تابالوس الذي حبس نفسه في قلعتها.

بينما كان كوروس في طريقه إلى أجباتانا بلغته هذه الأنباء، فالتفت إلى كرويسوس وقال: «ماذا تظن يا كرويسوس أن تُسفِر عنه هذه الأمور؟ يبدو أن هؤلاء الليديين لن يكفوا عن خَلق المشاكل لأنفسهم ولغيرهم. إني لأُفكر فيما إذا كان من الخير لي أن أبيعهم كلهم عبيدًا. أظن أن ما فعلته الآن هو فعل من «يقتل الأب ويُبقي على حياة طفله». لقد قبضت عليك أنت الذي كنت أكثر من أبٍ لشعبك، وحملتك معي، وعهدت بالمدينة

إلى أهلها. أَلَا يُدهشني الآن أن أسمع بقيام الفتنة فيها؟» هكذا صرح كوروس بنواياه إلى كرويسوس الذي خشي أن يُخرِّب كوروس ساردیس ويهدمها، فأجاب قائلًا: «كلامك معقول يا مولاي، ولكني أرجوك ألا تترك الغضب يتملكك، ولا تحكم بالدمار على مدينة قديمة لا ذنب لها في المشاكل الماضية أو الحاضرة. كنت أنا نفسي سببًا في المشاكل الأولى وها أنا ذا أدفع ثمنها، وقام باكتياس بالمشاكل الأخرى وهو الذي عهِدت إليه بساردیس مدة غيابك عنها. دعه يتحمل جزاء فعلته واعفُ عن بقية الليديين، ولكي تتأكد من عدم تمردهم عليك أو معاكستهم إياك مرة أخرى أرسل إليهم وحَرِّم عليهم الاحتفاظ بأسلحة القتال. مُرهُم بارتداء الجلابيب تحت العباءات، ولبس أحذية في أقدامهم، واجعلهم يُربُّون أولادهم ويُعلمونهم العزف على القيثارة، والآلات الموسيقية الأخرى، والاشتغال بالتجارة، وعندئذٍ ... سُرعان ما ترى أنهم صاروا نساءً وليسوا رجالًا، ولن يتطرق الخوف إلى نفسك منهم بعد ذلك.»

اعتقد كرويسوس أن هذا أفضل لشعب ليديا من أن يُباعوا عبيدًا، وعلى ذلك أبدى لكوروس هذه النصيحة؛ إذ عرف أنه إن لم يُشِر عليه بشيء رادع فلن يستطيع أن يُثنيه عن عزمه، كما أنه خشي أن يقوم الليديون بثورة في المستقبل فيجلبوا الخراب على أنفسهم. فسُرَّ كوروس من هذه النصيحة ورضيَ بالتنازل عن غضبه، وأن يَعمَلَ بما أشار به كرويسوس. فاستدعى رجلًا ميديًّا يُسمَّى مازاريس، وعَهِد إليه بإصدار الأمر إلى الليديين تبعًا لنصيحة كرويسوس، كما أمره بأن يبيع — كعبد — كل من انضم إلى الليديين في هجومهم على ساردیس، وبأن يجعل أول همه أن يَرجِع إليه باكتياس حيًّا عند عودته. وبعد أن أصدر كوروس هذه الأوامر استأنف رحلته إلى الأراضي الفارسية.

الفصل التاسع

بابل

كانت آشور تضم عددًا كبيرًا من المدن، أهمها وأقواها في ذلك الوقت «بابل» التي نُقِل إليها مقر الحكومة بعد سقوط مدينة نينوى. وهاك وصفًا لهذا البلد:

«تقع هذه المدينة في سهل فسيح، وموقعها مربع الشكل تمامًا، يبلُغ طول كل ضلع من أضلاعه مائة وعشرين فورلنجًا، وبذا يكون طول محيطها كله أربعمائة وثمانين فورلنجًا. وعلاوة على مساحتها العظيمة هذه فإنها من ناحية الجمال لم تكن هناك مدينة أخرى تدانيها فيه؛ فأولًا: كان يُحيط بها خندق عريض عميق مملوء بالماء، يرتفع وراءه سور من البناء عرضه خمسون ذراعًا ملكية، وارتفاعه مائتا ذراع (الذراع الملكية أطول من الذراع العادية بعرض ثلاث أصابع).»[١]

يجب ألا يغيب عن بالي أن أذكر هنا الغرض الذي استُعملت فيه الأتربة التي خرجت من حفر ذلك الخندق العظيم، ولا الطريقة التي بُني بها هذا السور، فإنه ما إن أتم القوم حفر الخندق حتى صنعوا من التُّراب المستخرج منه لبِنًا (طوبًا نيئًا)، ولما تم صُنع كمية كافية من اللبِنات أحرقوها في قمائن حتى صارت آجرًّا (طوبًا أحمر)، ثم شرعوا في البناء مبتدئين ببناء حافات الخندق أولًا، وبعدها مباشرة أخذوا يبنون السور نفسه، متخذين ملاطهم كله من القار الساخن، وواضعين طبقة من الغاب (البوص) المضفور بين كل

[١] لو فُرِض أن القدم البابلية كانت تُعادِل القدم الإنجليزية، فإن الذراع العادية تُعادِل قدمًا وثماني بوصات. أما الذراع الملكية فتُعادل قدمًا و١٠,٤ من البوصة، وتُقاس الذراع العادية بالمسافة ما بين الكوع ومنتصف الإصبع الوسطى.

ثلاثين طبقة (مدماك) من الآجُر[٢] وأقاموا فوق سطح السور جميعه أبنية .. من حجرة واحدة .. تُقابل كل منها الأخرى، تاركين بينها مسافة تتسع لمرور عربة تجرها أربعة خيول. ويوجد في محيط السور كله مائة باب جميعها من النحاس الأصفر، ذات قوائم وإطارات من النحاس أيضًا. وأحضروا القار المستعمل في ذلك العمل من نهر إيس، وهو أحد الروافد التي تصب في نهر الفرات عند المدينة المسماة بنفس اسمه، وتقع على مسيرة ثمانية أيام من بابل؛ إذ توجد في هذا النهر كميات وافرة من كتل القار.

يجري نهر وسط تلك المدينة فيقسمها إلى قسمين؛ إنه نهر الفرات، ويمتد سور المدينة إلى كل من جانبي النهر، وعلى ذلك يصل ركن السور إلى نهاية كل شاطئ في صورة حاجز من الآجر. ومجرى نهر الفرات عميق سريع الجريان، ينبُع من أرمينيا، ويصُب في بحر أروثريا، أما البيوت فيتكون أغلبها من ثلاثة أو أربعة أدوار، وشوارعها كلها مستقيمة، منها الموازي لمجرى النهر، ومنها المستعرض الموصل إلى شاطئيه. وتوجد في نهاية هذه الشوارع عند الشاطئ أبواب منخفضة الارتفاع مفتوحة في السور المُحاذي للنهر، تُشبه الأبواب العظيمة الموجودة في السور الخارجي، وهي كذلك مصنوعة من النحاس الأصفر، وتفتح إلى المياه.

تتكون وسائل الدفاع الرئيسية لتلك المدينة من سورها الخارجي، بَيْد أن هناك سورًا آخر داخليًّا عرضه أقل من عرض السور الأول، ويَقِل عنه قوة. ويحتل وسط كل قسم من قسمي المدينة حصن، في أحدهما قصر ملوك بابل الذي يُحيط به سور عظيم الضخامة والقوة، وفي الحصن الآخر .. المعبد المُقدس لجوبيتر بيلوس، وهو على شكل مربع طول ضلعه فورلنجان، وله أبواب سميكة مُصمتة من النحاس الأصفر، كانت موجودة أيضًا في عهدي. وكان بوسط المعبد برج مربع الشكل من البناء المتين، طول كل من جوانبه فورلنج واحد، أُقيم فوقه برج ثانٍ وفوق هذا ثالث، وهكذا حتى ثمانية أبراج. ويصل الصاعد إلى القمة من الخارج بواسطة طريق يدور حول الأبراج، وفي منتصف هذا الطريق موضع للراحة به مقاعد لجلوس الصاعدين إلى أعلى الأبراج، وفوق أعلى برج .. معبد واسع به سرير خارق الحجم مزخرف بأنفس الزخارف. وبجانبه نضد من الذهب، وليس

[٢] توجد طبقات من الغاب في بقايا أبنية الطوب الباقية الآن في بابلونيا، ولكن المسافات بينها أقل من المذكورة هنا.

بالمعبد أي تمثال، ولا ينام في المعبد ليلًا غير سيدة وطنية واحدة، تبعًا لما يؤكده جماعة الخلديانيين، وهم كهنة ذلك الرب.[٣]

تحت ذلك المعبد معبد آخر به تمثال جالس لجوبيتر مصنوع كله من الذهب الخالص، وأمام التمثال نضد من الذهب، ضخم الحجم، عليه العرش. وكذلك قاعدة التمثال من الذهب أيضًا. وقد أخبرني أولئك الكهنة أن مجموع وزن الذهب المستعمل ثمانمائة تالنت (التالنت يُعادل ٥٧ رطلًا إنجليزيًّا). وخارج المعبد عمودان أحدهما مُصمت من الذهب لا يجوز أن تُقدم فوقه أية ذبائح إلا من الحيوانات الرُّضع، أما العمود الآخر فمذبح عادي كبير، تُقدم عليه ذبائح من الحيوانات الكاملة النمو. ويحرق الكهنة فوق ذلك المذبح العظيم كميات كبيرة من اللبان الذكر يُقدر وزنها بحوالي ألف تالنت في كل عام في عيد ذلك الرب. كما كان يوجد بهذا المعبد في عهد كوروس تمثال لرجل ارتفاعه اثنا عشر ذراعًا، كله مصمت من الذهب النضار. أما أنا نفسي فلم أرَ هذا التمثال، ولكني سمعت عنه من الكهنة، وقد تآمر داريوس بن هوستاسبيس على نقل ذلك التمثال، بَيْد أنه لم يجرؤ على أن يضع يديه فوقه. وقتل كسيروكسيس بن داريوس .. الكاهن الذي منعه من نقل هذا التمثال، وأخذه. وعلاوة على الزخارف التي ذكرتها، يوجد عدد هائل من التقدمات الخاصة، في ذلك المعبد المُقدس.[٤]

حكم مدينة بابل هذه عدة ملوك بذلوا جهودًا ومساعدات في بناء أسوارها وتزيين معابدها، وسأتكلم عنهم في سردي لتاريخ آشور. وكان من بينهم سيدتان وتُسمَّى أولاهما سميراميس، تولت الحكم خمسة أجيال قبل أن تأتي بعدها الملكة التالية. ومن أعمالها أنها أقامت بعض الجسور الجديرة بالذكر في السهل المجاور لمدينة بابل؛ للإشراف على النهر الذي كان — حتى ذلك الوقت — يفيض على جانبيه فيُغرِق جميع الأراضي المُحيطة به.

أما الملكة الثانية فهي نيتوكريس، وكانت أكثر حكمةً من سابقتها فلم تترك وراءها تخليدًا لذكرى جلوسها على العرش، ولكنها لما رأت قوة الميديين البالغة، ومشروعاتهم

[٣] يبدو إذن أن الخلديانيين فرع من جنس عقاد Akkad الهاميتي Hamite الذي كان يقطن بابلونيا منذ أقدم العصور، وهؤلاء القوم هم الذين اخترعوا فن الكتابة وبناء المدن وطرق العبادة وتنمية جميع العلوم وخصوصًا علم الفلك، وهم الكلدانيون.

[٤] لا شك في أنه يُمكن التعرف على معبد بابل العظيم، الذي ترك الأغارقة كثيرًا من الأدلة على وجوده بالرابية الهائلة التي يُسميها العرب عامة باسم «بابل».

العظيمة، وأنهم استولوا على عدد كبير من المدن من بينها نينوى، وتوقعت أن تُهاجَم بدورها، بذلت كل مجهود مُستطاع لتقوية وسائل دفاع إمبراطوريتها؛ فبدأت بنهر الفرات الذي كان يخترق المدينة في خط مستقيم، فحفرت بعض المجاري على مسافة من أعلى النهر، وبذا صار يدور ويحف بالقرية نفسها ثلاث مرات، وهي قرية في آشور كانت تُسمى أرديريكا. وإلى يومنا هذا كل من يذهبون من بحرنا إلى بابل عندما ينزلون إلى ذلك النهر يمرون بنفس تلك البقعة ثلاث مرات، في ثلاثة أيام مختلفة. كما أقامت جسرًا بطول كل من جانبي نهر الفرات، وكانَا عجيبَين في عرضهما وفي ارتفاعهما. وحفرت حوضًا لبحيرة على مسافة بعيدة من بابل إلى جوار هذا النهر، وكان الحوض عميقًا في كل نقطة يصل فيها إلى المياه، وكان عرضه هائلًا حتى إن مُحيطه ليبلغ أربعمائة وعشرين فورلنجًا. واستخدمت الأتربة الناشئة من حفر هذا الحوض في تعلية الجسور بطول مجرى الماء. وبعد أن أتمت حفره أحضرت الأحجار وأقامت بها حوائط تُبطِّن محيط الحوض بأكمله. وهكذا أتمت هذين العملين وهما التفاف النهر وحفر البحيرة حتى يصير التيار أبطأ بسبب عدد الانحناءات التي يدور فيها، وتغدو الرحلة طويلة دائرية حتى يضطر القائم بها إلى المرور حول البحيرة فيقطع شوطًا بعيدًا. كل هذه الأعمال تمت على جانب مدينة بابل حيث تقع الممرات. وكانت الطرق المؤدية إلى ميديا أكثر استقامة، وغرض الملكة من هذا هو أن تمنع الميديين من الاتصال بالبابليين؛ وبذا لا يكونون على علم بشئونها.

بينما استخدمت التربة المُستخرَجة من حفر البحيرة في إقامة وسائل دفاع المدينة، شغلت نيتوكريس نفسها في عمل آخر، هو في الحقيقة نابع للعملين السابقَين وأقل شأنًا منهما. يقسم النهر المدينة كما أسلفنا إلى قسمَين منفصلَين، فكان في عهد الملوك السابقِين إذا أراد شخص أن ينتقل من أحد القسمَين إلى الآخر اضطُر إلى عبور النهر في قارب، وهذه مسألة يبدو لي أنها كانت شاقة متعبة، ما في ذلك ريب، وعلى هذا بينما كانت نيتوكريس تحفر البحيرة أرادت الانتفاع بها في التغلب على هذه الصعوبة، فتُخلف وراءها تذكارًا آخر لجلوسها على عرش بابل، فأصدرت أمرها بقطع كتل من الأحجار بالغة الضخامة، فلما قُطعت وحُفر الحوض حولت جميع مجرى نهر الفرات إلى مكان قطع الأحجار، وبهذا بينما يمتلئ الحوض بالماء يكون المجرى الطبيعي للنهر جافًّا تمامًا. فأنشأت تُنفذ هذا العمل، فبدأت أولًا بتبطين ضفَّتَي النهر داخل المدينة بجسرين من الآجر، وكذلك مواضع النزول أمام الأبواب المُطِلة على النهر مستعملة طريقة البناء نفسها التي استُخدِمت في بناء سور المدينة. بعد ذلك بنت بالمواد التي أُعدَّت قنطرة من الحجر قريبة من وسط

المدينة قدر المُستطاع، وربطت أحجارها بعضها إلى بعض بالحديد والرصاص، وفي أثناء النهار كانت توضع معابر من الخشب بين الشاطئين يمر فوقها السكان عند عبور النهر من جانب إلى آخر. بَيْد أن تلك المعابر كانت تُرفع ليلًا لئلا يمر الناس من أحد القسمين إلى الآخر بغية السرقة. وبعد أن ملأت مياه النهر مكان قطع الأحجار، وتم إنشاء القنطرة، حُوِّل النهر ثانية إلى مجراه القديم، وهكذا تحول الحوض فجأة إلى بحيرة تفي بالغرض الذي أُنشئت من أجله، وحظي سكان المدينة بمساعدة ذلك الحوض بقنطرة تريحهم في عبور النهر.

كانت هذه الملكة نفسها هي التي دبرت الخدعة الشهيرة، فقد شيدت مقبرة لها في الجزء العلوي من أحد الأبواب الرئيسية للمدينة، في مستوًى يرتفع فوق رءوس المارين، ثم كتبت عليها هذه العبارة: «إذا احتاج أحد الملوك .. الذين سيخلفونني على عرش بابل .. إلى الأموال فليفتح قبري يأخذ منه ما يشاء ولا يفعلن ذلك إلا إذا كان مُحتاجًا حقًّا إلى الأموال وإلا فلن يفيد منه شيئًا.» ظل ذلك القبر كما هو لا يمسه أحد حتى جاء داريوس إلى المملكة فرأى من الوحشية ألا يكون في مكنته استخدام أحد أبواب المدينة، وأن يبقى مبلغ من المال محبوسًا دون الانتفاع به. وعلاوة على هذا شق على نفسه أن يمنع يده من الوصول إلى ذلك الكنز، فامتنع عليه استخدام الباب؛ لأنه عندما يمر بعربته تكون الجثة الميتة فوق رأسه. وبناءً على كل ذلك فتح القبر، ولكنه بدلًا من أن يرى الكنز وجد الجثة الميتة ليس غير، وبجوارها كتابة تقول: «لو لم تكن جشعًا ومولعًا بجمع المال الحرام ولا يهمك من أي طريق تحصل عليه، لَمَا تجرأت على فتح ضريح الموتى.»

قامت حملة كوروس ضد ابن هذه الملكة، الذي كان يُسمى بنفس اسم أبيه لابينيتوس، وكان هذا الابن ملكًا على الآشوريين، وكان من عادة الملك العظيم عندما يخرج إلى الحرب أن تأتيه من وطنه مئونة تُجهَّز بعناية هناك، وتحملها دواب من ماشيته هو نفسه. كما كان يحمل معه الماء اللازم لشربه مأخوذًا من نهر خواسبيس الذي كان يجري في سوسا (أو شوشانة، وكانت عاصمة منطقة سوسيانا، وكان من عادة ملوك الفرس أن يقضوا فيها فصل الشتاء)؛ لأنه الماء الوحيد الذي كان يذوقه ملوك فارس. وأينما رحل الملك تتبعه عربات ذات أربع عجلات تجرها البغال تحمل ماء نهر الخواسبيس مغليًّا ومُعدًّا للاستعمال، ومُعبأً في قوارير من الفضة تُنقل معه من مكان إلى آخر.

الفصل العاشر

سقوط بابل

مَرَّ كوروس في طريقه إلى بابل بشواطئ نهر الجونديس، وهو نهر ينبع من الجبال الماتيينية، ويجري خلال مملكة الدردانيين، ثم يصُب في نهر دجلة، وبعد أن يأخذ دجلة الماء من الجونديس يجري مارًّا بمدينة أوبيس ويصب ماءه بعد ذلك في البحر الإيروثرياني (الخليج الفارسي). وعندما بلغ كوروس ذلك النهر الذي لا يُمكن اجتيازه إلا بالسفن جَفَل أحد الخيول البيضاء المقدسة المرافقة له في حملته، ونزل إلى الماء وحاول عبور النهر بنفسه. بَيْد أن التيار جرفه معه وأغرقه، فغاص إلى الأعماق، فغضب كوروس من وقاحة ذلك النهر، وهدد بكسر شوكته إلى أن يستطيع كل فرد حتى النساء أن يعبره في المستقبل بسهولة دون أن يُبلل ركبتيه. وبناءً عليه أرجأ هجومه على بابل مؤقتًا، وقسَّم جيشه إلى قسمين، ثم خطط بالحبال مواضع مائة وثمانين خندقًا على كل من جانبي نهر الجونديس، تتفرع منه إلى جميع الجهات، وأمر جيشه بحفر هذه الخنادق، على أن يعمل نصف الجيش على الضفة اليُمنى والنصف الآخر على الضفة اليُسرى. وهكذا نفَّذ وعيده بمساعدة ذلك العدد الهائل من الأيدي، غير أنه قضى في ذلك فصل الصيف كله.

بعد أن أخذ كوروس ثأره من نهر الجونديس بأن شتت ماءه في ثلاثمائة وستين قناة انتظر حتى أقبل الربيع التالي، ثم استأنف سيره إلى بابل، فأقام البابليون معسكرهم خارج أسوارهم وانتظروا قدومه، ونشبت بين الفريقين معركة على مسافة قصيرة من المدينة هُزِمَ فيها البابليون على يدي الملك الفارسي، وعلى ذلك انسحبوا إلى داخل أسوارهم حيث أقفلوا الأبواب، وحبسوا أنفسهم داخل المدينة مستهترين بالحصار؛ إذ كانوا قد خزنوا فيها كميات كبيرة من المئونة تكفيهم لعدة سنوات استعدادًا لذلك الهجوم المتوقع؛ إذ عندما رأوا أن كوروس يغزو أمة بعد أخرى صاروا على يقين من أنه لن يَكُفَّ عن التقدم، وسوف يأتي دورهم في النهاية.

حار كوروس عندئذٍ في أمره؛ إذ مر الوقت ولم يستطع الهجوم على ذلك المكان، وربما كان في هذا الضيق، أو اقترح عليه أحدٌ ما جعله يُفكر في خطة وبدأ يُنفذها؛ وَضَع جزءًا من جيشه عند مكان دخول النهر إلى المدينة، وجزءًا آخر عند موضِع خروجه منها، وأمرهم بأن يسيروا نحو المدينة عن طريق مجرى النهر بمجرد أن يصير الماء ضحلًا بدرجة كافية، ثم صار هو نفسه بالجزء غير المُحارِب من جيشه إلى الموضِع الذي حَفَرت فيه نيتوكريس حوض النهر. وفعل نفس ما فعلته هي من قبل، فحول مياه نهر الفرات عن طريق قناة إلى الحوض الذي كان مستنقعًا وقت ذلك، فتدفق فيه النهر لدرجة أن مجراه الطبيعي أصبح ضحلًا سهل العبور، وعندئذٍ تدفق الجيش الفارسي — الذي تركه كوروس أمام بابل عند مدخل ومخرج النهر لهذا الغرض — عبر المجرى الذي لم يبلغ عمق الماء فيه إلى منتصف فخذ الرجل، وبهذا دخل الجيش الفارسي المدينة. ولو فكر البابليون فيما قصد إليه كوروس، أو لاحظوا الخطر المُحدِق بهم لما سمحوا للفرس بدخول مدينتهم، بل كان بوسعهم أن يُبيدوهم عن بكرة أبيهم؛ إذ كان في إمكانهم أن يقفلوا جميع الأبواب المُطِلة من الطرقات على النهر، ويصعدوا إلى أعلى السور بجانب النهر، وبذا كان يُمكِنهم أن يقبضوا على العدو كما لو كان داخل مصيدة، ولكن الذي حدث هو أن الفرس أخذوهم على غِرَّة، وبهذا استولوا على المدينة. ونظرًا لاتساع المدينة العظيم فإن سكان الأجزاء الوسطى (كما قرر سكان بابل) ظلوا مدة طويلة بعد استيلاء العدو على الأجزاء الخارجية من المدينة لا يعلمون شيئًا عما حدث؛ لأنهم كانوا مشغولين بالاحتفال بأحد أعيادهم، فاستمروا يرقصون ويحتسون الخمر حتى علموا بسقوط مدينتهم بعد فوات الأوان. هذه هي ظروف فتح بابل لأول مرة.[١]

هاك أهم الأدلة التي تُبين قوة البابليين وثراءهم: علاوة على الجزية المحددة التي يجبيها الفرس من الممالك التي فتحوها، فإنهم قسموها جميعًا إلى أقسام، وفرضوا عليها أن تُوَرِّد الطعام للملك العظيم ولجيشه في خلال فترات خاصة من السنة، كان على بابل أن تُقدِّم الطعام مدة أربعة أشهر من شهور السنة الاثني عشر، أما بقية مناطق آسيا فتُورِّده خلال الثمانية شهور الباقية، ومن هذا يبدو أن موارد آشور كانت تُقدر بثلث موارد آسيا كلها. كانت هذه أفضل حكومة فارسية من حيث وجهة نظر البابليين، فعندما استولى عليها تريتانتاخميس بن أرتابازوس كانت تدر عليه كل يوم إردبًّا من الفضة،

[١] يقصد هيرودوت أن يُقارن بين هذا الغزو، والغزو الثاني الذي قام به داريوس بن هوستاسبيس.

وكان يملك لنفسه خاصة علاوة على خيول الحرب ثمانمائة حصان للنتاج وستة عشر ألفًا من الأفراس، بواقع عشرين فرسًا لكل حصان .. وفضلًا عن كل هذا كان يحتفظ بعدد كبير من كلاب الصيد الهندية لدرجة أنه أعفى أربع قرى كبيرة من أرض السهول، ومن جميع الالتزامات على شرط أن تكفل لها الطعام.

الأمطار بآشور قليلة لا تكاد تكفي لإنبات الحبوب، وبعد ذلك يتغذى النبات وتتكون السنابل بواسطة الري من النهر؛ لأن النهر لا يغمر الحقول بالماء من تلقاء نفسه كما يحدث في مصر، بل يُنثر الماء فوق المزروعات بالأيدي بواسطة الآلات، وتخترق الترع جميع أراضي بابلونيا كما هو الحال في مصر، وتخرج أكبر هذه الترع التي تتجه نحو «شمس الشتاء» والتي لا يُمكن عبورها إلا بالسفن من نهر الفرات وتصل إلى مجرى آخر يُعرف بدجلة، وهو النهر الذي كانت تقع عليه مدينة نينوى، ولا نعرف قَط أرضًا أكثر إنتاجًا للحبوب من بابلونيا. والحقيقة أنها لا تدَّعي لنفسها إنتاج التين أو الزيتون أو الكروم أو أية شجرة أخرى من تلك الأنواع، ولكن غلتها من الحبوب عظيمة بحيث تغل مائتي ضعف المحصول العادي، وعندما يكون المحصول في أوجِه تصل الغلة إلى ثلاثمائة ضعف. ويبلغ عندئذٍ عرض عود القمح أو الشعير أربع أصابع. أما الذرة العويجة والسمسم فلن أقول إلى أي ارتفاع تصل عيدانهما، ولو أنني أعلم ذلك حق العلم؛ إذ أعرف أنه من لم يزر تلك البلاد لا يُمكن أن يُصَدِّق ما كتبته عن غلة أراضي بابلونيا. ولا يستعمل البابليون زيتًا غير المُستخرج من بذور نبات السمسم. وينمو النخيل هناك بكثرة في طول البلاد وعرضها، وخصوصًا النوع المُثمِر، وتمدهم ثماره بالخبز والخمر والعسل، وتشبه زراعته أشجار التين من جميع الوجوه، ومن بينها: يربط الوطنيون ثمار النخيل الذكر — كما يُسميه الأغارقة — في جريد النخيل الذي يُثمر البلح؛ كي تدخل حبوب اللقاح إلى البلح فتعمل على نُضجه ومنع سقوطه، وتُشبه ذكور النخل أشجار التين البرية في أن حبوب اللقاح توجد عادة في ثمارها.

سأروي الآن ما أدهشني في تلك البلاد أكثر من غيره، بعد المدينة نفسها، فالسفن التي تسير في النهر ذاهبة إلى بابل مُستديرة الشكل ومصنوعة من الجلد، فتُصنع هياكلها المكونة من خشب الصفصاف في بلاد أرمينيا الواقعة فوق أشور، ثم تُكسَى الهياكل من الخارج بالجلد، فلا تَعرِف لها حيزومًا ولا كوثلًا بل تكون السفينة مُستديرة تمامًا كالترس، بعد ذلك تُملأ إلى حافتها بالقش وتوضع حمولتها فوق ظهرها، ثم تُترَك لتسير مع التيار المنحدِر إلى أسفل، والحمولة الرئيسية لهذه السفن هي الخمر معبأة في نواجيد

مصنوعة من جريد النخل. ويقود السفينة رجلان يقفان فوقها، وبِيَد كلٍّ منهما مذراة أحدهما يجر والآخر يدفع.[٢] وتختلف هذه السفن في أحجامها؛ فمنها الكبير ومنها الصغير، وتصل حمولة السفينة الكبيرة إلى خمسة آلاف تالنت. وتحمِل كل سفينة على ظهرها حمارًا حيًّا، وتحمل السفن الكبيرة أكثر من حمار؛ إذ عندما تصل السفن إلى مدينة بابل تُفرِغ شُحنتها على البر وتُعرض للبيع، وبعد أن تُباع السلع يُفكك الرجال السفن ويبيعون هياكلها وما فيها من القش. أما الجلود فيضعونها على ظهور الحمير ويعودون بها ثانية إلى أرمينيا؛ لأن التيار في ذلك النهر بالغ القوة لا يسمح للسفن بالعودة صاعدة فيه؛ ولذلك تُصنع السفن هناك من الجلد أفضل من الخشب، وما إن يعود الرجال إلى أرمينيا حتى يصنعوا سفنًا جديدة للرحلة التالية.

يلبس البابليون جلبابًا من التيل يصل إلى أقدامهم، وفوقه جلباب آخر من الصوف، وعلاوة على ذلك يضعون حول أكتافهم عباءة قصيرة بيضاء. أما أحذيتهم فغريبة الشكل لا تُشبِه ما يلبسُه البيوتيون Boeotians، ويتركون شعور رءوسهم تطول، ويلبسون العمائم، ويدهِنون جميع جسمهم بالعطور.[٣]

ويحمل كل منهم ختمًا،[٤] وعصًا منحوتة من أعلاها على هيئة تفاحة أو وردة أو نسر أو ما أشبه؛[٥] إذ من عادتهم ألا يمسكوا العصا بغير زخرفة فوقها.

للبابليين عادات كثيرة، سأذكر واحدة أعتقد حسب تقديري الشخصي أنها أعظم عاداتهم حكمةً. تجتمع فتيات كل قرية اللواتي في سن الزواج معًا في مكان واحد مرة في

---

[٢] تُشبِه هذه السفن القوارب البيضية الشكل، وقد وجدت رسومها منحوتة في آثار مدينة نينوى، ولا تزال تسير في نهر الفرات.

[٣] يبدو الزي البابلي مرسومًا على «الأسطوانات» في صورة جلباب مخيط يصل من الرقبة إلى القدمين، وتُبيِّن بعض الرسوم الزيَّ مكونًا من قميصين أو جلبابين؛ العلوي منها أشبه بالسترة القصيرة، مخيطًا مثل الجلباب السفلي أو الجونلة. ونرى بجلاء شعر البابليين على الأسطوانات يُرسلونه خلف ظهورهم، إما في هيئة خصلات طويلة أو يُضفرونه في صورة جديلة تبدو كالعصا وراءهم. أما أغطية الرأس فمتعددة الأشكال والأنواع، وأكثرها شيوعًا القلنسوة القصيرة أو العمامة التي يخرج منها قرنان مقوسان وقمة عالية أو «طرطور» يبدو بوضوح.

[٤] لا شك في أن الأسطوانات البابلية هي الأختام التي ذكرها هيرودوت. وقد وُجِدت رسومٌ كثيرة منها على الألواح الفخارية.

[٥] يوجد كثير من رسوم العِصيِّ على الأسطوانات البابلية، ونرى في الآثار البابلية المنحوتة أن حاجب المحكمة يمسك دائمًا عصًا في يده، يبدو أنه استعملها شعارًا لوظيفته.

كل عام، ويقف الرجال راغبو الزواج حولهن في دائرة، ثم يُنادي الدلَّال الفتيات واحدةً واحدة، ويعرضهن للبيع مبتدئًا بأجمل فتاة، وبعد أن تُباع بمبلغ غير قليل يَعرِض التي تليها في مرتبة الجمال، وهكذا تُباع جميعهن ليصرن زوجات لأولئك الرجال، فيدخل أكثر البابليين ثراء في مزاد للحصول على أجمل فتاة، في حين يحصل الأكثر تواضعًا ممن لا يهتمون بالجمال على الفتيات الأكثر خبرة بأعمال البيوت نظير بائنات، فمن عادتهم أن الدلَّال بعد أن يبيع جميع الفتيات الجميلات يُنادي على أكثرهن دمامَة، فتاة كسيحة — لو تصادف وجود واحدة — ويعرضها على بقية الرجال طالبًا منهم أن يتقدم من يرضى بها نظير الحصول على أقل بائنة زواج، فيأخذها مَن يَعرِض أقلَّ مبلغ يقنع به، وتُدفَع هذه البائنات من المبالغ التي جُمعت ثمنًا للفتيات الجميلات، وهكذا يكون ثمن الجميلة بائنة لفتاة دميمة. ولا يسمح لأي رجل بأن يختار زوج ابنته، كما لا يستطيع أي زوج أن يأخذ الفتاة التي اشتراها دون أن يدفع تأمينًا حقيقيًّا كي يتخذها زوجة له، فإذا لم يتفقَا ردَّ المبلغَ ثانية. ويحضر هذا المزاد كل راغبي الزواج، حتى من القرى البعيدة، ويزايدون في الحصول على زوجة لكل منهم. هذه خير عاداتهم، غير أنهم اتبعوا طريقة أخرى تختلف عن هذه لدرء العنف عن فتياتهم ومنع انفصالهن عنهم والاغتراب في بلاد بعيدة، الأمر الذي يجعل من بناتهم مومسات. ويتبع هذه الطريقة الآن فقراء عامة الشعب الذين يُعامِلُهم سادتهم منذ الغزو أسوأ معاملة بعد أن جلبوا الخراب على أُسَرِهم.

وهاك العادة التي تلي العادة السابقة في حكمتها. ليس لدى أولئك القوم أطباء، بَيْد أنه إذا مرض أحدهم أرقدوه في الساحة العامة، ويمر به الذاهب والغادي، فإذا تصادف أن أحدهم سبق أن مَرِض بمثل مرضه، أو كان يعرف شخصًا آخر أُصيب بمثل هذا المرض ذكر له الوصفة التي وجد فيها الشفاء في حالته هو نفسه، أو في الحالة التي يعرفها. ولا يجوز أن يمر شخص بالمريض ولا يسأله عما يشكو منه.

ومن عادة البابليين أن يدفنوا موتاهم في العسل، ويقيموا مأتمًا للبكاء كما يفعل المصريون.

وعندما يُضاجع البابلي زوجته يجلس أمام مدفأة يتصاعد منها دخان البخور، وتجلس زوجته قبالته، وعند الفجر يغتسلان؛ إذ لا يستطيعان أن يلمسَا أي إناء عام قبل الطهر، ولا يزال العرب أيضًا يزاولون هذه العادة.

يتبع البابليون عادة مرذولة ومُخجِلة للغاية، يجب على كل امرأة ولدت في تلك البلاد أن تذهب مرة واحدة في حياتها، فتجلس في معبد فينوس حيث يُضاجعها رجل غريب،

وتذهب كثيرات من نساء الأثرياء — اللواتي يأنفن من الاختلاط بالأخريات — إلى المعبد في عربة مقفلة، يتبعها جمع كبير من الخدم، ثم تتخذ مكانها هناك، أما العدد الأكبر من النساء فيجلسن داخل سور المعبد ويضعن الأكاليل على رءوسهن. ويوجد هناك دائمًا جمع غفير من الناس، بعضهم قادم وبعضهم عائد. وتحدَّد الممرات في جميع الاتجاهات وسط النساء بالحبال، فيمر الأغراب بينهن ليختار كلٌّ منهم مَن تروقه، وما إن تأخذ المرأة مجلسها هناك لا تستطيع العودة إلى منزلها قبل أن يرمي أحد الأغراب عملة فضية في حجرها، ويأخذها معه وراء الأرض المقدسة، ويقول الرجل وهو يرمي قطعة النقود: «فلتُباركك الربة موليتا» (يُطلق البابليون اسم «موليتا» على فينوس). ويجوز أن تكون العملة الفضية من أية فئة، ولا يُمكن رفضها؛ لأن القانون يُحرم ذلك؛ إذ تصبح تلك العملة مقدَّسة وهكذا تذهب المرأة مع أول رجل يرمي القطعة الفضية في حجرها، وليس لها أن ترفض أي شخص، وبعد أن تذهب معه فتُرضي الربة تعود إلى منزلها، وبعد ذلك لا يُمكنها أن تفرط في عفافها نظير أية هدية مهما بلغت. وعادة ما تنتهي مهمة السيدات الجميلات الفارعات الطول بسرعة، ثم يرجعن إلى بيوتهن. أما الأخريات الدميمات الخِلقة فيطول بهن المُقام هناك قبل إنجاز تلك المهمة التي يتطلبها القانون. وقد انتظرت بعضهن ثلاث أو أربع سنوات في المعبد. وتوجد مثل هذه العادة أيضًا في جزيرة قبرص.

الفصل الحادي عشر

مصر

بعد موت كوروس تولى الحكم بعده ابنه قمبيز من زوجته كاساندراني ابنة فارناسبيس. ولما تُوفِّيَت كاساندراني في حياة زوجها كوروس حزن عليها حزنًا بالغًا، وأمر جميع رعاياه بالحداد عليها مثله. ولما كان قمبيز — ابن هذه السيدة من كوروس — يعتبر الأغارقة الأيونيين والأيوليين عبيدَ والده، قادهم في حملته على مصر[1] مع بقية الأمم الأخرى الخاضعة لسلطانه.

كان المصريون قبل حكم ملكهم بساميتيخوس يعتبرون أنفسهم أعرق البشر جميعًا. ومنذ أن قام بساميتيخوس بمحاولة عملية لمعرفة أقدم الأجناس حقًّا، عرف المصريون أنهم رغم تفوقهم على جميع الأمم ليسوا أقدمهم، بل الفروجيون أقدم منهم؛ فعندما رأى — هذا الملك — استحالة البَتِّ في من يكون أعرق الأمم .. من سؤال الأقوام، فكَّر في طريقة لذلك: أخذ طفلين من الطبقات العادية وعهد بتربيتهما إلى أحد الرعاة التابعين له، وأمره بأن يحملهما إلى مراعيه، مشددًا عليه ألا يسمح لأي فرد بأن ينطق أمامهما بأية كلمة، بل يَضعهمَا في كوخٍ منعزل، وأن يَضَع في مسكنهما عنزة من وقتٍ إلى آخر، ويُراعي أنهما يَحصُلان على كفايتهما من اللبن، كما يُراعِي القيام بكل ما يلزمهما. كان غرضه من ذلك أن يعرف، بعد أن ينتهي عهد تمتمة الطفلين، أية كلمة سينطقان بها بوضوح. فحدث، كما كان يتوقع ... أطاع الراعي أوامره لمدة سنتين، وبعد انقضاء هذه المدة، بينما كان يفتح باب حجرتهما ذات يوم ويدخل؛ إذ جرى إليه الطفلان باسطين أذرعهما وقالا بوضوح .. بيكوس .. ولَمَّا حدث هذا لأول مرة لم يهتم به الراعي، ولكنه لما

---

[1] لا يمكن تحديد تاريخ حملة قمبيز على مصر بصفة أكيدة، ولكن عام ٥٢٥ق.م. هو التاريخ الأكثر احتمالًا بين جميع التواريخ التي وصلتنا.

وجدهما يُكرِّرَان تلك الكلمة كلما ذهب إليهما للقيام بما يلزمهما أخبر سيده بها، فأمره الملك بإحضارهما إليه، فسمع بساميتيخوس الكلمة بنفسه، وعندئذٍ راح يستعلم عن أي الأمم يستعمل كلمة «بيكوس» فعلم أنها كلمة فروجية بمعنى «خبز»، وعلى ذلك اعترف المصريون بأن الفروجيين أقدم منهم.

أما من ناحية الأمور البشرية، فإن ما اتفق عليه الجميع هو: كان المصريون — كما يقولون — أول من اكتشف السنة الشمسية وقسموها إلى اثني عشر قسمًا، وقد حصلوا على هذه المعرفة بواسطة النجوم.

عندما يفيض النيل لا يُغرِق الدلتا فحسب، بل وجميع الأراضي الواقعة على كلٍّ من جانبَيه، وكان الناس يعتقدون أن فرعيه تابعان لليبيا ولبلاد العرب، وكان يُغرق الأراضي على جانبيه إلى مسافة مسيرة يومين من شاطئيه. وفي بعض الأماكن .. إلى مسافة أكثر من هذه، في حين أنه لا يفيض على أماكن أخرى.

لم أتمكن من الحصول على أية معلومات عن طبيعة ذلك النهر، سواء من الكهنة أو من غيرهم. كنت متلهفًا بنوع خاص إلى أن أعرف منهم السبب في أن النيل يبدأ بالارتفاع في أول الصيف،[٢] ويستمر الفيضان فيه مائة يوم، ولماذا بعد مُضِي هذه المدة يعود إلى الهبوط في مجراه، ويستمر في الانخفاض طيلة الشتاء كله حتى يعود الانقلاب الصيفي مرة ثانية. لم أستطع الحصول على معلومات من الأهلين عن هذه المسائل[٣] برغم أنني كنت أسأل كل من ألتقي به في طريقي لأعلم ما يعرفه الناس هناك عنها بالإجماع، فلم يستطع أي فرد منهم أن يُخبِرني عن سبب تناقض النيل في طبيعته، ولا السبب في اختلافه عن سائر الأنهار الأخرى فلا يُخرج نسيمًا من سطحه.[٤]

---

[٢] دهش هيرودوت من أن ماء النيل يرتفع في الانقلاب الصيفي وينخفض في الشتاء. ففي نطاق ممفيس يبدأ الفيضان في حوالي العاشر من شهر يونيو، ويصل في شهر أغسطس إلى الارتفاع الذي يقطع فيه الجسور ويُغرِق السهول. ويصل الفيضان إلى أقصاه عادة في آخر سبتمبر. وبهذا تكون فترة الفيضان من ٩٢ يومًا إلى مائة يوم، تبعًا لما كتبه هيرودوت.

[٣] سبب الفيضان هو سقوط مياه الأمطار على جبال الحبشة خلال موسم المطر هناك، ويمتد مدى الأمطار الاستوائية شمالًا إلى خط عرض ٣–٤٣–١٧°.

[٤] إذا كان معنى هذا أن النيل لا يولد نسيمًا، ولا يخرج من سطحه أي نسيم فهو حقيقي. ولكن هذا لا يعني عدم هبوب أي تيار هوائي على واديه.

بَيْد أن بعض رجالات الإغريق الراغبين في أن يَذيع صيتهم في جميع أنحاء العالم ويشتهروا بالبراعة وضعوا تفسيرات لهذه الظواهر، فعللوا حدوثها بثلاث طرق. اثنتان منها لا أظنهما تستحقان حتى أن يتكلم المرء عنهما، ولا أن يذكر ما هما، فيدَّعي أحدهم أن الرياح الموسمية[٥] هي السبب في ذلك الارتفاع بأن تمنع ماء النيل من الجريان إلى البحر. فأولًا: حدث كثيرًا عند عدم هبوب الرياح الموسمية أن ارتفع ماء النيل كعادته. وفضلًا على هذا فإن كانت الرياح الموسمية تُحدِث هذا الأثر فإنه يجب في حالة الأنهار الأخرى التي تجري في عكس اتجاه تلك الرياح أن تَحدُث فيها هذه الظواهر نفسها التي تحدث للنيل، بل وأكثر مما يَحدُث له؛ لأنها أصغر من النيل وتياراتها أضعف من تياره. ولكن هذه الأنهار ويوجد كثير منها في كل من سوريا وليبيا تختلف عن النيل تمام الاختلاف من هذه الوجهة.

أما الرأي الثاني فأقل من هذا — علميًّا — وأكثر غرابة؛ إذ يعزو سبب الفيضان إلى أن النيل يسير على طريقة غريبة؛ إذ يَنبُع من المحيط، وأن المحيط يجري حول الكرة الأرضية كلها.

وأما التفسير الثالث الذي هو أكثر تصديقًا من التفسيرين السابقين فأبعدهما جميعًا عن الحقيقة؛ إذ لا أساس له، وهو نظريًّا أكثر منه واقعيًّا. يعزو فيضان النيل إلى ذوبان الثلوج، ولما كان النيل ينبع من ليبيا، ويمر خلال إثيوبيا، ثم إلى مصر فكيف يمكن أن يُقال إنه يتكون من الثلوج الذائبة وهو يجري من أكثر المناطق حرارة في العالم إلى مناطق أبرد منها؟! هناك كثير من البراهين تُقنع أي فرد قادر على التفكير بأن هذا لا يمكن أن يكون سبب الفيضان، فأول برهان وأقوى البراهين جميعًا يأتي من الرياح التي تهب ساخنة من تلك المناطق، وثانيهما: أنه لا يُعرف قَط تكوُّن الأمطار والصقيع في هذه الجهات، فعندما ينزل الثلج لا بد من سقوط الأمطار في خلال خمسة أيام. وعلى هذا لو كانت هناك ثلوج في تلك النواحي لوَجَب أن تنزل فيها الأمطار أيضًا. وثالثها: من المؤكد أن أهالي هذه المناطق ذوو بشرة سوداء بسبب الحرارة، وأن السماء تظل هناك زرقاء، كما يظل طائر الخطاف هناك طول العام، وأن الكراكي عندما تهاجر هربًا من زمهرير

[٥] تهب الرياح الشمالية الغربية سنويًّا من البحر المتوسط خلال فترة الفيضان ولكنها ليست السبب في ارتفاع ماء النيل، ولو أنها تُساعد بدرجة بسيطة في مقاومة جريانه نحو الشمال. ولكنها بالغة الأهمية للملاحة في هذا النهر.

شتاء سكوثيا، تذهب إلى هذه المناطق لتقضي فيها فصل البرودة. فإن حدث في المناطق التي يَنبُع منها النيل أو التي يمر خلالها أن سقط الثلج، فمن المستحيل أن تحدث أية حالات من هذه.

أما الكاتب الذي عزا الفيضان إلى المحيط فإنه يعيش في ظلامٍ يستحيل معه البرهنة على خطئه بالجدل، وأما أنا شخصيًّا فلا أعرف نهرًا باسم المحيط، وأظن أن هومير أو أحد الشعراء السابقين له قد ابتكر هذا الاسم وذكره في أشعاره.

ربما حُقَّ للمرء بعد تعداد النظريات التي وضعت عن هذا الموضوع الغامض أن يقترح تعليلًا من استنتاجه، وعلى هذا سأبدأ في شرح ما أعتقد أنه السبب في فيضان النيل صيفًا؛ فخلال الشتاء تدفع الرياحُ الشمسَ عن مسارها المعتاد وتنتقل إلى الأجزاء العليا من ليبيا، هذا هو السر كله في عبارة موجزة؛ لأن المناطق التي يقترب منها إله الشمس أكثر من غيرها، ويمر فوقها مباشرة هي أقلُّ المناطق ماءً، وتنكمش فيها مجاري المياه التي تُغذِّي الأنهار أكثر من انكماشها في المناطق الأخرى.

لكي نشرح هذا الرأي بالتفصيل نقول: عندما تمر الشمس فوق الأجزاء العليا من ليبيا تؤثر فيها بالطريقة الآتية: لما كانت السماء صافية دائمًا في تلك البلاد، والجو حارًّا بسبب انعدام الرياح الباردة، فعندما تمر الشمس فوقها تؤثر فيها بنفس تأثيرها على الأماكن التي تمر عليها صيفًا عندما يكون مسارها في وسط السماء؛ أي إنها تجذب المياه، وبعد أن تجذب المياه تقذفها في المناطق العالية؛ حيث تحملها الرياح وتبعثرها وتحولها إلى بخار. ومن هذا يحدث أنه من الطبيعي جدًّا أن تكون الرياح التي تهب من هذه الأمكنة، وهي الرياح الجنوبية، والجنوبية الغربية؛ تكون محمَّلة بالأمطار أكثر من غيرها. ومن رأيي الشخصي أن الشمس لا تتخلص من جميع المياه التي تجذبها من النيل عامًا بعد عام، بل تحتفظ لديها بجزء منها، وعندما يبدأ الشتاء يخف، تعود الشمس ثانية إلى مكانها الأول في وسط السماء، وتشرع في جذب الماء بقوة متساوية في جميع المناطق. ومن رأيي أن النيل عندما يخترق أرض ليبيا كلها يتساوى في طوله مع الإيستر، وبهذا أنتهي من هذا الموضوع.

الفصل الثاني عشر

العادات المصرية

سأتناول موضوع مصر في شيء من التفصيل؛ إذ لا توجد مملكة تعادلها في كثرة عجائبها، ولا في ذلك العدد الهائل من الأعمال التي تتحدى كل وصف. لا تختلف مصر في طقسها فحسبُ عن سائر بلاد الدنيا، ولا في أنهارها، ولكن سكانها يختلفون كذلك عن بقية سكان العالم. إن معظم أخلاقهم وعاداتهم مناقِض تمامًا لأخلاق وعادات غيرهم من البشر، فتؤم نساؤهم الأسواق ويتاجرن بينما يمكث الرجال في البيوت أمام الأنوال. وبينما يتبع بقية العالم في النسيج أن تكون اللُّحمة فوق السداة، فإن المصريين يجعلونها أسفلها. كما أن النساء يحملن الأثقال فوق أكتافهن، بينما يحملها الرجال على رءوسهم. ويتناول المصريون طعامهم في الطرقات خارج بيوتهم، ويأوون إلى بيوتهم للأغراض الخاصة، وحجتهم في ذلك أن العمل غير اللائق، والضروري في وقت واحد، يجب أن يتم سرًّا. أما الأمور الخالية من أي شيء غير لائق فيجب أن تحدث في الطريق علنًا، ومحظور على المرأة الاشتغال بأعمال الكهنة سواء للآلهة أو للربات، في حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما. ولا يلتزم الأبناء بكفالة والدَيهم إلا باختيارهم، أما البنات فمُلزمات بذلك سواء أكان هذا برضاهن أو على كره منهن.

يُطِيل كهنة الدول الأخرى شعورهم، أما كهنة المصريين فيحلقون رءوسهم. ومن العادة في جميع بلاد العالم أن يَحلِقَ الناس شعورهم حدادًا على الأقارب، أما المصريون الذين من عادتهم أن يَحلِقُوا شعورهم في الحالات العادية فيتركون لِحَاهُم وشعور رءوسهم تطول عندما يموت قريب لهم. ويعيش الناس في البلاد الأخرى بمعزلٍ عن الحيوانات، ولكنَّ المصريين يعيشون دائمًا مع حيوانات. وتتغذى الشعوب الأخرى بالشعير والقمح، بينما يعتبر المصريون ذلك عارًا أيَّ عار، ويتغذون بالذرة الهندية التي يطلق عليها البعض اسم «زيا»، ويعجنون الدقيق بأرجلهم، أما الطين فيخلطونه بأيديهم، كما يحملون القاذورات

والتراب بأيديهم أيضًا. وهم الشعب الوحيد في العالم الذي يعرف الختان، ومَن يعرفه مِن الشعوب الأخرى فقد تعلمه مِن المصريين. ويلبس رجالهم ثوبًا من قطعتين، أما ثوب النساء فمن قطعةٍ واحدةٍ.[١] كما يلبسون الخواتم، ويربطون حبال الأشرعة من داخلها، أما غيرهم فيربُطها خارج الشراع. ولا يكتبون كالإغريق من اليسار إلى اليمين، بل من اليمين إلى اليسار، ورغمًا من هذا يُصرُّون على أنهم هم الذين يتجهون بكتابتهم نحو اليمين أما الأغارقة فهم الذين يتجهون نحو اليسار. ويتخذون نوعين من الكتابة يطلقون على أحدهما اسم «المقدس»، وعلى الثاني اسم «العادي».

يتمسك المصريون بدينهم إلى درجة بالغة أكثر من أي شعبٍ آخر، ويتبعون هذه المراسيم: يشربون في أقداح نحاسية يغسلونها ويجلونها كل يوم ولا يشذُّ عن هذه العادة أحدٌ قط. ويلبسون ثيابًا من التيل يحافظون دائمًا على أن تكون مغسولة حديثًا. ويزاولون الختان بقصد النظافة مفضِّلين إياها على حُسن المظهر. ويحلق الكهنة جميع جسمهم كل يومين؛ حتى لا يَعلق به القمل والأقذار الأخرى وهم يقومون بخدمة الآلهة. وثيابهم كلها من التيل، وأحذيتهم من نبات البردي. ولا يصح لهم أن يرتدُوا ثيابًا أو أحذية من مادةٍ أخرى غير هاتين. ويستحمون مرتين يوميًّا بالماء البارد ومرتين في كل ليلة. وعلاوة على هذه العادات، لهم آلاف من العادات الأخرى.

[١] ربما تكونت لدينا فكرة خاطئة إذا علمنا أن ثوب الرجال في مصر يتكون من قطعتين بينما يتكون ثوب المرأة من قطعة واحدة. كان الثوب العادي للرجال عبارة عن جلباب طويل تحته جونلة قصيرة، فكانوا يخلعون الجلباب وقت العمل ويشتغلون بالجونلة. أما النساء فيلبسن الجلباب الطويل وحده. فإذا أُرِيدَ لبس ثوب زيادة على ما تقدم صار ثوب الرجل من ثلاث قطع وثوب المرأة من قطعتين. وعلى هذا لا يقتصر ثوب المرأة على قطعة واحدة بل يجعلونه من قطعتين أي أقل دائمًا بقطعةٍ واحدةٍ من ثوب الرجل.

الفصل الثالث عشر

حيوانات مصر

عدد الحيوانات الأليفة في مصر كبير جدًّا. وكان يجب أن يكون أكبر من هذا لولا ما يُصيب القطط، فعندما تلد القطة لا تسعى بعد ذلك وراء صُحبة الذكر؛ ولذا تلجأ ذكور القطط إلى حيلة غريبة كي تُصاحب الإناث مرة أخرى. تقبض الذكور على صغار القطط الحديثة الولادة وتنقلها إلى مكان بعيد حيث تقتلها، فلما تجد الإناث أنها فقدت قطيطاتها، وهي مُولعة بحبها، تتلهف إلى الاستعاضة عنها بغيرها، فتسعى من جديد إلى صُحبة الذكور. وكلما شَبَّ حريق في مصر يَحدُث أمر غريب كل الغرابة من القطط؛ إذ يَتْرُك الأهالي النار تتأجج ما شاءت أن تتأجج، بينما يقفون حولها على مسافات متفاوتة ويُراقبون هذه الحيوانات التي تتسلل من بين الرجال أو تقفز من فوق رءوسهم، وتندفع إلى داخل اللهب مباشرة. وعندما يَحدثُ هذا يتألم المصريون أشد الألم وأمضَّه. وإذا ماتت قطة في بيت ميتة طبيعية حلَق جميع السكان في ذلك البيت حواجبهم. وعندما يموت كلب يحلقون رءوسهم وجميع جسمهم.

عندما تموت القطط تؤخذ إلى مدينة بوباستيس؛ حيث تُحنط ثم تُدفن في مدفن خاص مقدس. أما الكلاب فتُدفن في البلاد التي تموت فيها في مدافن مقدسة أيضًا. وكذلك يحدث نفس الشيء في حالة النمس. وعلى عكس هذا عندما تموت الصقور وفيران الحقل تُنقَل إلى مدينة بوتو Buto لتُدفن هناك. أما طيور أبي قردان فتُدفن في مدينة هيرمويوليس، وأما الدببة النادرة الوجود في مصر، والذئاب التي لا تَكبُر الثعالب كثيرًا في حجوم أجسامها فتُدفن حيث تموت.

هاك بعض غرائب التمساح: لا تأكل التماسيح شيئًا خلال أشهر الشتاء الأربعة (وهي مدة البيات الشتوي) إنها حيوانات ذوات أربع أقدام، تعيش على البر وفي الماء على حدٍّ سواء، وتَضَع الأنثى بيضها وتفقسه على الشاطئ، وتَقضِي جُل نهارها على اليابسة،

ولكنها تأوي إلى النهر في الليل؛ لأن ماءه أدفأ من هواء الليل ومن الندى. والتمساح هو الوحيد بين جميع الحيوانات الذي يكبر بنسبة عظيمة من أصغر حجم إلى أكبر حجم، فبيضة التمساح أكبر قليلًا من بيضة الإوزة. ويولد التمساح في حجم البيضة تقريبًا، وعندما يَبلُغ أقصى نموه يصير طوله سبع عشرة ذراعًا (أي حوالي ٨,٦٥ من الأمتار) أو أكثر. وتشبه عيناه عينَي الخنزير، وأسنانه ضخمة في شكل الأنياب، يتناسب حجمها مع حجم إطارها. ويختلف التمساح عن سائر الحيوانات الأخرى في أنه عديم اللسان، كما ينفرد أيضًا في كونه لا يستطيع تحريك فكه الأسفل؛ إذ هو الحيوان الوحيد في العالم كله الذي يحرك فكه العلوي دون السفلي. وله مخالب قوية، وجلده مُغطًّى بحراشيف، وحراشيف ظهره قوية لا يمكن أن تنفذ فيها الأسنة أو تؤثر فيها النِّصال. ولا يُبصِر التمساح في الماء، بَيْد أنه حاد البصر وهو على اليابسة. ولما كان يقضي معظم حياته في الماء فإن فمه مملوء دائمًا بالدود، ولهذا السبب بينما تتحاشاه جميع الطيور والحيوانات فإن هناك طائرًا واحدًا هو العصفور الطنَّان trotichus يعيش معه في صداقةٍ وسلامٍ؛ إذ يدين التمساح لهذا الطائر بالشيء الكثير؛ فمن عادة التمساح عندما يخرج من الماء إلى اليابسة أن يستلقي على الأرض ويفتح فاه في مواجهة النسيم الغربي عندئذٍ يدخل الطائر فمه وهو مُطمَئِن، ويلتقط الدود منه. هذا العمل يُرِيح التمساح ويَسُره؛ ولذا فهو لا يُصِيب ذلك الطائر بأذًى قط.

يُقدِّس بعض المصريين التمساح بينما يعامله بعضهم الآخر معاملة الأعداء. فيُقدِّسه من يعيشون بقرب مدينة طيبة وحول بحيرة مويريس (وهي بركة قارون الحالية). ويحتفظ سكان كل من هذين المكانين بتمساح واحد معين ويدربونه ويستأنسونه. ويُزيِّنون أذنَيه بأقراط من الذهب أو الأحجار الكريمة، ويضعون الأساور حول قدميه الأماميتين ويُقدمون إليه في كل يوم مقدارًا معينًا من الخبز مع عدد من الحيوانات ليفترسها. وهكذا يُبجِّلونه أعظم تبجيل وهو حي، وعندما يموت يُحنطونه ويَدفِنونه في مقبرة مقدسة. أما سكان فِيَلة فلا يعتبرون هذه الحيوانات مُقدَّسة، حتى إنهم يأكلون لحومها. واسم التمساح باللغة المصرية القديمة خمبساي champsae أما كلمة Crocodile فقد أطلقها عليه الأيونيون؛ لعظم الشبه بينه وبين السحلية التي تعيش في أيونيا داخل الجدران ويطلقون عليها هذا الاسم.

هناك طرق كثيرة مختلفة لصيد التمساح. وسأوضح هنا الطريقة التي تبدو لي جديرة بالذكر: يضع صيَّادو التماسيح قطعة من لحم الخنزير في شصٍّ ويُعلِّقونه في

وسط الماء، بينما يقف الصياد على الشاطئ ممسكًا بخنزير حي، ويضربه كي يَصرُخ، فيَسمَع التمساح صراخ الخنزير فيندفع مُتجِهًا نحو الصوت، وعندئذٍ يلتقي بقطعة اللحم فيلتهمها في الحال، فيسحبه الرجال الواقفون على الشاطئ إلى البر. وما أن يصل إلى اليابسة حتى يسرع الصياد فيأخذ قطعة من الطين ويطلي بها عيني التمساح. وبذا يستطيع أن يفعل به ما يشاء، وإلا سبَّب له متاعب جمة.

يُعتبر فرس النهر (السيد قشطة) مقدسًا في جهة بابريميس، ولكنه على خلاف ذلك في بقية البلاد المصرية. ويُمكِن وصف فرس النهر بأنه حيوان من ذوات الأربع، مشقوق الأظلاف، تشبه حوافره حوافر الثور، وأنفه عريض مُفَلطَح، وله معرفة وذيل يُشبِهان معرفة وذيل الحصان، وأنيابه ضخمة ظاهرة، وصوته يُحاكي صهيل الفرس، وهو في حجمِ أكبرِ ثورٍ، وجلده بالغ الصلابة حتى لتصنع منه الحراب بعد تجفيفه.

كذلك يوجد بالنيل كلب الماء (حيوان مائي يتغذى بالسمك)، ويُعتَبَر مقدَّسًا. كما يُقدِّس المصريون نوعين من الأسماك ليس غير، هما: ثعبان الماء، ونوع آخر جسمه مُغطًّى بقشور صلبة معينة الشكل يُعرَف باسم ليبيدوتوس ويُقدِّسونهما للنيل. وكذلك الحال بين الطيور فيُقدِّسُون نوعَين منهما يشتهران بالمكر كالثعالب، ويعرفان باسمَي البانسر والإوزة الماكرة.

كذلك لديهم طائر مقدَّس آخر هو الفنيكس، ولو أنني لم أَرَه شخصيًّا، وإنما رأيت صورته. والحقيقة أنه طائر نادر الوجود جدًّا حتى في مصر، ولا يذهب إليها (تبعًا لرواية سكان هليوبوليس) إلا مرة في كل خمسمائة سنة عندما يموت الفنيكس القديم. وإذا كان لهذا الطائر وجود، ويشبه ما في الصورة، فحجمه ومنظره هكذا: بعض ريشه أحمر، وبعضه ذهبي اللون. وأما شكله وحجمه فكالنسر تمامًا (وربما كان هو العنقاء)، ويحكون قصة غريبة عن ذلك الطائر، لا تبدو لي معقولة أو مستساغة. يقطع هذا الطائر المسافة كلها من بلاد العرب إلى مصر طائرًا حاملًا أباه داخل قالب من المر المكي إلى معبد الشمس حيث يدفنه، ويفعل ذلك بأن يصنع أولًا كرة من المر المكي، في أكبر حجم يمكنه حمله ثم يفتح فجوة كبيرة في تلك الكرة تتسِع لوالده، ويضعه داخلها، ثم يسد الفجوة ثانية بالمر المكي أيضًا. وعندئذٍ تكون الكرة بنفس وزنها الأصلي، وهكذا يُحضِر والده إلى مصر داخل قالب من المر المكي كما سبق أن ذكرت، وبعد ذلك يُودِعه معبد الشمس. هذه هي القصة التي يحكونها عن ذلك الطائر.

كان المصريون يُقدِّسون بعض الحيات في جوار مدينة طيبة، وهي حيات عديمة الأذى تمامًا، وصغيرة الحجم. لكل حية منها قرنان في قمة رأسها، وعندما تموت هذه الأفاعي تُدفَن في معبد جوبيتر، وهو الإله الذي تُكرَّس له هذه الحيات.

ذهبت ذات مرة إلى مكان ما في بلاد العرب قبالة مدينة بوتو تمامًا، لأستعلم عن الحيَّات المجنحة. فلما وصلت إلى هناك رأيتُ عظامًا من السلاسل الفقرية والضلوع، في أعداد لا تُحصى، وكلها لثعابين، فأكوام الضلوع عديدة، بعضها ضخم، وبعضها صغير، وبعض آخر متوسط الحجم. ويقع المكان الذي به تلك العظام عند مدخل وادٍ صخري ضيق وسط جبال شديدة الانحدار، تُطِلُّ على سهل فسيح يتصل بسهل مصر العظيم. وتقول القصة إن الحيَّات المجنحة[1] تأتي في فصل الربيع طائرة من بلاد العرب متجهة شطر مصر، بَيْد أنها تلتقي في هذا الوادي بطائر يقال له «أبو منجل» يعترض طريقها وهي داخلة إلى الوادي ويَفتِكُ بها جميعًا. ويؤكد العرب، كما يعترف المصريون بأنهم يُقدِّسون «أبا منجل» من أجل هذه الخدمة العظيمة.

أبو منجل طائر أسود اللون، ذو أرجل كأرجل الكركي ومنقار معقوف شديد التقوُّس، وهو في حجم الدجاجة الرومية تقريبًا. هذا وصف أبي منجل الأسود الذي يُبِيد الأفاعي. أما النوع العادي والأكثر شيوعًا (لأن هناك نوعين من هذا الطائر يختلف كل منهما عن الآخر)[2] فعاري الرأس، والرقبة كلها من الريش، ولونه أبيض إلا رأسه ورقبته فمن لون داكن، وكذلك أطراف جناحيه وذنَبه، ويُشبِه النوع الأول في منقاره وأرجله. (إنه الطائر المعروف باسم أبي قردان). ويشبه الثعبان الطائر ثعبان الماء، وأجنحته عديمة الريش ولكنها تشبه أجنحة الخفاش. وبهذا أنتهي من موضوع الحيوانات المُقدَّسة في مصر.

[1] حيرت حيَّات هيرودوت المجنحَّة كثيرًا من الناس من عصر باوسانياس إلى الوقت الحاضر، وقد ورد ذِكر «الأفاعي الطائرة النارية» بالتوراة في سفر أشعيا (٣٠–٦).

[2] يُقدِّس المصريون أبا منجل لإبادته الحشرات الضارة. كما كانت البجعة تُقدَّس في تاليا لنفس السبب. ويُقدَّس أبو منجل للإله تروث، وهو هيرميس المصري.

الفصل الرابع عشر

التقاليد المصرية

بعد أن تنتهي الوليمة في الحفلات الاجتماعية لطبقة الأغنياء يمر خادم على الزائرين وهو يَحمِل نعشًا به تمثال خشبي منحوت ومطلي بالألوان ليحكي جثة طبيعية لشخصٍ ميت بقدر الإمكان. يبلغ طول التمثال ذراعًا أو ذراعين. ويقول الخادم وهو يُقدِّمُه لكل ضيف بدوره: «تأمل في هذا التمثال، واشرب وكن مرحًا، فعندما تموت ستكون على هذه الصورة.»

هناك عادة أخرى يحاكي المصريون فيها بعضًا من الشعوب الإغريقية يُعرَفون باللاكيدايمونيين. عندما يرى الصغار الكبار في الطريق يفسحون لهم الطريق وينتحون جانبًا. وإذا أقبل شخص كبير إلى حيث يوجد الصغار نهض هؤلاء الصغار من مجلسهم واقفين. ويختلف المصريون عن جميع الشعوب الإغريقية في نقطة ثالثة، فعندما يُقابل أحدهما الآخر في الطريق لا يتحدث كل منهما إلى الآخر، بل ينحني ويُخفِض يديه إلى ركبتيه.

يلبس المصريون جلبابًا من التيل ذا أهداب حول الأرجل يُقال له كالاسيريس، ويرتدون فوقه ثوبًا من الصوف الأبيض. وتُحَرِّم عليهم ديانتهم أن يذهبوا إلى المعبد مرتدين أي ثوب من الصوف أو يدفنوا به.

كذلك اكتشف المصريون مَن مِن الآلهة يُقدَّس كل يوم وكل شهر، وكانوا يعرفون منذ ولادة المرء[1] ما سَيُلاقِيه طول حياته. كذلك اكتشف المصريون تنبؤات عديدة أكثر من

---

[1] استعمل المصريون الأبراج السماوية منذ القدم. وقد تكلم شيشرون عن المصريين وعن الكلديين، فقال إنهم يتنبئون بالمستقبل وبمصير المرء منذ ولادته بمراقبتهم للنجوم.

بقية شعوب العالم. فكلما صادفوا أمرًا غريبًا لاحظوه ودونوا ملاحظاتهم عنه والنتائج التي ينتهي إليها. فإذا تكرر حدوث نفس الشيء توقعوا نفس تلك النتائج.

مارس المصريون الطب بطريقة استقل فيها كل فرع من فروعه عن بقية الفروع الأخرى، فكل طبيب يعالج نوعًا خاصًّا من الأمراض فقط ولا يُعالج غيره. وبذا كانت البلاد زاخرة بالأطباء، بعضهم متخصصون في أمراض العيون، وآخرون في أمراض الرأس، وبعض ثالث لا يُعالِج سوى أمراض الأسنان، ويختص غير هؤلاء في اضطرابات الأمعاء، وبعض آخر في أمراض غير موضعية، وهكذا.

سأبين لك، أيها القارئ طريقة المصريين في الحداد وإقامة الجنائز. عندما يموت أحد الوُجهاء تطلي نساء الأسرة رءوسهن بالطين، وأحيانًا يَطلِين وجوههن أيضًا، ويتركن الجثة خارج الدار، ويَطُفن بطرقات المدينة وقد ربطن أثوابهن بأشرطة، وتركن صدورهن عاريات، يلطمنها بأيديهن وهن سائرات، وينضم إليهن جميع النسوة قريباتهن فيفعلن مثلهن. أما الرجال فيفعلون مثلهن، ويلطمون صدورهم على انفراد، وبعد الانتهاء من هذه التقاليد تُنقَل الجثة للتحنيط.

هناك فئة خاصة في مصر تمارس فن التحنيط، وتتخذه مهنة خاصة بها. وعندما يتسلمون جثة لتحنيطها يُقدِّمون إلى أهل الميت نماذج جثث من الخشب مطلية بالألوان المماثلة للألوان الطبيعية. وأجود هذه الطرق وأعظمها كمالًا طريقة مَن لا يسمح لي احترام الدين بذكر اسمه فيما يتعلق بهذا الأمر. أما الطريقة الثانية فتَقِل عن هذه في الجودة والنفقات. وأما الثالثة فأرخصها جميعًا .. يشرح أخصائيو التحنيط كل هذه الطرق لأهل الميت، ثم يسألونهم عن الطريقة التي يرغبون في أن تُحنَّط بها الجثة. وبعد الاستقرار على نوع التحنيط، والانتهاء من المساومة على الأجر، ينصرف أهل الميت ليبدأ خبراء التحنيط عملهم. وأجود تحنيط يكون هكذا: يأخذ المحنطون خُطَّافًا من الحديد[٢] يسحبون به المخ من الخياشيم، وبذا يتخلصون من جزء منه. أما بقيته فيزيلونها بنقع الجمجمة في عقاقير خاصة. بعد ذلك يشقون أحد جانبي الجثة بحجر[٣] إثيوبي حاد،

---

[٢] توجد آثار بالمومياء تَدُل على التَّخلُّص من المخ عن طريق الخياشيم. أما العقاقير فكانت تستعمل لإزالة الأجزاء التي لم يستطع الخُطَّاف الوصول إليها.

[٣] وُجِدَت بالمقابر مومياء غير مشقوقة الجنب ولا مُفَرَّغة الأحشاء، بَيْد أن هذا الشق وُجِد في كثيرٍ منها، وحتى في أنواع من التحنيط الأقل من هذا، وعلى ذلك لا يقتصر شق الجنب على التحنيط الممتاز، والحقيقة أن هناك درجات كثيرة لكل نوع من أنواع التحنيط.

ويستخرجون عن طريقه جميع محتويات البطن الذي يُنَظِّفونه بعد ذلك بأن يغسلوه جيدًا بكحول النخيل، ثم يغسلوه بعد ذلك عدة مرات بمحاليل العطور، بعد هذا يملئون تجويف البطن بأنقى أنواع المر المكي المجروش، وخيار الشنبر، وجميع أنواع التوابل ما عدا اللبان الذكر، ثم يَخِيطون الفتحة. وبعد كل هذا، يضعون الجثة في النطرون لمدة سبعين يومًا بحيث يُغطيها تمامًا، وبعد انقضاء هذه المدة التي لا يجب أن تزيد على هذا القدر يُغسل الجسم كله، ويُلَف من الرأس إلى القدم بمنسوج التيل الرفيع، ويُطلَى بالصمغ الذي يستعمله المصريون عادة بدل الغراء، ثم يُسلَّم على تلك الحال لأقاربه، فيضعونه في صندوق خشبي صنعوه خصيصًا لهذا الغرض على صورة إنسان، ثم يقفلون الصندوق ويضعونه في الضريح، ويسندونه رأسيًّا إلى الحائط. هذه هي أغلى الطرق لتحنيط الموتى.

أما إذا أراد أهل الميت الاقتصاد في نفقات التحنيط، واختاروا الطريقة الثانية فهاكها: تُملأ عدة محاقن بزيت يستخرج من شجر الأرز، ثم يُحقن الزيت في بطن الجثة، وتُسَد الفتحة التي يعود منها هذا الزيت، وتُوضع الجثة بعد ذلك في النطرون مدة السبعين يومًا المعلومة. وبعد انقضائها يُترك الزيت ليَخرُج من الجثة. وهذا الزيت قوى المفعول لدرجة أنه يخرج معه كل المعدة والأمعاء في حالة سائلة، كما أنه يكون قد أذاب اللحم فلا يبقى من الجثة غير الجلد والعظام. ويُعَاد الميت وهو على تلك الحال إلى أقارب الميت دون عمل أي إجراء آخر.

وطريقة التحنيط الثالثة التي تستخدم في حالة الطبقات الأكثر فقرًا هي: تُزال الأمعاء بمحقن، ثم تُترك الجثة في النطرون مدة سبعين يومًا، ثم تُسلم بعد ذلك مباشرةً لمن يَحضرون لتَسلُّمها.

لا تُرسَل نساء الطبقات الراقية إلى التحنيط بعد موتهن مباشرة، ولا النساء الجميلات أو الجليلات القدر. لا يُؤخذ هؤلاء إلى متخصصي التحنيط إلا بعد أن يمضي على موتهنَّ ثلاثة أو أربعة أيام؛ وذلك لعدم الحط من أقدارهنَّ.

وإذا قتل تمساح شخصًا، سواء أكان أجنبيًّا أو مصريًّا، أو غَرِق شخصٌ في النهر فإن القانون يُحتِّم على سكان المدينة التي أُلقِيت الجثة بقربها أن يحنطوها ويدفنوها في أحد المقابر المقدسة مع القيام بكل ما يُمكِن من مظاهر التبجيل،[٤] ولا يُسمح لأحدٍ

[٤] القانون الذي يحتم على الأهلين تحنيط جثة من يوجد ميتًا بقرب مدينتهم وأن يدفنوها باحتفال عظيم وبأبهى مظاهر البذخ هو قانون الشرطة وقانون السلطات الصحية.

قَط حتى ولا الأقارب أو الأصدقاء أن يَمسُّوا الجثة، وإنما يقوم كهنة النيل دون سواهم بإعداد الجثة بأيديهم للدفن — مُعتبرين إياها أكثر من جثة إنسان — ويضعونها في القبر بأيديهم أيضًا.

لا يجتمع السمك بأية أعداد في الأنهار، بل يؤم البحيرات الساحلية ثم يهجرها وينزح إلى البحر في موسم التناسل قُطعَانًا وجماعات. وتتقدم ذكورها الإناث، وتفرز السائل المنوي في الماء وهي سائرة بينما تتعقبها الإناث مباشرة وتلتهم ذلك السائل في شراهة، وبهذا تَحبل تلك الإناث. وبعد أن تقضي مدة في البحر تتكون البطارخ في بطونها، وعندئذٍ تعود الجماعة كلها إلى موضعها القديم. وفي أثناء العودة تتقدم الإناث الذكور سابحة ككتلة واحدة وتفعل ما كان يفعله الذكور من قبل تمامًا. فتَسقُط حبوب البطارخ قليلًا قليلًا وهي سائرة، بينما تُسرِع الذكور السابحة خلفها بالتقاط تلك الحبوب التي هي عبارة عن أسماك؛ كلُّ حبةٍ سمكةٌ. وفي تلك الأثناء تهرب بعض الحبوب دون أن تبتلعها الذكور فتكبر وتصير سمكًا يافعًا. وإذا صِيدَ بعض هذه الأسماك وهي سائرة في طريقها إلى البحر، وُجِد الطرف الأيسر من رأس كلٍّ منها مشقوقًا. أما إذا صِيدَت وهي عائدة فالشَّق يكون في الجانب الأيمن؛ والسبب في ذلك أنها عندما تسبح ذاهبة إلى البحر تلتزم الشاطئ الأيسر للنيل، وعندما تعود تلتزم كذلك نفس ذلك الشاطئ لتتأكد من أنها لم تضل الطريق فتَحتك به باستمرار فيحدث بها ذلك الجرح. وعندما يبدأ النيل يفيض تمتلئ الأخاديد والمستنقعات القريبة منه بالماء قبل أي مكان آخر، بواسطة تسرب الماء خلال الشاطئَين. وعندما تُصبِح هذه برگًا تزخر بالأسماك الصغيرة. فعندما انحسر ماء النيل في العام السابق عادت الأسماك مع الماء المنحسر، ولكنها برغم هذا تكون قد وضعت أجنتها في الطين على الشاطئ. وهكذا عندما تعود المياه في موسم الفيضان تخرج الأسماك الصغيرة من بيض العام السابق. هذا كل ما يتعلق بالأسماك.

يدهن المصريون المقيمون بأراضي المستنقعات أجسامهم بزيت يستخرجونه من ثمار نبات ينمو بريًّا في بلاد الإغريق، ويطلق المصريون عليه اسم «كيكي»، فيزرعونه على شواطئ الأنهار والبحيرات حيث يثمر بغزارة، وتكون رائحة الثمار كريهة للغاية، فتُجمَع هذه الثمار وتُسحَق وتُعصَر أو تُسوَّى في الماء المغلي بعد تحميصها. ثم يُجمَع السائل المُستَخرج منها ويكون زيتي القوام، وصالحًا للإضاءة مثل زيت الزيتون تمامًا، بَيْد أنه يختلف عنه في رائحته غير المقبولة.

تزخر البلاد بالبعوض، فيتخذ القوم حياله الطرق الآتية: في بلاد مصر المرتفعة عن أراضي المستنقعات يقضي السكان ليلهم فوق الرُّبى؛ إذ لا يستطيع البعوض أن يطير إلى

أي ارتفاع بسبب الرياح. أما الأراضي المنخفضة التي لا توجد بها الروابي فيشتري كل فرد لنفسه شبكة يستخدمها له كلة (ناموسية) بالليل، ويصيد بها السمك نهارًا. فيُغطي بها فراشه الذي يستريح فيه ليلًا، ويتسلل تحتها وينام هادئًا. أما إذا التفَّ بثيابه أو بملاءة من الموسلين دون استعمال الكلة فلا ريب في أن البعوض يلدغه من خلال المنسوج، ولكنه لا يستطيع المرور من ثقوب الكلة.

ينقل المصريون بضائعهم في سفن يصنعونها من خشب السنط، والسنط شجر كثير الشوك، عندما يكبر يكون قريب الشبه من شجر اللوتس الكوريني، ويفرز نوعًا من الصمغ، فيقطعون من هذا الشجر ألواحًا طول كلٍّ منها حوالي ذراعين، ثم يشرعون في صنع السفن، فيرصُّون تلك الألواح كما يُرَص الطوب، ويربطونها إلى دعامات طويلة أو قضبان حتى يتم صُنع هيكل السفينة. بعد ذلك يضعون الألواح المستعرضة فوقها، ممتدة من جانب إلى الجانب الآخر. ولا يتخذون ضلوعًا لسفنهم، بل يحشون الشقوق بأوراق البردي من الداخل. ولكل سفينة دفة واحدة تُغرس في قاع السفينة مباشرة. وتُصنع سارية السفينة من خشب السنط أيضًا، والشراع من ورق البردي. ولا تستطيع هذه السفن أن تسير إلى أعلى النهر ضد التيار إلا بمساعدة الريح، وعلى ذلك فهي تُسحَب من الشاطئ وهي متجهة إلى أعلى النهر. أما إذا سارت إلى أسفله مع التيار فتكون قيادتها هكذا: لكل سفينة طوف مصنوع من أخشاب الأثل المربوطة معًا بِعيدان الغاب المضفورة، كما أن لكل سفينة حجر مثقوب من وسطه يبلغ وزنه حوالي تالنتين، ويُربط الطوف إلى السفينة بحبل ويُترك ليسير مع التيار أمام السفينة التي يُسميها القوم «باريس»، بينما يتدلى الحجر من مؤخر السفينة بحبلٍ مربوط به، فتكون النتيجة أن يُسرع الطوف مع التيار ويَجُر السفينة، في حين أن الحجر المتدلي عميقًا في الماء يسحب مؤخرها إلى أسفل فيعمل على الاحتفاظ بها أفقية. ويوجد بمصر عدد كبير من هذه السفن، تَبلُغ حمولة بعضها عدة آلاف من التالنتات.

وعندما يفيض النيل يُغرِق الأراضي، ويُحِيلها إلى بحر فلا يظهر منها شيء غير المدن التي تبدو كالجزر وسط بحر إيجة. وفي هذا الموسم لا تسير السفن في المجرى الأصلي للنيل، وإنما تسير في المياه التي تغمر السهل.

الفصل الخامس عشر

بعض ملوك مصر

تكلمت عن مصر في الأبواب السابقة تبعًا لمشاهدتي، فذكرت ما رأيته بعينَي رأسي، والآراء التي كونتها بنفسي، ونتائج أبحاثي الشخصية. أما المعلومات الآتية فاستَقيتُها من المصريين أنفسهم. وبناءً عليه أذكرها هنا كما هي، وأضيف إليها بعض الملاحظات التي استرعت انتباهي.

قال لي الكهنة: إن أول ملوك مصر هو مينا، وأنه هو الذي أقام الجسر الذي يقي مدينة ممفيس خطر فيضان النيل؛ فقد كان النيل قبل عهده يفيض على طول سلسلة من التلال الرملية التي تَحُدُّ مصر من ناحية ليبيا. فصنع سدًّا وسط النيل عند المُنحنى الذي يكونه النهر جنوبي ممفيس بحوالي مائة فورلنج، وبذا جفف مجراه القديم، وفي نفس ذلك الوقت حفر له طريقًا جديدًا في منتصف المسافة بين صفي التلال.

بعد هذا، قرأ لي الكهنة من أوراق البردي أسماء ثلاثمائة وثلاثين ملكًا خلفوه على العرش، تبعًا لأقوال أولئك الكهنة. وفي هذه الأجيال العديدة تولى الحكم ثمانية عشر ملكًا إثيوبيًّا، وملكة وطنية واحدة. أما بقية الملوك فكانوا رجالًا ومصريين. وكانت تلك الملكة تحمل نفس اسم ملكة بابل، أي نيتوكريس، فيقولون إنها خلَفت أخاها الذي كان ملكًا على مصر وقتله رعاياه، ثم أقاموها على العرش مكانه. ولما كانت قد صممت في قرارة نفسها على أن تأخذ بثأر أخيها، وضعت خطة بدهاء فأبادت عددًا كبيرًا من المصريين. شيدت قاعة واسعة تحت الأرض وبحجة تدشينها أقامت وليمة عُظمى دعت إليها أولئك المصريين الذين كانت تعرف أنهم قاموا بالدور الرئيسي في مقتل أخيها، وبينما هم يولمون أطلقت عليهم ماء النهر فجأة بواسطة سد سري بالغ الحجم. هذا هو كل ما أخبرني به الكهنة عن تلك الملكة، باستثناء أنها عندما فعلت هذا ألقت بنفسها في حجرة مليئة برماد النار هربًا من الانتقام الذي تتعرض له.

أما الملوك الآخرون، فبحسب أقوال الكهنة، لم يكونوا من المشهورين أو الجديرين بالذكر.

بعد إغفال الكلام عن أولئك الملوك الخاملي الذكر، أتحدث عن الملك الذي حكم بعدهم. كان اسمه سيزوستريس. قال الكهنة: إن أول شيء بدأ به هذا الملك هو أنه سار بأسطول من السفن الحربية من الخليج العربي بمحاذاة سواحل إيروثرايا (الخليج الفارسي)، فأخضع الأمم التي مر بها حتى وصل أخيرًا إلى بحر غير صالح للملاحة بسبب كثرة الأماكن الضحلة به، ثم عاد من هناك إلى مصر، حيث جمع جيشًا في عداد الحصى بحسب أقوال الكهنة، وتقدم به عن طريق البر إلى وسط آسيا، فأخضع جميع الأمم التي كانت في طريقه. وقد أقام أعمدة[١] في البلاد التي قاومه أهلها وحاربوه بشجاعة مدافعين عن حريتهم، ونقش على الأعمدة اسمه واسم دولته، وأنه أخضع لحكمه أهل ذلك البلد بقوة السلاح. أما الأمم التي استسلمت له مباشرة بدون قتال فنقش على الأعمدة التي تركها ببلادهم، بالإضافة إلى ما سبق، شارة تدل على أنهم أمة من النساء؛ أي أنهم غير مقاتلين ومخنثون.

اختفت أغلب الأعمدة التي أقامها سيزوستريس في البلاد التي غزاها. أما التي أقامها في سوريا فقد رأيتُها قائمةً في المنطقة المعروفة بفلسطين، وعليها النقوش التي ذكرتها وكذلك الشارة، واضحةً تمام الوضوح.

استطرد الكهنة يقولون إن سيزوستريس هذا عندما عاد إلى وطنه يتبعه جمع غفير من الشعوب التي أخضع بلادها،[٢] استقبله أخوه الذي كان سيزوستريس قد أنابه عنه في حكم مصر إبان غيابه، وكان يقيم في دفنى قرب بيلوسيوم، ودعاه إلى وليمة حضرها سيزوستريس وأبناؤه. غير أن أخاه أحاط المكان الذي به الوليمة بالأخشاب وأشعل فيها

[١] توجد هذه الآثار الخاصة برمسيس الثاني في سوريا فوق الصخور القائمة على مصب نهر لوكوس (ويسمى الآن بنهر الكلب).

[٢] كان من عادة ملوك مصر أن يحضروا أسراهم إلى مصر ويستخدمونهم في الأعمال العامة كما تدل على ذلك النقوش العديدة الموجودة على الآثار، وكما يقول هيرودوت (في الباب الثامن بعد المائة). وكذلك كانوا يستخدمون اليهود بنفس الطريقة. فبرغم أنهم حصلوا أولًا على مراعٍ لماشيتهم في أرض جوشن (التكوين، ١٦: ٣٤) أو البوكولبا؛ حيث كانوا يرعون قطعان الملك (التكوين، ٦٧: ٦، ٢٧) فإنهم أُجبروا أخيرًا على القيام بعدة أعمال كأسرى الحرب العاديين.

النيران، فلما رأى سيزوستريس ما حدث استشار زوجته في الحال، وكانت برفقته في الوليمة، فأشارت عليه بأن يضع اثنين من أبنائه الستة فوق النيران ويتخذ منهما قنطرة يمر عليها بقية أفراد الأسرة. ففعل كما نصحته زوجته، وهكذا احترق اثنان من أبنائه وماتا ولكنه نجا هو وأبناؤه الباقون.

بعد ذلك عاد الملك إلى بلده وانتقم من أخيه. ثم شرع يستخدم الجموع الذين أحضرهم معه من البلاد التي غزاها في نقل كتل الصخر الضخمة التي نقلها إبان حكمه إلى معبد فولكان، وفي حفر مختلف الترع التي تخترق جميع أراضي مصر. وبهذه الأعمال الإجبارية تغير وجه المملكة تغيُّرًا كليًّا. فبينما كانت مصر قبل ذلك تَصلُح لسير كل من الخيول والعربات غدت غير صالحة لسير أيِّهما،[٣] فعلى الرغم من أن رقعة أرض مصر كانت كلها سهولًا مستوية، إلا أنها أصبحت بهذا العمل غير صالحة لسير الخيول ولا العربات؛ إذ صارت تخترق أرضها الترع العديدة التي شُقَّت في جميع الاتجاهات، وكان غرض ذلك الملك من هذا العمل توصيل المياه إلى سكان المدن الكائنة في وسط المملكة والتي لا تقع على النيل؛ إذ كانوا يضطرون قبل ذلك بعد انحسار مياه الفيضان إلى أن يشربوا ماءً ملحًا يحصلون عليه من الآبار.[٤]

كذلك قسم سيزوستريس كما يُقرر الكهنة أرض مصر إلى قطع مربعة الشكل متساوية في المساحة، ووزعها على السكان، مانحًا كل فرد قطعة منها على أن يدفع له إيجارًا سنويًّا، وإذا محا النهر جزءًا من نصيب أي رجل ذهب إلى الملك وشكا إليه بما حدث، فيُرسِل الملك مندوبين ليقيسوا بالضبط مساحة الجزء الذي أزاله النهر، وبناءً على هذا التحديد يُخفَّض الإيجار، فلا يُطَالب ذلك الرجل إلا بإيجار قطعة الأرض الباقية له. وأظن أن تلك العملية هي التي أوجدت علم الهندسة لأول مرة في مصر، ثم انتقل منها إلى بلاد الإغريق. أما المزولة وتقسيم النهار إلى اثنَي عشر قسمًا فقد أخذهما الأغارقة عن أهل بابل.

لم يكن سيزوستريس ملك مصر فحسب، بل وملك إثيوبيا أيضًا. كان هو الملك المصري الوحيد الذي حكم ذلك القطر الأخير. ومن الآثار التي تركها تخليدًا لذكرى حُكمه

---

[٣] كان من الممكن جدًّا أن يزيد عدد الترع في عصر رمسيس الثاني. ويدل هذا، كبقية رواية هيرودوت، على أن رمسيس الثاني هو نفس سيزوستريس الذي يصف أعماله هنا.

[٤] يتسرب الماء خلال التربة الطينية إلى الآبار الموجودة في باطن الأرض حيث يصير عذبًا، ولو أنه في بعض الأحيان يكون عسرًا (الماء العسر هو المحتوي على أملاح لا تُحدِث رغوة مع الصابون).

تلك التماثيل القائمة أمام معبد فولكان؛ اثنان منها يُمَثِّلانه هو وزوجته، وارتفاع كل منهما ثلاثون ذراعًا. أما الأربعة الباقية فتمثل أبناءه وارتفاع كل منها عشرون ذراعًا. هذه هي التماثيل التي رفض كاهن فولكان بعد ذلك بسنوات عديدة أن يسمح لداريوس الفارسي بأن يقيم أمامها تمثالًا لنفسه؛ إذ كما قال ذلك الكاهن «لم يعمل داريوس أعمالًا كالتي عملها سيزوستريس المصري؛ لأن سيزوستريس أخضع جميع الشعوب التي أخضعها داريوس، وزاد عليها السكوثيين الذين أخفق داريوس في إخضاعهم. وعلى ذلك فليس من العدل أن يقيم لنفسه تمثالًا أمام تمثال ذلك الملك الذي لم يستطع داريوس أن يتفوق عليه في أعماله.» ويقولون إن داريوس عفا عنه من أجل ذلك الكلام.

قال الكهنة: بعد موت سيزوستريس اعتلى العرش ابنه فرعون. ولم يُقِم هذا الملك بأية حملات حربية؛ إذ أصابه العمى بسبب هذه الظروف: في إحدى السنوات ارتفع ماء النيل ارتفاعًا غير عادي حتى وصل إلى ثماني عشرة ذراعًا، وأغرق الحقول. وتصادف أن هبت الريح فجأة فارتفعت المياه في موجات عظيمة. عندئذٍ استبدت بالملك نزوة إلحاد، فأمسك رمحه وقذفه وسط اللجج العاتية. وفي الحال أصابه مرض في عينيه انتهى إلى إصابته بالعمى بعد فترة وجيزة،[٥] فظل محرومًا من قوة الإبصار عشر سنوات. وأخيرًا في السنة الحادية عشرة بلغته نبوءة من مدينة بوتو تقول:

> «لقد انقضت مدة العقوبة ويجب أن يَسترد فرعون بصره بأن يغسل عينيه بالبول، ينبغي أن يبحث عن سيدة مُخلصة لزوجها، ولم تُفضِّل عليه قط أي رجل آخر.» وعلى ذلك بدأ الملك بتجربة بول زوجته، ولكنه لم يُفِد شيئًا، ظل أعمى كما كان من قبل، فكرر التجربة ببول سيدات أُخريات حتى نجح في النهاية واستعاد قوة إبصاره. وبعد هذا جَمَعَ كل النساء اللواتي استعمل بولهن ما عدا الأخيرة، وقادهن إلى المدينة التي تُسمَّى إيروثرابولوس (أي الأرض الحمراء)؛ حيث أحرقهن جميعًا مع المدينة نفسها. أما السيدة التي يدين لها

---

[٥] هذه إحدى روايات العرَّافين الأفارقة. قد ينظم الشاعر الأفريقي قصةً حسنة السبك عن أخيل أو عن نهر طروادة. أما كتبة النثر المصريون فلا يصورون ملوكهم يقومون بأعمال تناقض عاداتهم ومعتقداتهم الدينية. وكذلك قصة النساء هذه غير مصرية. أما ذكر العلاج الذي لا يزال يُستَعمل في مصر للرمد، فيدل على أن حقيقة بسيطة قد حُوِّلت إلى قصة غير محتملة الحدوث.

بشفائه فتزوجها، وبعد تمام شفائه قدم الهدايا لجميع المعابد، ومن أهم هذه الهدايا مسلتان قدمهما لمعبد الشمس. إنهما من روائع الفن؛ إذ نُحِتت كلٌّ منهما من قطعة واحدة من الصخر عرضها ثماني أذرع وارتفاعها مائة ذراع.

الفصل السادس عشر

قصة رامبسينيتوس

لما تُوفِّي بروتيوس خلفه على العرش رامبسينيتوس[١] Rhampsinitus تبعًا لأقوال الكهنة، وآثاره التي تركها بعده، هي: المدخل الغربي لمعبد فولكان، والتمثالان القائمان أمام هذا المدخل، ويُطلِق المصريون على أحدهما «الصيف» وعلى الآخر «الشتاء»، وارتفاع كُل منهما خمس وعشرون ذراعًا، ويتجه تمثال الصيف إلى الشمال أكثر من الآخر ويعبده السكان الوطنيون، وله كثير من الهدايا قدموها إليه. أما تمثال الشتاء القائم جهة الجنوب، فيُعامَل على نقيض هذه المعاملة تمامًا.

يُقال إن الملك رامبسينيتوس كان واسع الثراء يملك كنوزًا عظيمة من الفضة، والحقيقة أن كميتها كانت بالغة لدرجة أنه لم يتفوق عليه أو يساويه أحد في ثرائه من جميع الملوك الذين خلفوه، ولكي يحرس أمواله جيدًا عزم على أن يبني حجرة واسعة من الصخر المنحوت بحيث يكون أحد جوانبها واجهة قصره. ولما كانت للبَنَّاء أطماع في تلك الكنوز صمَّم خطة وهو يقوم بالبناء، فوضع حجرًا في القاعة يَسهُل نزعه من مكانه بواسطة رجلين، أو حتى رجل واحد. وهكذا تم بناء الحجرة وأُودِعت فيها أموال الملك … مرت الأيام وتعاقبت الأعوام، ومَرِض البنَّاء، فلما أحس بقرب منيته نادى ولدَيه وأخبرهما بأمر الحجر السري في خزانة الملك، قائلًا لهما إنه إنما فعل هذا من أجلهما كي يستطيعا الحياة دائمًا في بذخ، وشرح لهما طريقة نزع الحجر مبينًا لهما جميع الأبعاد والمسافات. وأمرهما بكتمان السر؛ كي يُهيمِنَا على الخزانة الملكية طيلة حياتهما. فلما مات الأب، لم

[١] من الجلي أن هذا الملك هو رمسيس وليس ذلك الاسم اسم ملك آخر من أسرة سابقة لأسرة رمسيس.

يتوانَ ابناه في البدء بالعمل، فذهبَا إلى القصر ليلًا، وعثرَا على الحجر في حائط البناء، فعالجاه حتى نزعاه بسهولة من الحائط، وبعدها سلبَا مبلغًا عظيمًا من الخزانة.

عندما ذهب الملك، بعد ذلك، إلى مخزن كنوزه دُهِش إذ رأى النقود هابطة في أحد الأوعية التي ملأها بالفضة. لم يستطع أن يتهم شخصًا بعينه؛ فقد كانت الأختام سليمة، وأقفال الحجرة موضوعة في مكانها لم تمتد إليها يدُ أحدٍ بالعبث. وكلما ذهب الملك إلى خزانته بعد ذلك وجد تكرار العبث بأمواله وسرقة كمية كبيرة من النقود في كل مرة. والحقيقة أن اللصَّين لم يكفَّا عن السرقة، بل كانا ينهبان الأموال باستمرار. وأخيرًا استقر رأي الملك على أن يَنصِب شركًا بقرب الأوعية المحفوظة فيها الأموال، فتمَّ هذا، وعندما ذهب اللصان إلى القاعة كعادتهما، ودخل أحدهما من الفتحة السرية اتجه نحو أحد الأوعية، فإذا به يجد نفسه فجأة قد وقع في الفخ، فأدرك أنه هالك لا محالة، وعندئذٍ نادى أخاه من فوره وأخبره بما حدث، وطلب منه أن يقطع رأسه بأسرع ما في مكنته، ويحمل الرأس معه؛ حتى إذا ما اكتُشِف جسمه لم تُعرف شخصيته وإلا هلك كلاهما. فعرف اللص الآخر حكمة هذه المشورة، فاضطر إلى تنفيذها، ثم وضع الحجر ثانية في مكانه، ورجع إلى بيته يحمل معه رأس أخيه.

ما إن لمع الفجر في أفق السماء حتى أسرع الملك إلى خزانته، فإذا به يدهش لوجود جسم في الشرك بغير رأس، بينما البناء سليم لم يُمَس، ولم يرَ أية فتحة لدخول اللص أو خروجه في أي موضع بالحجرة .. وقف الملك حائرًا مبهوتًا، وفي أثناء حيرته أمر بأن تُرفع جثة الرجل الميت وتعلق خارج سور القصر، وأقام عليها الحراس لمراقبتها وأمرهم بالقبض على كل مَن يبصرونه يبكي أو يولول قريبًا من مكان الجثة، وأن يُحضِروه إليه. فلما سمعت الأم بعرض جثة ابنها حزنت أبلغ الحزن، وحزَّ ذلك في قلبها، فتحدثت إلى ابنها الآخر وأمرته بأن يجد طريقةً ما لإحضار جثة ابنها، وهددته بأنه إذا لم يُحضِر لها جثة أخيه فإنها ستذهب بنفسها إلى الملك وتخبره بجلية الأمر.

حاول الابن جهد طاقته أن يثني أمه عن عزمها ولكن دون جدوى، فما فتئت تُلاحِقه بطلبها حتى رضخ أخيرًا إلى رغبتها، ودبر الطريقة الآتية لسرقة الجثة: ملأ بعض القِرَب بالخمر، وحملها على ظهور الحمير، وساقها أمامه حتى بلغ مكان الجنود المُكلَّفين بحراسة الجثة. وبينما هو يتظاهر بأنه يجذب إليه قِربتين أو ثلاثًا حل رباط بعض القِرب، وتركها تتأرجح على جوانب الحمير، فأخذت الخمر تسيل من القِرب، وعندئذٍ شرع يَضرِب رأسه ويَصرُخ بأعلى صوته مدعيًا أنه لا يعرف بأي الحمير يبدأ. فلما أبصَر الحراس الخمر

تنسكب على الأرض فرحوا وانتهزُوا الفرصة وأسرعوا جميعًا إلى الطريق ومع كل واحدٍ مِنهُم إناء أو نحوه ليجمع فيه شيئًا من الخمر وهي تسيل، فتظاهر السائق بالغضب وأخذ يكيلُ الشتائم للحراس الذين حاولوا تهدئته بجميع الطرق، حتى تظاهر أخيرًا بأنه قد لان واستعاد هدوءه، وساق الحمير بعيدًا عن الطريق، وأنشأ يرتب حمولتها. في تلك الأثناء بينما هو يَتَحدث إلى الحراس بدأ أحدهم يمزح معه حتى جعله يضحك، وعندئذٍ قَدَّم لهم قِربة من الخمر على سبيل الهدية، فاستقر عزمهم وقتذاك على أن يجلسوا ويحتسوا الخمر، ورجوا ذلك الحمار في أن يجلس ويشرب الخمر معهم، وأخيرًا رضي الرجل وبقي معهم، وبينما هم يحتسون الخمر توثقت عُرى الصداقة بينهم، فقدم لهم قِربة أخرى. وعلى ذلك أخذوا يعبون الخمر عبًّا حتى دارت رءوسهم وغَلَبهم النُّعاس، فناموا في مواضعهم، فانتظر اللص حتى جَنَّ الليل وأخذ جُثة أخيه، ثم رغب في أن يسخر منهم، فحلق النصف الأيمن من لحية كل حارس، وتركهم على تلك الحال، ووضع جُثة أخيه على الحمير، وانصرف عائدًا إلى أمه في بيته. وهكذا أنجز ما طلبته والدته.

لما بلغ مسامع الملك أن جثة اللص قد سُرِقَت استشاط غضبًا، واستبدَّ به الغيظ، وإذ أراد أن يَقبِض على الرجل الذي دبر تلك الخدعة مهما كلفه الأمر عمد إلى حيلة (كما قال الكهنة) لا أكاد أُصدِّقها. فيُقال إنه أرسل ابنته إلى مواخير الدعارة العامة، وأمرها بأن تسمح بالدخول لكل من يأتي إليها على شرط أن يخبرها بأعظم أعماله دهاءً، وأكثرها شرورًا طيلة حياته كلها، فإن أخبرها أحد بقصة اللص، وجب عليها أن تُمسِك به ولا تسمح له بالانصراف قط. ففعلت الابنة كما طلب منها أبوها، فعلِم اللص بالأمر، وعرف ما يرمي إليه الملك، وأراد أن يبزه في المكر والدهاء، ولذلك دبر الخطة الآتية: حصل على جثة رجل ميت حديثًا، وقطع إحدى ذراعيه من الكتف، وخبأها في طيات ملابسه، ثم ذهب إلى ابنة الملك، فسألته كما كانت تسأل كل فرد غيره، فأخبرها بأن أعظم أعماله شرورًا هو قطع رأس أخيه عندما وقع في الشرك الذي نصبه له الملك في خزانة أمواله، أما أعظمها دهاءً فهو أنه أسكر الحراس وسرق الجثة منهم، فما إن صرح بهذا حتى امتدت إليه يد الفتاة لتُمسِك به، بَيْد أن ذلك اللص انتهز فرصة الظلام وقدَّم لها يد الجثة، فظنتها يده فتشبثت بها، بينما هَرَب اللص من الباب.

عندما عَلِم الملك بالنجاح الجديد الذي أحرزه ذلك اللص دُهِش لدهاء وجرأة هذا الرجل، فبَعَث رسلًا إلى جميع مدن مملكته ليعلنوا العفو الشامل عن اللص، والوعد بمنحه مكافأة سخية إذا حضر من تلقاء نفسه، وأعلن عن شخصيته. فتمسك اللص بوعد الملك

وذهب إليه في كل جرأة، فأُعجِب به رامبسينيتوس أيما إعجاب، ونظر إليه نظرته إلى أحكم شخصية في مملكته كلها، وزوَّجه ابنته قائلًا: «يتفوق المصريون على جميع العالم في حكمتهم، أما هذا الرجل فقد تفوق على سائر غيره من المصريين.»

هذه هي القصص التي يرويها المصريون لتكون تاريخًا لهم. أما من جهتي أنا شخصيًّا فأزمع أن أكتب بإخلاص في جميع مؤلفي تراث مختلف الأمم، ويُصِر المصريون على أن كيريس وباخوص موجودان في المملكة السُّفلى، كذلك كان المصريون أول مَن اعتقدوا بأن الروح خالدة، وعندما يموت جسد الإنسان تتقمص روحه صورة حيوان يُولد في نفس لحظة الموت، وبهذا تمر الروح من حيوان إلى آخر حتى تدور على جميع صور المخلوقات التي تسكن الأرض والماء والهواء، ثم تعود ثانية إلى هيكل بشري حيث تولد من جديد. وتستغرق فترة الهجرة والتنقل هذه (كما يقولون) مدة ثلاثة آلاف سنة. وهناك بعض الكُتَّاب الأغارقة بعضهم قُدامى وبعضهم محدثون اقتبسوا هذا المذهب من المصريين ونسبوه لأنفسهم، وبوسعي أن أذكر أسماءهم غير أنني أترفع عن هذا.

الفصل السابع عشر

الأهرامات

قال الكهنة: ظلت مصر تُحكَم حُكمًا صالحًا حتى عصر رامبسينيتوس، وازدهرت في أيامه ازدهارًا عظيمًا. ولكن ارتقى العرش بعده خوفو الذي انغمس في كل صنوف الشرور، فأغلق المعابد، وحرَّم على المصريين تقديم القرابين للآلهة، وأجبرهم بدلًا من هذا على أن يعملوا جميعًا في خدمته، فكان على بعضهم أن ينقلوا كتلًا من الصخر إلى شاطئ النيل من المحاجر الكائنة في سلسلة التلال الغربية، وآخرون يتسلمون تلك الكتل بعد نقلها في السفن عبر النهر، وينقلونها إلى سلسلة التلال الليبية. وكان يشتغل في هذا العمل باستمرار مائة ألف رجل يُستَبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر. وقد استمر تسخير الشعب عشر سنوات في عمل طريق مرتفع[١] لنقل الأحجار. وفي رأيي أن هذا العمل لا يقل مشقةً عن بناء الهرم نفسه. طول هذا الطريق خمسة فورلنجات، وعرضه عشرة فاثومات (الفورلنج كما عَلِمنا = ١ / ٥ ميل، والفاثوم = ٦ أقدام)، ويَبلُغ أقصى ارتفاع له ثمانية فاثومات. وقد بُنِي من الصخر المنحوت المصقول، ومُلِئ سطحه بتماثيل الحيوانات، واستغرق بناؤه كما سبق أن أوضحت عشر سنوات، أو بالحرى لعمل المصطبة التي يقوم عليها الهرم والحجرات الواقعة تحت الأرض التي أزمع خوفو أن تكون خزائن لاستعماله الخاص. وقد بُنِيَت هذه الأخيرة على قطعة من الأرض تُشبِه الجزيرة، يُحِيط بها الماء المجلوب من النيل بواسطة قناة.[٢] وقد استغرق بناء الهرم نفسه عشرين سنة. وقاعدته مربعة الشكل،

[١] لا تزال توجد بقايا طريقين مرتفعين؛ الطريق الشمالي وهو أكبرهما، يتجه نحو الهرم الأكبر، أما الطريق الآخر فيتجه نحو الهرم الثالث.

[٢] لا يوجد أثر يدل على أنه كانت هناك قناة، ولا أي احتمال لوجودها وقتذاك.

طول كل من أضلاعها ثمانمائة قدم، أما ارتفاعه فيساوي طول قاعدته،[٣] وهو مبني كله من الحجر المنحوت المُسوَّى. وطوبقت الأحجار على بعضها بمنتهى الدقة، ولا يقل طول أي حجر استُخدِم في بناء ذلك الهرم عن ثلاثين قدمًا.[٤]

بُنِي الهرم أولًا مُدرجًا،[٥] أو في صورة الأبراج كما يسمونها، أو كما يُسَمِّيها آخرون «في صورة المعابد»؛ فبعد أن وضعوا أحجار القاعدة رفعوا الأحجار الباقية إلى أماكنها بواسطة آلات صُنِعَت من ألواح خشبية قصيرة، فرفعتها الآلة الأولى من الأرض إلى قمة المصطبة الأولى، ثم وُضِعت آلة أخرى على هذه المصطبة لتلتقي الأحجار عند وصولها، ثم ترفعها بدورها إلى المصطبة الثانية؛ حيث تَنقلهَا آلة ثالثة إلى المصطبة التي فوقها. ولست أعرف بالضبط ما إذا كان لديهم عدد من الآلات بعدد المصاطب التي يتكون منها الهرم، أو كانت لديهم آلة واحدة يمكن نقلُها بسهولة من مصطبة إلى أخرى عند رفع الأحجار، ولذا فإني أذكر هنا كلًّا من الروايتين. وقد أكملوا الجزء الأعلى من الهرم أولًا، ثم الجزء الأوسط، ثم في النهاية أكملوا الجزء الأسفل القريب من الأرض. وقد نُقِشَت على الهرم كتابة بالحروف المصرية تسجل كميات الفجل والبصل والثوم التي أكلها العمال الذين شيدوه. وإني لأتذكر جيدًا أن المُترجم الذي قرأ الكتابة لي قال إن الأموال التي أُنفِقَت في بناء الهرم بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة، فإذا كانت هذه الأرقام صحيحة فما أعظم المبالغ التي لا بُدَّ أن تكون قد أُنفِقَت في تغذية وكِسوة العمال، مع اعتبار المدة الطويلة

[٣] كانت أبعاد الهرم الأكبر ٧٥٦ قدمًا لكل ضلع من أضلاع القاعدة، ولكنها نقصت بعد ذلك إلى ٧٣٢ قدمًا، وكان ارتفاعه الأصلي ٤٨٠ قدمًا وتسع بوصات، فصارت الآن ٤٦٠ قدمًا وتسع بوصات. وزوايا ميل الأضلاع على القاعدة ٥٠–٥١ درجة، وزاوية رأسه ٢٠–٧٦°. وكان يشغل مساحة قدرها ٥٧١٥٣٦ قدمًا مربعةً فصار الآن يشغل ٥٣٥٨٢٤ قدمًا مربعة. أما المقاسات التي ذكرها هيرودوت، أي ٨٠٠ قدم لكل ضلع، فليست بعيدة عن الحقيقة كرقم مُقَرب إلى أقرب مائة. أما الارتفاع الذي ذكر أنه مثل طول الضلع فبعيد تمامًا عن الرقم الصحيح.

[٤] تختلف أحجام الأحجار، ويشير هيرودوت بهذا إلى أحجار الطبقة الخارجية التي اندثرت الآن.

[٥] أوجه الدرجات أو المصاطب المتعاقبة عمودية تقريبًا، أو ذات زاوية تقرب من ٧٥° والمسافة المثلثة التي تكوِّنها كل منها تبرز إلى مسافة كبيرة أسفل المصطبة التي فوقها مباشرة. وقد مُلِئَت هذه المسافة بعد تمام البناء لتُكمِل الشكل العام للهرم. إنها لمسألة غريبة إن كان المصريون قد أحضروا معهم فكرة الهرم أو أكوام القبور عندما هاجروا إلى وادي النيل، أو إذا كانت قد نشأت بنفس الفكرة التي تُشد بها أبراج آشور من عدة مصاطب، أو بنفس فكرة بناء معابد الهند.

التي استغرقها هذا العمل والتي سبق أن ذكرتها، والوقت الإضافي — وليس هو بالمدة البسيطة على ما أعتقد — الذي أُنفِقَ في قَطع الأحجار من المحاجر، وفي نقلها، وفي بناء الحجرات التي شيدت تحت الأرض.

بلغت شرور خوفو مبلغًا عظيمًا لدرجة أنه عندما أنفق كل ما في خزائنه من أموال واحتاج إلى المزيد أرسل ابنته إلى مواخير البغاء العامة لكي تحصل له على مبلغ معين، أما مقدار ذلك المبلغ فلا أعرفه؛ إذ لم يخبرني به أحد. فجاءت له ابنته بهذا المبلغ، ولكنها صممت في الوقت نفسه على أن تترك أثرًا يُخَلِّد ذكراها؛ ففرضت على كل رجل أن يُقَدِّم لها حجرًا هدية حتى تُتِم العمل الذي أزمعت القيام به، وبَنَت بهذه الأحجار هرمًا هو الموجود بين الهرمين الآخرين أمام الهرم الأكبر. يبلغ طول كل من أضلاعه مائة وخمسين قدمًا.

يقول المصريون إن خوفو حكم مدة خمسين سنة، ثم خلفه على العرش أخوه خفرع.

سار خفرع على نفس خُلُق سلفه، وبنى هرمًا مثله، ولو أنه لم يصل إلى ضخامة هرم أخيه. وإنني لعلى يقين من هذا؛ لأنني قِستُ أبعادهما بنفسي.[٦] وليس لهذا الهرم الثاني حُجرات تحت الأرض، ولا تتصل به أية قناة لتَجلِب له المياه من النيل كما هو الحال في الهرم الأكبر؛ إذ يجري الماء إلى هذا الأخير في مجرًى يُحِيط بجزيرة حيث يَرقُد جسد خوفو كما يقولون. وقد بنى خفرع هرمه بجانب هرم خوفو وبنفس الأبعاد مع استثناء أنه خَفَّض ارتفاعه أربعين قدمًا، واستخدم في بناء قاعدته أحجار إثيوبيا المتعددة الألوان. ويقع هذان الهرمان على تل واحد في مستوًى لا يَقِل ارتفاعه عن مائة قدم. وظل خفرع في الحُكم مدة ست وخمسين سنة.

هكذا قاسى المصريون العذاب مدة مائة وست سنوات أُغلِقت خلالها المعابد، ولم تُفتَح إطلاقًا؛ ولهذا يكره المصريون ذكرى هذين الملكين ولا يُحبون حتى ذِكر اسميهما، وهذا هو السبب في أنهم يُسمون الأهرام باسم فيليتون Philiton أحد الرعاة الذي كان يرعى قطعانه حول ذلك المكان.

---

[٦] أبعاد الهرم الثاني هي: طول القاعدة الحالية ٦٩٠ قدمًا، وطول القاعدة السابقة (تبعًا للكولونيل هوارد فيز Howard vyse) ٧٠٧ أقدام وتسع بوصات، وارتفاعه العمودي الحالي (بحساب الزاوية ٢٠–٥٢°) هو ٤٦٠ قدمًا وتسع بوصات، وارتفاعه السابق ٤٥٤ قدمًا وثلاث بوصات، ويَظُن هيرودوت أن ارتفاعه يقل أربعين قدمًا عن ارتفاع الهرم الأكبر، غير أن الفرق الحقيقي هو ٢٤ قدمًا وست بوصات. ومن الغريب ألا يُلاحظ هيرودوت أبا الهول الذي صُنِع على الأقل في عهد الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ يحمل اسم تحتمس الرابع.

الفصل الثامن عشر

بعض الأساطير المصرية

يقولون، لما مات خفرع ارتقى العرش بعده موكيرينوس بن خوفو، وكان هذا الملك يمتعض من سلوك أبيه فأعاد فتح المعابد وسمح للشعب الذي وصل إلى أقصى درجات البؤس والفاقة بأن يعود إلى أعماله ويستأنف تقديم الذبائح. أما إقامته العدل في القضاء فبذَّ فيه كل من سبقوه من الملوك؛ لذلك يُثنِي عليه المصريون بأكثر مما يُثنُون على أي ملك آخر، مقررين أنه لا يحكم بالعدل فحسب، بل وإذا تظلم أي فرد من الحكم في قضيتِه عوَّضه الملك من جيبه الخاص. وهكذا يُرضِيه ولا يجعل أحدًا يتذمر من حكمه. وبينما كان موكيرينوس يُوطِّد أركان العدل في مملكته بالطيبة والرحمة، نالت منه المصائب كل منال: فأولًا ماتت ابنته التي كانت ذريته الوحيدة، وإذ حزن على موتها حزنًا بالغًا أراد أن يَدفِنها بطريقة فذة، فأمر بِصُنع بقرة من الخشب، وبعد تفريغ جوفِها كساها كلها بالذهب، ثم وضع جثة ابنته في ذلك القبر الطريف.

لم توضع تلك البقرة تحت أطباق الثرى، وإنما بقيت فوق سطح الأرض ليراها كل فرد في جميع العصور حتى عصري. كانت تحتل حجرة فاخرة الأثاث في القصر الملكي بمدينة سايس Sois، وكانت تُحرَق أمامها كل يوم جميع أنواع العطور، ويُضيء في حجرتها مصباح ليلًا ونهارًا. ووضعت في حجرة مجاورة عدة تماثيل، قرر كهنة سايس أنها تمثل محظيات موكيرينوس. إنها حوالي عشرين تمثالًا ضخمًا من الخشب عارية الأجسام، ولستُ أعرف على وجه التحديد الأشخاص الذين تُمَثلهم هذه التماثيل، وإنما أكرر هنا ما أخبروني به.

هناك رواية أخرى عن هذه التماثيل الضخمة والبقرة الخشبية: «كان موكيرينوس متيمًا بحب ابنته فاغتصبها بالقوة، فحزَّ هذا في نفس الفتاة فشنقت نفسها، فدفنها موكيرينوس في تلك البقرة، ولما علمت أمها بجلية الأمر قطعت أيدي جميعِ خادماتِ

مخدعِها؛ لأنهن انحزن إلى جانب الملك وغدرن بالفتاة. ولهذا لم تكن لتماثيل أولئك الخادمات أيدٍ.» أما أنا شخصيًّا فأعتقد أن كل هذه الروايات محض خرافات، ولا سيما ما قيل عن أيدي التماثيل، وكل ما أعتقد بصحته هو أن التماثيل فقدت أيديها بمرور الزمن الطويل، وقعت تلك الأيدي من التماثيل، ولا تزال حتى اليوم مُلقاةً تحت أقدامها.

أما البقرة فيحجب الجزء الأكبر من جسمها غطاء أحمر، ولا يظهر منها غير رأسها وعنقها، وهما مكسوان بطبقة كثيفة من الذهب، وبين قرنيها صورة من الذهب أيضًا تمثل قرص الشمس. وليس تمثال البقرة هذا واقفًا على قوائم، بل يمثلها راقدة وقد ثنت أرجلها تحت جسمها. إنها في نفس حجم بقرة حقيقية ضخمة. وفي كل سنة تُنقَل هذه البقرة من موضعها وتُعرَّض لضوء النهار، يحدث هذا في الموسم الذي يَلطم فيه المصريون أنفسهم تكريمًا لأحد آلهتهم، الذي أكف عن ذكر اسمه فيما يختص بهذا الأمر.[1] فيُقَال إن الفتاة طلبت من والدها في آخر لحظات حياتها أن يَسمَح لها بأن ترى الشمس مرة في كل عام.

بعد موت هذه الابنة أصيب موكيرينوس بكارثة أخرى سأرويها هنا الآن: بَلَغَت هذا الملك نبوءة من مدينة بوتو تقول: «لن تعيش على الأرض إلا ست سنوات فحسب، وستموت في السنة السابعة.» فغضب موكيرينوس وبعث إلى الوحي برسالة مهينة يزجر فيها إلهه على عدم إنصافه، فقال فيها: «على الرغم من أن أبي وعمي قد أغلقَا المعابد ولم يكترثَا للآلهة، وأهلكا آلافًا من الشعب، فقد تمتَّعَا بحياة طويلة. أما أنا الرجل البار التَّقي فسأموت سريعًا.» فرد عليه الوحي بقوله: «لهذا السبب ستنتهي حياتك بسرعة؛ لم تعمل ما كان يليق بك أن تعمل. كان مُقدَّرًا لمصر أن تُعاني العذاب مائة وخمسين سنة. أدرَك الملكان اللذان سبقاك على العرش هذا الأمر، أما أنت فلم تدركه.» وعندما تلقى موكيرينوس هذه الرسالة أيقن أن مصيره قد تحدد، فأمر بإعداد المصابيح التي كان يُضِيئها في مساء كل يوم؛ ليولم ويستمتع بالملذات ليلًا ونهارًا، يتنقل بين أراضي الريف والغابات، ويزور كل مكان يسمع عن شهرته السياحية. كان كل قصده أن يُبَرهِن على كذب الوحي بأن يُحِيل الليل إلى نهار، وبذا يعيش اثني عشر عامًا في فترة ست سنوات.

كذلك ترك موكيرينوس هرمًا في حجم هرم والده، ذا قاعدة مربعة يقل طولها عشرين قدمًا عن الثلاثمائة قدم. وقد بُنِي الهرم إلى نصف ارتفاعه من أحجار إثيوبيا. وينسبه

[1] إنه أوزيريس.

بعض الأغارقة إلى المومس رودوبيس، بَيْد أن هذا خطأ. يبدو لي أن أولئك الناس لم يعرفوا من هي رودوبيس وإلا لما نسبوا إليها عملًا يتطلب نفقات باهظة. كانت رودوبيس تعيش في عصر أماسيس وليس في عصر موكيرينوس، وعلى هذا تكون من عصر لاحق لعصر بناة الأهرام بسنوات عدة. إنها تراقية المولد، كانت عبدة يملكها إيادمون بن هيفايستوبوليس السامي. وكان إيسوب كاتب الأساطير الخرافية عبدًا زميلًا لها. وهناك عدة أدلة على أن إيسوب كان يملكه إيادمون، فعندما أعلن أهل دلفي — طاعةً لأمر الوحي — أن يتقدم من له الحق في المطالبة بالفدية عن مقتل إيسوب، تقدم إيادمون حفيد إيادمون الأول، وتسلم الفدية؛ إذن فلا بد أن كان إيسوب عبدًا يملكه إيادمون الجد.

حضرت رودوبيس إلى مصر لتقوم بمهمتها تحت إمرة كسانثوس السامي، غير أنها نالت حريتها نظير مبلغ ضخم من المال دفعه خاراكسوس الميتيليني بن سكاماندرونوموس وشقيق الشاعرة صافو.[٢] وبعد أن استعادت حريتها بهذه الطريقة بقيت في مصر. ولما كانت فائقة الجمال جمعت ثروة طائلة بالنسبة لسيدة في حالتها، ومع ذلك، فلم تكن لتُمكنها من إقامة عمل ضخم مثل ذلك الهرم. وكل من أراد أن يتحقق من هذا، فليذهب ويشاهد ١ / ١٠ ثروتها. عندئذٍ يُدرِك أنه يجب على المرء ألا يتصور ثروتها بتلك الضخامة الغريبة. فلما كانت هذه السيدة ترغب في أن تترك أثرًا يُخلِّد ذكراها في بلاد الإغريق، أصرت على أن تصنع شيئًا لا يوجد مثله في أي معبد، وتقدمه إلى معبد دلفي. وعلى هذا أخذت عُشر ثروتها واشترت به كمية من الأسياخ الحديدية كالسفافيد المستعملة في شواء الثيران كاملة، وقدمتها للوحي. ولا تزال هذه الأسياخ هناك مكومة خلف المذبح الذي أقامه الخائيون Chians قبالة المعبد. ويبدو أن ناوكراتيس هي المدينة التي تكون بها أمثال هذه السيدة في غاية الفتنة والإغراء؛ فأولًا كانت بها رودوبيس هذه التي تكلمنا عنها، وقد طبقت شهرتها جميع الآفاق، حتى ليجري ذِكر اسمها على ألسنة جميع الأغارقة. ثم أرخيديكي الشهيرة في جميع أرجاء بلاد الإغريق، ولو أنهم لا يتحدثون عنها كثيرًا مثل سابقتها. وبعد أن دفع خاراكسوس فدية رودوبيس عاد إلى ميتيليني. وكثيرًا ما ألهبته صافو بشعرها. أظن أننا قلنا ما فيه الكفاية عن هذه الظاهرة.

---

[٢] كان خاراكسوس شقيق صافو يُتاجر في خمور لسبوس التي كان يحملها إلى ناوكراتيس مركز جميع التجارة الواردة لبلاد الإغريق.

قيل لي: إن الملك التالي لهذا العاهل كان كاهنًا من كهنة فولكان يُدعى سيثوس، فلما تولى الحكم أهمل طبقة المحاربين المصريين، واحتقرهم كما لو كان في غنًى عن خدماتهم، فنزع منهم الأراضي التي امتلكوها إبان حكم الملوك السابقين، وقدرها اثنا عشر فدانًا من أجود الأرض لكل محارب. بعد ذلك عندما سار الملك ساناخاريب ملك العرب[٣] والآشوريين بجيشه الضخم إلى مصر رفض المحاربون جميعًا أن يَهُبوا لمساعدته، فأحس ذلك الملك بخيبة الأمل، وإذ نجعه الحزن العميق انطلق إلى المعبد الداخلي، وأخذ يَندُب أمام تمثال الرب تلك الكارثة التي حاقت به، وبينما هو يبكي غلبه النعاس فنام، فرأى في حلم أن الرب أتى إليه ووقف إلى جانبه وأمره بأن يتخلى عن غضبه ويبتهج، وأن يذهب بكل جرأة لملاقاة الجيش العربي الذي لن يُلحِق به أي أذًى؛ لأنه سيُرسِل هو بنفسه من يجب أن يساعدوه. فما إن صحا سيثوس من نومه حتى تشجع بهذا الحلم، فجمع بعض المصريين الراغبين في أن يتبعوه، ولم يكن بينهم أي محارب قط، بل كانوا جميعًا من التجار وأرباب الحرف ورجال الأسواق. فسار بهؤلاء الجموع إلى بيلوسيوم المُشرِفة على مدخل مصر حيث أقام معسكره. وبينما كان كل من المعسكرين أمام الآخر جاءت في بهيم الليل أسراب من فيران الحقول وأخذت تقرض جميع جعبات الأعداء وأوتار قِسِيِّهم، كما أكلت السيور الجلدية التي يتناول جنود العدو بها تروسهم. فلما أصبح الصباح ورأى الأعداء ما حل بهم أطلقوا العنان لأقدامهم هاربين. وهكذا هُزِمت تلك الجموع الغفيرة لعدم وجود الأسلحة التي يدافعون بها عن أنفسهم. وإلى هذا اليوم، يقوم أمام معبد فولكان تمثال للملك سيثوس، يُمسِك فأرًا في يده[٤] وقد نُقِش على التمثال عبارة تقول: «انظر إليَّ وتعلم تبجيل الآلهة.»

---

[٣] من الغريب أن نجد ساناخاريب يُسمى هنا «ملك العرب والآشوريين»، ويبدو أن ترتيب الألفاظ هنا يجعله ملكًا عربيًّا أكثر منه آشوريًّا. وبنفس الروح يطلق على جيشه بعد ذلك اسم «الجيش العربي». ومن المستحيل قطعًا أن نُدافع عن وجهة نظر هيرودوت هذه؛ إذا تذكرنا كيف اختلط العرب بالأجناس الأخرى في أرض الجزيرة (ميزوبوتاميا) السفلى، ومقدار النفوذ البالغ الذي يسيطر به الملك الآشوري العظيم على قبائل الصحراء، ولا سيما من يُقِيم منهم على حدود أرض الجزيرة. ومن شأن الصلة في العادات والتقاليد بين هذين الجنسين الساميين العظيمين أن يَسهُل الاتحاد بينهما نسبيًّا؛ ولذا نجد ملوكًا من العرب يُسيطرون على آشور لزمنٍ ما، بينما يحدث العكس في زمن آخر فيسيطر ملك من آشور على عدد كبير من القبائل العربية.

[٤] إن كان القوم يُبجِّلون الفئران في ممفيس فربما نشأ هذا التبجيل لسبب آخر. كانت الفئران شعارًا لعناصر التكاثر، وربما لعناصر الإنتاج أيضًا. وكان البعض يعتقد أنها ذات قدرة على التنبؤ (وهذه صفة

تناولت في الأبواب السابقة الكلام عن سلطة المصريين وعن كهنتهم، ويُقرِّر أولئك القوم أن الفترة ما بين أول ملوكهم وهذا الملك الذي تَحدثتُ عنه أخيرًا، وهو كاهن فولكان، تبلغ ثلاثمائة وواحدًا وأربعين جيلًا. ويقولون إن هذا العدد نفسه يُمَثِّل عدد كلٍّ من ملوكهم وعظماء كهنتهم خلال هذه الحقبة الزمنية.

يُقال إن عصر أماسيس كان أزهر عصر رأته مصر.[٥] كان النهر يجري إلى الأراضي في حرية أكثر، وأثمرت الأرض محصولًا وفيرًا انتفع به السكان أكثر مما سبق أن عُرِف قبل ذلك، وكان عدد المدن المأهولة بالسكان لا يقل عن عشرين ألفًا، وكان الملك أماسيس هذا هو الذي وضع قانونًا يُحَتِّم على كل مصري أن يَمثُل مرة في كل عام أمام حاكم منطقته،[٦] ويُقدِّم له تقريرًا عن وسائل معيشته، أما إذا لم يفعل هذا، أو لم يستطع إثبات أنه يعيش من السُّبُل المشروعة حُكِم عليه بالإعدام (إنه أشبه بقانون من أين لك هذا؟) وقد استعار صولون الأثيني هذا القانون من مصر وفرضه على مواطنيه الذين ظلوا يعملون به منذ عهده. إنه، والحقُّ يُقَال، عادة رائعة.

عقد أماسيس معاهدة صداقة وتحالف مع الكورينيين صارت مصر بمُقتَضَاها صديقة وحليفة للولاية الإغريقية كوريني. كما أنه تزوج امرأة من تلك الولاية، وكان قصده من هذا إما أن يكون ذلك الزواج عنوان الشعور بالصداقة، أو أن أماسيس كان يتوق إلى الزواج بسيدة إغريقية. وعلى أية حال مهما كان قصده فمن المؤكد أنه تزوج بامرأة من كوريني تُدعى لاديكي Ladice. وعندما حان موعد إتمام المعاهدة أُصيب أماسيس بالضعف. وإذ أدهشه هذا — لأنه لم يتعود ذلك من قبل — قال لزوجته «أيتها المرأة، لقد سحرتني حقًّا، فتأكدي إذن أنك ستموتين مِيتَةً أشد بؤسًا من مِيتَة أي امرأة قبلك.» فاحتجت لاديكي وأصرت على براءتها مما نَسَبه إليها، بَيْد أن هذا لم يُجدِها نفعًا، فلم تَلِن قناة أماسيس، وعندئذٍ نذرت لاديكي في نفسها إن عاد أماسيس إلى صوابه في

لا تزال تُنْسَب إلى الفئران حتى الآن بدرجة ما في مناسبات معينة). ويبدو أن أهل ترواس يُبجِّلون الفيران «لأنها قرضت أوتار الأعداء»، وكان المصريون ينقشون صورة أبولو، الذي كان يُسَمى سمينثيوس (من ٥ × بمعنى فأر)، على نقود الإسكندرية ممسكًا فأرًا في يده.

[٥] لا ينطبق هذا إلا على الشئون الداخلية للبلاد. ويدل ما كتبه هيرودوت بعد ذلك على أن هذا هو ما يقصده.

[٦] كان يحكم كل منطقة أو مديرية حاكم خاص.

خلال ذلك اليوم (إذ لم يسمح لها بوقت أكثر من يوم)، أن تُقَدِّم تمثالًا لمعبد فينوس في كوريني. وعند ذلك نالت بغيتها في الحال، فزال عن الملك ضعفه. ومنذ هذا الحدث أحبها أماسيس حبًّا جمًّا، وأوفت لاديكي بنذرها. أما التمثال الذي أمرت بصنعه وإرساله إلى كوريني فلا يَزَال هناك إلى عصري. وعندما غَزَا قمبيز مصر، لم يُصِب لاديكي أيُّ أذًى؛ إذ لما عَلِم منها حقيقة جنسيتها بعثها إلى وطنها، ولم يَمسها بسوء.

الفصل التاسع عشر

قمبيز

قام قمبيز بن كوروس بحملته على مصر أيام حكم ملكها أماسيس. فسار إليه بجيش يضم الأمم العديدة الذين أخضعهم لحكمه، ومن بينهم الأغارقة الأيونيون والأيوليون، وكان السبب في هذا الغزو هو حنق أحد المصريين على أماسيس؛ لأنه أبعده عن زوجته وأولاده وأرسله إلى فارس. فأوعز هذا الرجل الغاضب إلى قمبيز بأن يتزوج ابنة أماسيس. فأرسل قمبيز رسولًا إلى أماسيس يطلب يد ابنته. كان هذا الرجل الذي أوعز بهذا إلى قمبيز، طبيبًا بعث به أماسيس إلى الفرس، فعندما طلب كوروس من أماسيس أن يُرسِل إليه أبرع طبيب عيون بين جميع الأطباء المصريين. اختار أماسيس هذا الطبيب، ولذا حقد على أماسيس. وكان يقصد من حَثِّه قمبيز على الزواج من ابنة الملك أنه إذا وافق أماسيس فقد تغدو هذه الموافقة سببًا في نكده، وإن رفض فقد يصبح الرفض مدعاة لعداوة قمبيز له. فلما جاءت رسالة قمبيز إلى أماسيس الذي كان يرهب قوة الفرس أبلغ رهبة، حار في أمره ولم يدرِ ماذا يفعل؛ هل يزوج قمبيز ابنته، أو يرفض طلبه؛ لأن قمبيز لم يكن راغبًا حقًّا في أن يتخذها زوجته بل مجرد محظية له، وكان أماسيس على يقين من هذا. وعلى ذلك أخذ يُقَلِّب الأمر في ذهنه، حتى استقر أخيرًا على رأي. كانت هناك فتاة تدعى نيتيتيس ابنة الملك السابق إبريس، وكانت فارعة الطول على قدر وافر من الفتنة والجمال، كما كانت آخر من بقي على قيد الحياة من تلك الأسرة الملكية. فأخذ أماسيس هذه الفتاة وحَمَّلَهَا بالذهب والثياب الفاخرة، وأرسلها إلى فارس كما لو كانت ابنته حقًّا ... بعد ذلك بوقتٍ ما تصادَف بينما كان قمبيز يُقبِّل هذه الغادة الحسناء أن ناداها باسم أبيها، فما كان منها إلا أن قالت له: «أرى أيها الملك، أنك لا تعترف أن أماسيس قد خدعك؛ إذ أخذني واحتال عليَّ وأغراني بالآمال الخلابة، وأرسلني إليك على أنني ابنته، ولكنني في الحقيقة ابنة أبريس الذي كان ملكه وسيده، فتمرد عليه أماسيس هو وبقية المصريين

وقتله ...» فلما سمع قمبيز بن كوروس منها هذا الكلام ثارت ثائرته، فسار على رأس قواته لغزو مصر. هذه هي الرواية الفارسية.

هناك مسألة بالغة الأهمية سهلت القيام بالحملة، كان بجيش أماسيس جُندي مُرتزق يدعى فانيس، هاليكارناسي الأصل، وكان رجلًا صائب الرأي، ومحاربًا مجيدًا. ولما حقد على سيده لسببٍ ما هجر خدمته وركب سفينة وهرب بها إلى قمبيز رغبة في التحدث إليه. وإذ كان رجلًا عالي المنزلة في جيش المرتزقة، ويستطيع إفشاء معلومات صحيحة عن مصر، أصر أماسيس على استعادته، فأمر بمطاردته، وعَهِد بهذه المهمة إلى أحد رؤساء الجيش الذين يثق بهم كل الثقة، فركب هذا سفينة حربية وجَدَّ في السير مُطاردًا ذلك الهاليكارناسي، فأمسك به في لوكيا، بَيْد أنه لم يستطع إحضاره إلى مصر؛ إذ كان فانيس أشد منه دهاءً وحيلة؛ لأنه أَسكَر حراسه ثم هرب إلى فارس. وحدث أن كان قمبيز يُفَكِّر وقتئذٍ في الهجوم على مصر، ولكنه كان مترددًا لعدم معرفته كيف يجتاز الصحراء فلما وصل إليه فانيس، لم يُخبِره بأسرار أماسيس فحسب، بل وأمده بمعلومات عن كيفية عبور الصحراء، وأشار عليه بأن يُوفِد سفيرًا من قبله إلى ملك العرب، ويطلب منه أن يَسلك حياله مسلكًا وديًّا وهو يعبر تلك المنطقة.

كان على قمبيز أن يعبر الطريق الممتد بين جينيكوس من جهة، وبحيرة سيربونيس وجبل كاسيوس من جهة أخرى وهذه مسافة لا يُستَهان بها؛ إذ تبلغ مسيرة ثلاثة أيام، والطريق عبارة عن صحراء قاحلة لا ترى بها قطرة ماء.

سأذكر الآن أمرًا لا يعرفه ممن يبحرون إلى مصر غير قليلين. تُرسَل الخمر إلى مصر مرتين في كل عام من بلاد الإغريق ومن فينيقيا، في قدور من الفخار، ومع ذلك فلا يمكنك أن ترى قدرًا واحدة من هذه القدور في أي مكان بتلك المملكة كلها، ولا بد أن يسأل كل إنسان: إلى أين تذهب كل هذه الجِرار؟ سأوضح لك هذا أيضًا. يتحتم على حاكم كل منطقة أن ينقل تلك الجِرار إلى ممفيس حيث يملؤها الممفيسيون بالماء ويحملونها إلى هذا الطريق السوري. وعلى هذا فإن جميع القدور التي تدخل مصر في كل عام وتباع فيها تجد طريقها إلى سوريا، حيث تذهب الجرار السابقة لها.

بدأ الفرس يُحافِظون على جعل الطريق الموصل إلى مصر صالحًا للمرور بتخزين الماء فيه بمجرد أن صاروا سادة هذه البلاد، غير أن الطريق إليها لم يكن به ماء في الوقت الذي نحن بصدده. فعَمل قمبيز بمشورة ذلك الضيف الهاليكارناسي، فبعث رسلًا إلى الملك العربي يرجوه ألا يتعرض له بسوء وهو يمر بتلك المنطقة، فأجاب الملك العربي رجاءه، ووثق كل منهما بالآخر.

يفي العرب بمثل هذه العهود أكثر مما يفي بها أي شعب آخر. فعندما يحلف رجلان يمين الصداقة يقف كل منهما إلى جانب رجل ثالث، فيُمسِك هذا الأخير بحجر حاد الطرف، ويُحدِث به جرحًا في يد كل منهما قُرب إصبعه الوسطى، ثم يأخذ قطعة من ثيابهما ويغمسها في دم كل منهما، ويبلل بالدم سبعة أحجار موضوعة على الأرض بينهما، وفي أثناء ذلك ينادي: ياخوص ويورانيا وبهذا يبدأ عهد الصداقة بينهما. وإذا قدم الرجل الذي قام بهذا العهد رجلًا أجنبيًّا (أو مواطنًا، إن كان مواطنًا) إلى جميع أصدقائه، اعتبروا أنفسهم مُلزَمِين بالوفاء له.

ولهذا السبب، عندما وعد الملك العربي رسل قمبيز قام من فوره بعمل ما يأتي: صنع عددًا من القِرَب من جلود بعض إبله، وملأها بالماء، ثم حمل هذه القِرب على ظهور الإبل الحية الباقية مما يملكه، وقادها إلى الصحراء حيث بَقي هناك ينتظر مجيء جيش قمبيز. وهذا هو عين ما يَنتَظِر أن يحدث تبعًا للروايتين اللتين رُوِيَتا. أما الرواية الثانية فغير محتملة التصديق، ولكنها ما دامت قِيلَت فمن الواجب أن أذكرها. يوجد نهر كبير في بلاد العرب يُسمَّى نهر كوروس يصب في الخليج الفارسي. يقولون إن ملك العرب صنع أنابيب من جلود الثيران والحيوانات الأخرى، ومدَّها على طول الطريق من هذا النهر إلى الصحراء، وبذا جلب الماء إلى خزانات حفرها في الصحراء حيث تُحفَظ. وتبلغ المسافة من النهر إلى طريق الصحراء مسيرة اثنَي عشر يومًا. ويقولون إن الماء كان يجري داخل ثلاث أنابيب إلى ثلاثة أماكن مختلفة.

عسكر بساميتيخوس بن أماسيس عند مصب نهر النيل المسمى بيلوسياك في انتظار قمبيز؛ إذ عندما ذهب قمبيز إلى مصر لم يجد أماسيس على قيد الحياة. لقد مات بعد أن حكم مصر مدة أربع وأربعين سنة، لم يُصَب خلالها بأي مكروه بليغ، وعندما مات حُنِّطَت جثته، ودُفِنَت في القبر الذي أمر هو ببنائه في المعبد. وبعد أن جلس ابنه بساميتيخوس على العرش، حدثت ظاهرة غريبة في مصر، سقط المطر في طيبة المصرية، وهذا أمر لم يسبق أن حدث من قبل، ولم يتكرر حدوثه مرة ثانية حتى اليوم، كما يشهد بذلك أهل طيبة أنفسهم. والعادة ألا يسقط المطر في مصر العليا إطلاقًا، ولكنه نزل بطيبة في تلك المناسبة قطرات صغيرة.

اجتاز الفرس الصحراء وأقاموا معسكرهم بقرب المعسكر المصري، واستعدوا للمعركة. وكان الجنود المرتزقة الذين في خدمة بساميتيخوس، وهم من الأغارقة والكاريانيين ناقمين على فانيس بسبب إحضاره جيشًا أجنبيًّا لغزو مصر، وفكروا في طريقة ينتقمون بها منه. كان فانيس قد ترك أبناءه في مصر، فأخذهم الجنود المرتزقون

وذهبوا بهم إلى المعسكر وعرضوهم أمام عيني أبيهم. بعد ذلك أحضروا طستًا ووضعوه وسط الشقة الكائنة بين الجيشين، وقادوا أولاد فانيس إلى الطست واحدًا وراء آخر، وذبحوهم فوقه، وبعد أن ذبحوا آخر ولد صبوا ماءً وخمرًا في الطست ثم شَرِب كل جندي من دم أولئك الأبناء، وذهبوا إلى المعركة. كان القتال الذي تلا ذلك عنيفًا، ولم يتراجع المصريون ويفروا إلا بعد أن قُتِلت جموع كبيرة من كلا الفريقين.

رأيتُ ظاهرة في غاية الغرابة في الميدان الذي دارت فيه رحى المعركة، لفت نظري إليها الأهلون. توجد عظام القتلى مبعثرة في الميدان في موضعين، عظام جنود الفرس في مكان، وعظام المصريين في مكان آخر بعيد عن الأول، فإذا ضربت جمجمة فارسية ولو بحصاة أحدثت بها ثُقبًا؛ لأن جماجمهم ضعيفة، في حين أن جماجم المصريين قوية بحيث تستطيع أن تضربها بحجر فلا تكاد تنكسر. وقد ذكر الأهلون لي سبب هذا الاختلاف، وهو سبب يبدو معقولًا جدًّا. قالوا إن المصريين يحلقون رءوسهم منذ طفولتهم، وعلى هذا تتعرض جماجمهم لفعل الشمس فتصبح سميكة صلبة، ولنفس السبب لا يوجد الصلع في مصر؛ حيث عدد الصُّلع أقل من عددهم في أية دولة أخرى، وهذا هو السبب في أن جماجم المصريين قوية إلى تلك الدرجة. أما الفرس فجماجمهم ضعيفة؛ لأنهم يحجبونها عن ضوء الشمس منذ الصغر بلبس العمائم حول رءوسهم. ولقد رأيت بعينَي رأسِي ما أذكره هنا، وشاهدت مثله أيضًا في بابريميس في حالة الفرس الذين قتلوا مع أخايمينيس بن داريوس، على يد إيناروس الليبي.

ما إن أدار المصريون الذين قاتلوا في تلك المعركة ظهورهم للعدو حتى انطلقوا هاربين في غير نظام إلى ممفيس؛ حيث احتموا وراء الأسوار وأقفلوا الأبواب خلفهم. عندئذٍ أوفد قمبيز رسولًا فارسيًّا على ظهر سفينة ميتيلينية ليصل إلى ممفيس عن طريق النيل ويطلب من المصريين التسليم. فلما أبصر المصريون السفينة تدخل المدينة، انقضُّوا عليها من الحصن في جموع غفيرة وحطموها ومزقوا بحَّارتها إربًا، وهكذا نقلوهم إلى الحصن. بعد ذلك حوصرت ممفيس واستسلمت في الوقت المناسب، وعندئذٍ خاف الليبيون الذين على حدود مصر أن يُصِيبهم نفس المصير، فسلموا أنفسهم إلى قمبيز بغير قتال، وعقدوا معه اتفاقًا أن يدفعوا له الجزية. ومنذ ذلك الحين وهم يرسلون إليه الأموال. كذلك دبَّ الخوف في نفوس الكورينيين والباركيين كما حدث لليبيين، ففعلوا مثل ما فعل هؤلاء، فتقبل قمبيز أموال الليبيين بالشكر، ولكنه لم يتسلم أموال الكورينيين بنفس الروح. لم

يُرسِل له هؤلاء أكثر من خمسمائة ميناي[1] من الفضة، فاعتقد قمبيز، على ما أظن، أنه مبلغ ضئيل جدًّا، فخطف النقود من أيديهم وبعثرها بيديه وسط الجنود.

بعد سقوط الحصن بعشرة أيام عزم قمبيز على أن يختبر روح بساميتيخوس، الملك المصري الذي لم يستغرق حكمه سوى ستة شهور، فأمر بوضعه في إحدى الضواحي ومعه عدد كبير من المصريين الآخرين. حيث عرَّضه للإهانة. فأولًا: أرسل ابنة بساميتيخوس إلى خارج المدينة في ثياب أَمَةٍ تحمل جرَّة لتُحضِر الماء، وقد رافقتها كثيرات من العذارى بنات أعظم النبلاء، مُرتديات مثل ملابسها. فلما وصلت الفتيات إلى موضع قبالة المكان الذي كان يجلس فيه آباؤهن، وكُن يذرِفن الدموع ويُرسِلن صيحات الحزن والأسى، بكى جميع الآباء ما خلا بساميتيخوس؛ إذ رأوا بناتهم على تلك الحال من البؤس. أما بساميتيخوس فنظر إليهن وطأطأ رأسه إلى الأرض. مرت حاملات الماء على تلك الحال، ثم جاء خلفهن ابن بساميتيخوس ومعه ألفان من الشبان المصريين من مثل عمره — وقد رُبِطَت الحبال حول أعناقهم جميعًا ووضعت اللجم في أفواههم — ومر هؤلاء أيضًا ليُقتَلوا نظير مقتل الميتيلينيين الذين هلكوا مع سفينتهم في ممفيس؛ إذ هذا هو الحكم الذي أصدره القضاة الملكيون وهو: «يجب أن يموت عشرة من أنبل المصريين في مقابل كل رجل ميتيليني». أبصر الملك بساميتيخوس هذا الجمع يمر أمامه وعرف أن ابنه يُساق إلى الموت. في حين كان المصريون الآخرون حوله يبكون ويضطربون، لم تظهر عليه أية علامة تنم عن الحزن، زيادة عما بدا منه عندما رأى ابنته. وبعد أن مر هؤلاء أيضًا جاء أحد أصدقائه السابقين، وكان رجلًا تقدمت به السنون، وقد نُزِعَت عنه جميع أملاكه وصار متسوِّلًا. وعندما جاء إلى حيث يجلس بساميتيخوس بن أماسيس وبقية المصريين الآخرين، وكان ذلك الرجل يَستَجدي ويَمُد يده إلى الجنود يطلب صدقة، عندئذٍ لم يطق الملك المصري رؤية هذا المنظر حتى إنه انفجر يبكي بصوت مرتفع، ونادى صديقه باسمه، ولطم نفسه على رأسه.

كان هناك أشخاص مهمتهم أن يراقبوا انفعالات بساميتيخوس، ويلاحظوا ما سيفعله عند مرور كل جماعة. وعلى هذا انطلق أولئك الأشخاص ليُخبِروا قمبيز بما فعله بساميتيخوس. فدُهِش قمبيز لما حدث، وبعث رسولًا إلى بساميتيخوس يسأله: «يا بساميتيخوس! إن سيدك قمبيز يسألك، لماذا لم تصرخ ولم تبكِ عندما رأيت ابنتك

[1] إذا كان المقصود هو الميناي الأتيكي، كما هو المحتمل، فإن قيمة الجزية كلها تبلغ ٢٠٠٠ جنيه من نقودنا.

في الرق والذل، وعندما شاهدت ابنك يُسَاق إلى الموت، ولكنك أبديت تلك الانفعالات عندما رأيت متسوِّلًا؟ بلغ الملك أنه غريب عن جنسك.» فأجاب بساميتيخوس عن هذا السؤال بقوله: «يا ابن كوروس! كانت مصائبي أكثر من أن تخففها الدموع، أما مصيبة صديقي ذاك فكانت تستحق البكاء؛ فعندما يقلب الدهر لامرئ ظهْر المِجَن فيسقط من العظمة والرفاهية إلى التسول وهو على عتبة الشيخوخة، يحق للمرء، أن يبكي من أجله.» فلما عاد الرسول إلى قمبيز بهذا الرد قال قمبيز إنه على حق، وكذلك قال كرويسوس. ويُقرر المصريون أنه بكى — فقد جاء هو أيضًا إلى مصر مع قمبيز — وكذلك بكى جميع الفارسيين الحاضرين، وحتى قمبيز نفسه تألم غاية الألم، وأصدر أمره باستثناء ابن بساميتيخوس من بين الذين سِيقُوا إلى الإعدام. كما أمر بإحضار بساميتيخوس نفسه إلى حضرته من الضاحية التي اعتُقِل فيها.

بَيْد أنه سَبَق السيف العَزَل؛ فعندما وصل رسل قمبيز لإنقاذ ابن بساميتيخوس من القتل، وصلوا متأخرين فوجدوا ذلك الشاب قد قُتِل أول الجميع وقُطِّعت جثته إربًا. أما بساميتيخوس نفسه فجاءوا به إلى حضرة مليكهم، الذي سمح له بأن يعيش معه، ولم يعامله بخشونة قط بعد ذلك، كما لم يحرمه التدخُّل في شئون البلاد. وكان بوسعه أن يسترد مصر ويحكمها بصفته واليًا، فقد جرت عادة الفرس أن يعاملوا أبناء الملوك بالتبجيل، لدرجة أنهم قد يهبون مملكة الأب لابنه في حالات التمرد الشبيهة بهذه الحالة.

الفصل العشرون

أعمال قمبيز

ترك قمبيز ممفيس بعد ذلك واتجه إلى سايس وهو ينوي في نفسه أمرًا. ما إن دخل قصر أماسيس حتى أمر في الحال بإخراج جثة الملك من قبره، فلما أخرجها الخدم أمرهم بأن يضربوا الجثة بالسياط، وأن يخزوها بالمناخس وينزعوا الشعر منها، وأن يُلحِقوا بها جميع صنوف الإهانات. ولما كانت الجثة محنَّطة فقد قاومت كل ذلك التعذيب، ولم تتفكك مهما فعلوا بها، غير أن الخدم تَعِبوا مما قاموا به، فأمرهم قمبيز بأن يأخذوا الجثة ويحرقوها. كان هذا أمرًا يتنافى مع أصول الدين حقًّا؛ إذ يعتبر أهل فارس النار إلهًا، ولا يحرقون موتاهم بحال ما. والحقيقة أن هذا الأمر لم يكن مشروعًا سواء للفرس أو للمصريين، لنفس السبب الذي ذكرناه؛ لأنه من الإثم لدى الفرس أن يُقدموا جثة الميت لأي إله. أما المصريون فيعتبرون النار حيوانًا حيًّا يأكل ثم يتخم من كثرة الطعام فيموت بالمادة التي يتغذى بها. ومما يتنافى مع تقاليدهم تقديم جثة شخص لحيوان كي يلتهمها. والحقيقة هي أن هذا هو السبب في أنهم يحنطون جثث موتاهم؛ أي ليمنعوا الديدان من أن تأكلها في القبر. وبالرغم من هذا فقد أصدر قمبيز أمرًا غير مشروع لكل من الفرس والمصريين. وتبعًا للرواية المصرية لم يكن أماسيس هو الذي عوملت جثته بتلك المعاملة المهينة، بل كان شخصًا آخر من شعبهم في حوالي طول أماسيس. وأما الفرس فاعتقدوا أن جثة ذلك الرجل هي جثة الملك فأهانوها بالطريقة التي أوضحناها. ويقولون إن وحيًا كان قد حذر أماسيس مما سيحدث له بعد وفاته، فلِكي يتحاشى المصير الذي قُدِّرَ له دفن الجثة، التي لاقت الضربات بعد ذلك في نفس قبره بجوار المدخل، وأمر ابنه بأن يدفنه في أقصى موضع بالضريح نفسه. أما أنا شخصيًّا، فلا أعتقد أن يكون أماسيس قد أصدر هذه الأوامر إطلاقًا، ويبدو لي أن المصريين يؤكدون هذا إنقاذًا لكرامتهم.

بعد ذلك اجتمع قمبيز بمستشاريه وعزم على القيام بثلاث حملات: واحدة على القرطاجنيين، وأخرى على الأمونيين، والثالثة على الإثيوبيين الطويلي الأعمار المُقِيمين في جزء ليبيا المتاخم للبحر الجنوبي … رأى قمبيز أن خير طريقة هي أن يهاجم قرطاجنة بالأسطول، ويرسل قسمًا من جيشه البري لمهاجمة الأمونيين، في حين يذهب جواسيسه إلى إثيوبيا بحجة حمل الهدايا إلى الملك، ولكن حقيقة مهمتهم هي أن يلاحظوا كل ما تقع عليه عيونهم، وخصوصًا ليروا ما إذا كان صحيحًا ما يُقال من أن بإثيوبيا ما يُسَمُّونه «مائدة الشمس».

أما وصف مائدة الشمس تبعًا للروايات التي يحكونها فهو أنها مرعى في ضواحي مدينتهم، مملوء باللحوم المطهوة لجميع صنوف الحيوان، ويهتم الحكام بملء ذلك المرعى باللحوم في كل ليلة، وأي فرد يرغب في أن يأكل منها يستطيع ذلك بالنهار. أما أهل تلك البلاد فيقولون إن الأرض نفسها هي التي تُنتِج الطعام. هذا هو الوصف الذي يقولونه عن تلك المائدة.

عندما قرر قمبيز إرسال الجواسيس، بعث إلى مدينة فِيَلة يستدعي تراجمة معينين يعرفون اللغة الإثيوبية، وبينما ذهب البعض لاستدعائهم، أصدر أوامره إلى الأسطول بالإبحار لمهاجمة قرطاجنة. بَيْد أن الفينيقيين أبوا الذهاب، وقالوا إنهم مرتبطون بمعاهدة صداقة مع قرطاجنة، وقد عززوا تلك المعاهدة بالأيمان المغلَّظة، وإنه لَيصير شرورًا منهم أن يُهَاجِموا أولادهم. وإذ رفض الفينيقيون الإبحار أصبح باقي الأسطول غير ملائم لهذا العمل، وعلى هذا نجا القرطاجنيون من أن يستعبدهم الفرس. عندئذٍ رأى قمبيز أنه ليس من الحكمة أن يُجبِر الفينيقيين على القتال؛ لأنهم خضعوا لحكم الفرس بمحض اختيارهم، ولأن جميع العمليات البحرية تتوقف على أولئك الفينيقيين. كذلك انضم أهل قبرص إلى الفرس من تلقاء أنفسهم، واشتركوا معهم في الحملة على مصر.

بمجرد أن وصل التراجمة من فِيَلة أخبرهم قمبيز بما ينبغي عليهم أن يقولوه، ثم أوفدهم إلى إثيوبيا بالهدايا الآتية: ثوب من الأرجوان، وعقد، وأساور من الذهب، وعلبة للعطر مصنوعة من المرمر، وجرة من خمر البلح. ويُقال إن الإثيوبيين الذين ذهب إليهم أولئك السفراء، أطول الناس في العالم كله، وأكثرهم أناقة، كما أنهم يختلفون عن سائر البشر في عاداتهم، وخصوصًا في الطريقة التي يختارون بها ملوكهم، فهم يبحثون عن أطول رجل بين جميع المواطنين على شرط أن تتناسب قوته مع طوله، ثم يعينونه ملكًا يحكم عليهم.

لما وصل التراجمة إلى أولئك القوم، سلموا الهدايا لملك البلاد، وحدثوه قائلين: «يرغب قمبيز ملك فارس في أن يكون حليفك وصديقك؛ ولذا أوفدنا إليك لنخبرك بهذا ونحمل إليك الهدايا التي تراها، والتي يُعجب بها هو نفسه أيما إعجاب.» فقال لهم الملك الإثيوبي، الذي كان يعرف أنهم إنما أتوا كجواسيس: «لم يرسلكم ملككم الفارسي بهذه الهدايا رغبة في أن يكون صديقي، وليس صحيحًا ما تقولونه عن أنفسكم؛ لأنكم جئتم لتعرفوا أسرار مملكتي. كما أن ملككم ليس رجلًا عادلًا؛ فلو كان عادلًا لما طَمع في أرض ليست له، ولما استعبد قومًا لم يمسوه قط بأذى. احملوا إليه هذا القوس، وقولوا له: «ينصح ملكُ الإثيوبيين ملكَ الفرس بأنه عندما يستطيع الفرس أن يجذبوا وتر قوس قوية كهذه بنفس هذه السهولة؛ إذن فليأتِ بجيش يفوقنا قوة، ويُهاجم الشعب الإثيوبي الطويل الأعمار، وحتى الآن فليشكر الآلهة الذين لم يضعوا في قلوب أبناء إثيوبيا أن يطمعوا في بلادٍ ليست ملكًا لهم».»

ما إن قال هذا حتى نزع وتر القوس ووضعها في أيدي الرسل، ثم أمسك بالثوب الأرجواني وسألهم عن ماهيته وكيفية صنعه، فأجابوه بالصدق وأخبروه عن الأرجوان وعن فن الصباغة، عند ذلك أبدى ملاحظته قائلًا: «إن القوم مخادعون وكذلك ثيابُهم.» ثم التقط العقد والأساور وسألهم عنها، فشرح له أولئك التراجمة فائدتها كأدوات للزينة، عندئذٍ ضحك الملك؛ إذ ظنها أغلالًا، وقال: «لدى الإثيوبيين أغلال أقوى من هذه.» ثم سألهم عن العطر، فلما أخبروه عن كيفية صنعه، وكيف تُدعك به الأعضاء، قال ما سبق أن قاله عن الثوب، وأخيرًا جاء دور الخمر، فلما عرف طريقة صنعها، شرب منها رشفة فأعجبته كثيرًا، حينئذٍ سألهم عما تعوَّد الملك الفارسي أن يأكله، وعن العمر الذي بلغه أعظم مُعمَّر في فارس، فأخبروه بأن الملك يأكل الخبز، ووصفوا له القمح، وقالوا إن أطول عمر عاشه رجل في فارس هو ثمانون سنة. فقال: «لن يُدهشني أن تموتوا بهذه السرعة طالما تتغذون بالقاذورات، والحقيقة أنني لست متأكدًا من أنكم تبلغون عمرًا طويلًا كثمانين سنة، إلا بوساطة إنعاش ذلك الشراب (يقصد الخمر) الذي أعترف بأن الفرس يتفوقون به على الإثيوبيين.»

عندما استعد التراجمة للعودة إلى مصر، سألوا ملك إثيوبيا عن المدة التي يعيشها الفرد في بلاده، وعمَّا يأكلون، فأخبرهم بأن معظم شعبه يعيشون مائة وعشرين سنة، وبعضهم يُعمَّر إلى أكثر من هذا، ويأكلون اللحم المطبوخ، ولا يشربون غير اللبن. وعندما أبدى الرسل دهشتهم لعدد السنوات التي يعيشها الفرد هناك، أخذهم إلى ينبوع ماء حيث

اغتسلوا، فوجدوا أن أجسامهم كلها قد غدت لامعة وناعمة، كما لو كانوا قد استحموا في الزيت، وانبعثت من الينبوع رائحة زكية تُشبِه رائحة البنفسج، وقد قال هؤلاء إن الماء كان خفيفًا بحيث لا يمكن لأي شيء أن يطفو على سطحه، لا الخشب ولا أية مادة أخف من الخشب، وإنما تغوص كلها إلى القاع. وإذا كانت رواية الينبوع هذه صحيحة، فإن استعمالهم لهذا الماء باستمرار هو السبب في أنهم يعيشون طويلًا. وبعد أن ترك الرسل الينبوع، قادهم الملك إلى سجن فأبصروا المسجونين مقيدين جميعًا بأصفاد من الذهب، وأن النحاس أندر المعادن وأغلاها عند الإثيوبيين. وبعد أن انتهوا من رؤية السجن، شاهدوا ما يُطلَق عليه «مائدة الشمس».

وأخيرًا سمح لهم الملك بمشاهدة نعوش الإثيوبيين، التي صُنِعَت (تبعًا للتقرير) من البلور، بالصورة الآتية: عندما يموت شخص، يَطلُون جثته بالجبس، إما بالطريقة المصرية أو بطريقة ما، ويزينونها بالدهان حتى تشبه الجسم الحي قدر المستطاع، ثم يضعونها داخل عمود من البلور مجوف الباطن بحيث يتسع للجثة. ويوجد البلور بكثرة بباطن الأرض في بلادهم، ومن نوع سهل الصنع. فيمكنك أن تُبصِر الجثة من خلال العمود الموضوعة فيه، ولا تنبعث من الجثة رائحة كريهة، ولا يتغير شكلها بحال ما، ومع ذلك فلا يوجد جزء من الجثة لا يُرى بوضوح، كما لو كانت الجثة عارية، ويحتفظ أقرب أقرباء الميت بالعمود البلوري في منزلهم لمدة سنة منذ يوم الوفاة، ويقدِّمون لذلك النعش باكورة الفاكهة باستمرار، ويُبجِّلونه بالتقدمات والذبائح، وبعد أن تنقضي السنة، ينقلون العمود ويضعونه بجوار المدينة.

عاد الجواسيس إلى مصر بعد أن رأوا كل شيء، ثم قدموا تقريرهم إلى قمبيز الذي أرغى وأزبد وهاج لدرجة الغضب بسبب ما سمعه منهم، وعلى ذلك بدأ في الحال سيره لمهاجمة الإثيوبيين دون أن يعدَّ المئونة اللازمة لإطعام جيشه، ودون أن يفكر في أنه سيشن حربًا في أقصى أجزاء الأرض. وكرجل معتوه، كما كان وقتذاك، ما كاد يتسلم تقرير التراجمة حتى بدأ سيره آمرًا الأغارقة الذين كانوا ضمن جيشه أن يبقوا حيثُ هم، وصحب معه جنوده الفارسيين ليس غير. ولما وصل إلى طيبة التي كان عليه أن يمر بها في طريقه، فصل من جيشه الأصلي حوالي خمسين ألف جندي، وأرسلهم لغزو بلاد الأمونيين، وأمرهم بأن يأسروا أفراد الشعب ويحرقوا وحي جوبيتر. وفي الوقت ذاته سار هو مع بقية جيشه لمهاجمة الإثيوبيين، غير أنه قبل أن يقطع خُمس المسافة نفد جميع ما كان لدى القوة من مئونة، وعندئذٍ شرع الرجال يأكلون حيوانات الحمل التي كانت معهم.

بيد أن هذه لم تلبث أن نفدت أيضًا. ولو رأى قمبيز ما حدث وقتذاك واعترف بخطئه ورجع بجيشه لفعل أحكم ما يُمكِن أن يعمل بعد الخطأ الذي وقع فيه منذ البداية، ولكنه لم يكترث لشيء، وواصل سيره بعد هذا. وطالما كان في الأرض ما يقتات به الجيش، وكان يأكله الجنود؛ إذ أكلوا الحشائش والأعشاب، غير أنهم عندما وصلوا إلى المنطقة الرملية القاحلة اقترف بعض الرجال أمورًا بشعة، كان كل عشرة منهم يختارون من بينهم رجلًا بالقرعة ويذبحونه ليكون طعامًا للتسعة الباقين. فلما علم قمبيز بهذه الأفعال اقشعرَّ بدنه لأكلهم لحوم البشر، فتنازل عن هجومه على إثيوبيا ورجع أدراجه من الطريق التي جاء منها، فوصل إلى طيبة بعد أن هلكت من جنوده أعداد كبيرة، ثم سار من طيبة إلى ممفيس حيث صرف الجنود الإغريق، وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم. وهكذا انتهت الحملة على إثيوبيا.

بدأ الرجال الذين ذهبوا لمهاجمة الأمونيين رحلتهم من طيبة، وبالرغم من أنهم صَحِبوا معهم عددًا من الأدلَّاء، فلم يُمكِن اقتفاء أثرهم إلا إلى مدينة الواحة[١] التي يسكنها الساميون، الذين يُقال إنهم من قبيلة أيسخريونيا Aeschrionia، وتبعد هذه المدينة عن طيبة القديمة بمسيرة سبعة أيام خلال الرمال، وتُسمَّى في لغة بعضهم: «جزيرة المباركين». ولا يُعرَف شيء إطلاقًا عن ذلك الجيش بعد أن وصل إلى هذه المدينة — كما لم يُسمَع عنه أي خبر سوى ما يرويه الأمونيون ومن يستقون معلوماتهم منهم — والمؤكد أنهم لم يصلوا إلى بلاد الأمونيين، ولم يعودوا إلى مصر. وعلاوة على هذا يقول الأمونيون سار الفرس من مدينة الواحة عبر الرمال حتى وصلوا إلى منتصف المسافة بين هذه المدينة وبين بلدهم، وحدث بينما كانوا يتناولون طعام الغداء في وقت الظهيرة، أن هبت ريح عاصفة من الجنوب، وكانت ريحًا عاتية قاتلة ترفع معها أعمدة من الرمال في صورة دوامات هائلة، فغطت الجيش كله تمامًا، ودفنت الرجال جميعًا. هذا هو ما حدث لرجال ذلك الجيش تبعًا لرواية الأمونيين.

في الوقت الذي عاد فيه قمبيز إلى ممفيس تقريبًا ظهر أبيس إلى المصريين، وأبيس هذا هو الإله الذي يسميه الإغريق أبافوس، وما إن عَلِم بظهوره المصريون حتى ارتدَوا

[١] مدينة الواحة في مدينة الخارجة الحديثة، المدينة الرئيسية في الواحة الكبرى. وتبعد هذه من مدينة طيبة القديمة بمسيرة ٤٢ ساعة. من أحد الطرق، ومسيرة ٥٢ ساعة من طريق آخر «أي ستة أيام، وسبعة أيام ونصف على التوالي». قد يكون المصريون أطلقوا اسم الواحة على المدينة في عصر هيرودوت، وكذلك على الطريق المحيط بها.

جميعًا أفخر ثيابهم، وأخذوا يقيمون الولائم والأفراح مبتهجين مرحين. فعندما شاهدهم قمبيز على تلك الحال، أيقن أنهم إنما يفعلون هذا ابتهاجًا بفشله الذريع، فاستدعى إليه الموظفين المهيمنين على مدينة ممفيس وطلب منهم أن يُجِيبوا عن هذا السؤال: «لماذا لم يفعل المصريون شيئًا من هذا القبيل عندما كان في ممفيس قبل ذلك، بل انتظروا حتى عاد الآن وقد تكبد جيشه خسائر فادحة في الأرواح؟» فأجاب الموظفون بقولهم: «لقد ظهر لهم الآن أحد آلهتهم، وهو إله تعوَّد أن يظهر في مصر في فترات طويلة من الزمن، ومن عادة المصريين عند ظهوره أن يُولِموا ويُقِيمُوا الحفلات والأفراح.» فلما سمع قمبيز قولهم هذا اتهمهم بالكذب، وحكم عليهم جميعًا بالإعدام.

بعد أن تم إعدام هؤلاء الموظفين، بعث قمبيز يستدعي الكهنة أن يَمثلوا بين يديه. فلما جاءوا سألهم نفس السؤال الذي ألقاه إلى الموظفين، فتلقى منهم نفس الاجابة، وعندئذٍ أبدى ملاحظته: «سرعان ما سيعلم هؤلاء ما إذا كان حقيقة قد ظهر إله أليف ليُقِيم في مصر.» وفي الحال دون أن يسمح لهم بأية كلمة أمر بإحضار أبيس إليه، فانصاعوا لأمره وخرجوا من عنده ليأتوه بذلك الإله. أما أبيس هذا، أو أبافوس، فهو عِجل تلده بقرة، يقولون إن نارًا تنزل عليها من السماء فتحبل في العجل أبيس، ويحمل العجل المسمى بهذا الاسم هذه العلامات: يكون أسود اللون، ذا بقعة بيضاء مربعة الشكل في وسط جبهته، وعلى ظهره صورة نسر، وعلى لسانه خنفساء.[٢]

لما عاد الكهنة وقد أحضروا معهم العجل أبيس، استلَّ قمبيز خنجره وسدَّده نحو بطن العجل، غير أنه أخطأ الهدف وأصابه في فخذه، ثم ضحك وقال للكهنة: «أيها الأغبياء! أتظنون الآلهة تكون على هذه الصورة من لحم ودم، وتتأثر بالأسلحة المصنوعة من الصلب؟ يا له من إله يُنَاسِب المصريين! ولتعلموا أن سخريتكم مني ستكلفكم كثيرًا.» وما إن انتهى من قوله هذا حتى أمر بعض رجاله المختصين[٣] بأن يجلدوا الكهنة، وإذا

[٢] يُظَن أن أبيس هو صورة روح أوزيريس، وهو الشعار المقدس لذلك الإله. ولكنه يصور أحيانًا في صورة رجل ذي رأس ثور.

[٣] يستخدم الفرس شأنهم شأن الأتراك وغيرهم من الأمم الشرقية، أشخاصًا مهمتهم الضرب والجلد وتنفيذ غير ذلك من صنوف العقاب. وإن معاملة المصريين لأعدائهم لتختلف تمام الاختلاف عن معاملة غيرهم من شعوب الشرق القدماء؛ لأنهم لم يفعلوا أكثر من قطع أيدي القتلى، ووضعها في «أكوام» أمام الملك (الملوك، ١٠: ٨؛ وصموئيل، ١٨: ٢٧) لمعرفة عدد قتلى العدو. وإذا أُجبِر أسراهم على العمل فإنما كان

وجدوا أي مصري يحتفل بمجيء ذلك الإله فليقتلوه. وهكذا أُوقِفت الولائم في جميع أرجاء مصر، وقاسى الكهنة العذاب. وإذ جُرِح أبيس في فخذه بقي راقدًا في المعبد فترة من الوقت يتلوى ويئنُّ من الألم، ثم مات بسبب ذلك الجرح، فدفنه الكهنة سرًّا دون علم قمبيز.

يقول المصريون إن قمبيز الذي لم يكن متزن العقل أُصِيب بعد ذلك بالجنون جزاء جرمه، فكانت أولى نوبات جنونه أنه قتل شقيقه سميرديس Smerdis الذي أمره قمبيز بالعودة ثانية من مصر إلى فارس بدافع الحسد؛ لأنه استطاع أن يَجذِب وتر القوس التي أحضرها التراجمة من إثيوبيا (والتي لم يستطع أي فرد من الفرس الآخرين أن يثنيَها) مسافة قيراطين. فلما رحل سميرديس إلى فارس رأى قمبيز حُلمًا في نومه، خُيِّل إليه أن رسولًا جاءه من فارس وأخبره بأن سميرديس تبوأ عرش المملكة وطاول برأسه السماء، فخاف قمبيز على نفسه وتصور أنه من الممكن جدًّا أن يقتله شقيقه ويحكم المملكة بدله، فأرسل بريكساسبيس الذي كان يثق به أكثر من سائر الفرس، وأمره بأن يقطع رأس سميرديس. ويقول البعض إنه قتله في حين كانا يصيدان معًا. ويقول آخرون إنه صحبه إلى الخليج الفارسي وأغرقه هناك.

يُقال إن هذه كانت أولى نوبات جنونه. أما النوبة الثانية فجاءته عندما قتل أخته التي صحبته إلى مصر، وعاشت معه كزوجته برغم أنها كانت شقيقته[٤] ابنة كلٍّ من أبيه وأمه. وإليك كيف اتخذ قمبيز شقيقته زوجة له. لم يكن من عادة الفرس قبل عصره أن يتزوجوا أخواتهم، أما قمبيز فإذ وقع في غرام إحدى أخواته وأراد أن يتزوجها، وكان يعلم أن هذا مخالف للتقاليد الفارسية، جمع القضاة الملكيين وسألهم «عمَّا إذا كان هناك قانون يسمح للأخ بأن يتزوج أخته متى أراد ذلك؟» وكان أولئك القضاة الملكيون نخبة منتقاة من بين الشعب الفارسي، يشغلون منصب القضاء طيلة حياتهم إلا إذا اتُّهِم أحدهم بما

هذا من شروط الإبقاء على الحياة في العصور الغابرة، ولم نرهم قط يُوقِعون العذاب المنظم بأعدائهم، ولا يسومونهم أية قسوة أكثر من معاملة فظة من جانب جندي جاهل. ومثل هذا الأمر معروف في حروب أوروبا المسيحية.

[٤] كان مسموحًا للمصريين بأن يتزوجوا أخواتهم من نفس الأب والأم، ويُحرم قانون ليفيت Levit الزواج بالأخت سواء أكانت من الأب أو من الأم. أما في عصور البطريريكية فكان يجوز للرجل أن يتزوج أخته إذا كانت من أبيه فقط (التكوين، ٢٠: ١٢). والعادة المصرية إحدى العادات التي أشير إليها في ليفيت، ١٨: ٣.

يُخِل بالشرف، وبوساطتهم يُقام العدل في فارس. كما أنهم هم الذين يفسرون القوانين القديمة، وإلى حكمهم تترك جميع المنازعات، فلما ألقى قمبيز عليهم هذا السؤال، أجابوه إجابة فيها صدق وفيها أمان فقالوا: «إنهم لم يجدوا قانونًا ما يُجِيز للأخ أن يتزوج أخته، ولكنهم وجدوا قانونًا يُجِيز لملك فارس أن يفعل ما يشاء.» وعلى هذا لم يخرقوا القانون خوفًا من قمبيز، ولم يَضُروا أنفسهم بالتمسك الشديد بحرفية القانون، بل أوجدوا قانونًا واضحًا تمام الوضوح يفي بطلب الملك، ويُحقِّق له رغبته،[٥] وبناء عليه تزوج قمبيز من موضوع غرامه،[٦] ولم يلبث طويلًا إلا وتزوج أختًا أخرى، كانت صغرى هاتين الزوجتين، وهي التي ذهبت معه إلى مصر حيث لَقِيت الموت على يديه.

تُحكى روايتان مختلفتان عن موت هذه الزوجة وموت سميرديس. فتقول الرواية الإغريقية إن قمبيز أطلق جروًا ليُقاتِل شبل لبؤة، وكانت زوجته تراقب ذلك القتال، فتغلب الشبل على الكلب، فما كان من كلب آخر إلا أن قطع سلسلته وجرى لنجدة أخيه، وعندئذٍ قاتل الكلبان معًا الشبل وهزماه، فسُرَّ قمبيز من تلك الحركة أيما سرور، أما أخته التي كانت جالسة معه فأذرفت الدموع، فلما رآها قمبيز على تلك الحال، سألها عما يُبكيها، فأجابته بأنها عندما رأت الكلب الصغير يَهِبُّ لنجدة أخيه تذكرت سميرديس الذي لم يكن له من يساعده .. ويقول الأغارقة إن قمبيز قتلها بسبب كلامها هذا.

[٥] لا حاجة إلى التنويه بمشابهة وجهة نظر القانون الفارسي المذكور هنا والقانون الذي أوجده دان، الباب السادس، وهو: «لا تغيير في قانون الميديين والفارسيين.»

[٦] كانت هذه الأخت هي أتوسا والدة كسيركسيس التي كانت زوجة قمبيز، وسميرديس الكاذب، وداريوس هوستاسبيس على التعاقب.

الفصل الحادي والعشرون

جنون قمبيز

هكذا كان جنون قمبيز حيال أقاربه. ولست أدري أكان هذا الجنون بسبب ما فعله مع أبيس، أم بسبب آخر من الأسباب الكثيرة التي تنشأ عنها المصائب. ويقولون إنه كان مصابًا منذ ولادته بمرض مُرِيع يُسمِّيه البعض «المرض المقدس».[1] وعلى ذلك لا يكون غريبًا بأية حال أن تأثر عقله بدرجة ما. وقد عرفنا أن جسمه كان يعمل وهو مصاب بذلك المرض.

كان قمبيز مجنونًا أيضًا حيال الأغراب، علاوة على جنونه حيال أقربائه، ومن بين أولئك الأغراب بريكساسبيس الرجل الذي كان يُقدِّره قمبيز أكثر من سائر الفرس وهو الذي كان يحمل رسائله، والذي عين ابنه في منصب «حامل الكأس»، وهو منصب غير قليل الشأن في فارس. ويقال إن قمبيز سأله ذات مرة بقوله: يا بريكساسبيس، أي نوع من الرجال يظنني الفارسيون؟ وماذا يقولون عني؟ فأجابه بريكساسبيس قائلًا: «مولاي! إن القوم لَيُثنون عليك أجمل الثناء في كل شيء إلا شيئًا واحدًا؛ يقولون إنك مولع أشد الولع باحتساء الخمر.» هكذا أخبره بريكساسبيس بحكم الشعب الفارسي عليه. عندئذٍ ثارت ثائرة قمبيز وأرغى وأزبد وقال: «ماذا؟ أيقولون إنني أفرِط في شرب الخمر، ولذا فقدت إحساسي وجننت؟! إذن فقد كانت خطبهم السابقة عني كاذبة.» وذات مرة عندما كان الفارسيون جالسين معه، وكان كرويسوس جالسًا قريبًا منهم، سألهم قمبيز: «أي نوع من الرجال يظنونه لو قورن بأبيه كوروس؟» فأجابوه: «بأنه يفوق أباه؛ لأنه صار

[1] المرض المعروف بهذا الاسم هو الصرع، كما يتضح من كتاب أبوقراط بعنوان «عن المرض المقدس» ولا يزال الإيطاليون يطلقون عليه اسم Maljcnedetto «أي المرض المقدس». ويُعتَبر هذا المرض من أصل مقدس بسبب نوباته المفاجئة وطبيعته المفزعة.

ملكًا على كل ما كان يحكمه والده، وزيادة على هذا فقد جعل نفسه سيدًا على مصر وعلى البحر»، وكان كرويسوس بقربه، واستاء من تلك المقارنة، فقال لقمبيز: «لست من هذا الرأي يا ابن كورومي؛ إذ أرى أنك لا تُعادِل أباك؛ لأنك لم تُخلِّف وراءك ابنًا كهذا الذي خلفه أبوك»، فسُرَّ قمبيز لسماع هذا الرد وأثنى على حكم كرويسوس.

تذكر قمبيز هذه الإجابات فتحدث إلى بريكساسبيس بخشونة قائلًا: «احكم بنفسك الآن، يا بريكساسبيس. إما أن الفرس يقولون الصدق، وإما أنهم ليسوا هم المجانين حتى يقولوا ما صدر منهم. انظر ها هو ابنك واقف الآن في هذه الردهة، فإذا سدَّدت الرماية إليه وأصبته في وسط قلبه كان من الجلي أنه ليس لدى الفرس ما يبرر قولهم، وإن أخطأته اعترفت بأن الفرس على حق وأنني مجنون.» وما إن انتهى من قوله حتى أمسك قوسه وجذب وترها إلى نهايته وأطلق سهمًا أصاب الغلام فسقط في الحال قتيلًا. بعد ذلك أمر قمبيز بشق صدر الجثة وفحص الجرح، فلما وجد أن السهم قد اخترق القلب سُرَّ سرورًا بالغًا، وقال للوالد وهو يضحك: «والآن ها أنت ترى يا بريكساسبيس أنني لست أنا المجنون، ولكن الفرس هم المجانين؛ إذ فقدوا إحساساتهم، أرجوك أن تُخبرني الآن، هل رأيت قط أحدًا من البشر يطلق سهمًا بدقة أفضل من هذه؟» فلما رأى بريكساسبيس أن الملك ليس متمالكًا لقواه العقلية خشي على نفسه فأجاب قائلًا: «مولاي لا أظن أن الإله نفسه يستطيع أن يرمي سهمًا بهذه المهارة.» هذه هي الحماقة التي ارتكبها قمبيز في ذلك الحين. وفي حين آخر، أخذ اثني عشر رجلًا من أعظم نبلاء الفرس، ودفنهم حتى أعناقهم دون أن يقترفوا إثمًا أو يتهمهم بشيء.

عندئذٍ رأى كرويسوس الليدي أنه من الحكمة أن يُحَذِّر قمبيز عاقبة أفعاله، فقال له: «أيها الملك، لا تسمح لنفسك بالتمادي في نزق الشباب وفي حميَّة طباعك، ولكن اكبح جماح نفسك، واقبض على زمامها. فمن الخير للمرء أن ينظر إلى العواقب، وفي التروِّي حكمة حقة. إنك تقبض على الرجال من مواطنيك وتعدمهم بغير سبب ولا شكوى، وتقتل حتى الأطفال، تَرَوَّ الآن، وفكر في نفسك، هل إذا استرسلت في مثل هذه الأعمال، ألا يمكن أن يثور الفارسيون ضدك؟ إنني أقدم لك النصح تبعًا لرغبة والدك، لقد أمرني وشدد في الأمر بأن أنصحك كلما رأيتُ هذا في صالحك.» وبطبيعة الحال لم يقصد كرويسوس من نصيحة قمبيز إلا مجرد الإشفاق الودي. غير أن قمبيز رد عليه بقوله: «أتزعم أنك تسدي إليَّ النصح؟ وفِّر على نفسك هذا النصح لتحكم به مملكتك إذا قُدِّر لك أن تكون ملكًا. وبهذه النصائح الحكيمة التي أسديتها إلى والدي كوروس عندما أشرت عليه بعبور نهر

أراكسيس ومحاربة الماساجيتيين في بلادهم في الوقت الذي أرادوا أن يأتوا فيه إلى بلادنا، جلبت الخراب على والدي كوروس بتلك المشورة السيئة. أما الآن، فلن تفلت من العقاب؛ لأنني من مدة طويلة أنتظر فرصة لأتمسك عليك بخطأ.» وبينما كان قمبيز يقول ذلك الكلام، سحب قوسه ليقتل بها كرويسوس، بَيْد أن كرويسوس جرى بسرعة وهرب. فلما رأى قمبيز أنه لم يستطع قتل كرويسوس بقوسه، أمر خدمه بأن يقبضوا عليه ويقتلوه، ولكن الخدم الذين كانوا يعرفون طباع سيدهم حق المعرفة، رأوا من الأوفق أن يُخفوا كرويسوس إلى أن تهدأ ثورة قمبيز ويسأل عنه، وعندئذٍ يمكنهم إحضاره والحصول على جائزة نظير إنقاذهم لحياته. أما إذا لم تلن قناته ولم يندم على فقده، استطاعوا أن يقتلوه وقتذاك. والحقيقة أنه لم يمضِ وقت طويل حتى ندم قمبيز على فقده كرويسوس، فلما رأى الخدم هذا منه، أخبروه بأن كرويسوس لا يزال حيًّا. فقال لهم: «إنني لمسرور من بقاء كرويسوس على قيد الحياة. أما أنتم يا من أنقذتم حياته؟ فلن تفلتوا من انتقامي وسأعدمكم جميعًا.» وفعلًا نفذ وعيده.

اقترف قمبيز في نوباته الجنونية كثيرًا من الحماقات ضد كل من الفارسيين والحلفاء وهو لا يزال مقيمًا في ممفيس، ومن بين تلك الحماقات أنه فتح الأضرحة وفحص جثث من دفنوا فيها، كذلك ذهب إلى معبد فولكان وأخذ يرمي التمثال القائم هناك بعدد لا يحصى من السهام؛ لأن تمثال فولكان يشبه إلى حدٍّ كبير تمثال باتايكي الذي يبجله الفينيقيون؛ إذ يزينون به حيازيم سفنهم الحربية. وإذا تعذر على القراء أن يفهموا ذلك شرحته لهم بطريقة أخرى، إنه تمثال يُشبِه التماثيل الصغيرة. كما ذهب قمبيز إلى معبد الكابيرين المحرَّم دخوله على أي شخص سوى الكهنة. ولم يكتفِ قمبيز بأن رمى التماثيل هنا بالسهام، بل وأحرقها أيضًا. وقد صُنِعت تلك التماثيل على صورة تمثال فولكان الذي يقال إنه أبوها جميعًا.

إذن، يبدو لي من المؤكد أن قمبيز قد أصابته لوثة من الجنون. يؤيد هذا عدد كبير من الأدلة، وإلا لما أقدم على انتهاك حرمة الطقوس المقدسة والتقاليد المتبعة منذ غابر الأزمنة؛ إذ لو خيَّر المرء الناس بأن يتبعوا من العادات ما يرونه أصلحها، لدرسوا جميع العادات، واستقر رأيهم أخيرًا على أن عاداتهم تفوق ما سواها من العادات الأخرى بمراحل. إذن فلا يُقدِم المرء على العبث بمثل هذه الأمور إلا إذا كان مجنونًا. وهناك كثير من البراهين على أن الشعوب تشعر بهذه الإحساسات، ومن هذه البراهين: بعد أن تبوأ داريوس عرش المملكة، استدعى إلى حضرته بعض الأغارقة الموجودين، وسألهم: «أي مبلغ من المال أستطيع أن أدفعه لكم حتى تأكلوا جثث آبائكم بعد موتهم؟» فأجابه الإغريق بأنه لا يوجد مبلغ

من المال مهما عظُم يستطيع إغراءهم على مثل ذلك الشيء. ثم راسل داريوس يطلب أن يحضر إليه بعض الهنود من الجنس الكالاتياني وهم قوم يأكلون جثث آبائهم، وسألهم: «كم أدفع لكم لتُحرِقوا جثث آبائكم بعد موتهم؟» فصاح الهنود بصوت مرتفع طالبين منه أن يحسن لغته. هذه هي عادات الإنسان. وإن بندار Pindar لعلى حق عندما قال: «القانون ملك الجميع.»

الفصل الثاني والعشرون

أسطورة بوليقراط

بينما كان قمبيز يحارب في مصر، أرسل اللاكيدايمونيون قوات أيضًا لمحاربة بوليقراط بن أياكيس، الذي ثار على السلطات القائمة بتلك الجزيرة وجعل نفسه ملكًا عليها. وفي بدء حكمه قسم المملكة إلى ثلاثة أقسام، واقتسم الحكم فيها مع أخويه بانتاجنوتوس وسولوسون، غير أنه بعد ذلك قتل أخاه الأول ونفى الثاني الذي كان الأخ الأصغر، وسيطر هو على حكم الجزيرة كلها. وعند ذلك عقد محالفة صداقة مع أماسيس ملك مصر: فأرسل إليه الهدايا، وتلقى منه هدايا أخرى بدلًا منها وما هي إلا فترة وجيزة حتى اتسع سلطانه أيما اتساع، حتى بلغت شهرته البلاد الخارجية فوصلت إلى أيونيا وإلى بقية بلاد الإغريق. فأينما أدار ذراعيه يجد النجاح في انتظاره. وكان يملك أسطولًا يتكون من مائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجاديف، كما كان لديه ألف مقاتل بالقِسِيِّ والسهام؛ ولذلك كان يهجم على كل بلد، لا يفرق بين صديق وعدوٍّ؛ إذ كان يقول: إن الصديق لَيسرُّه أن ترد إليه ما أخذته منه أكثر مما لو تركته دون غزو. فاستولى على كثير من الجزر وعلى عدة مدن من القارة نفسها. ومن أعماله الأخرى أنه هزم الليسبيين في موقعة بحرية عندما جاءوا بجميع قواتهم لمساعدة ميليتوس، وأسر كثيرًا منهم وقيدهم بالأغلال الثقيلة ثم جعلهم يحفرون الخندق المحيط بقلعة ساموس.

لم يفُت أماسيس ما ناله بوليقراط من حظ بالغ السعادة، وكان أماسيس خطرًا عظيمًا يُهدِّد سلامة بوليقراط. فلما استمر نجاح بوليقراط في اطِّراد، كتب إليه أماسيس الخطاب التالي وأرسله إلى ساموس: «يقول أماسيس لبوليقراط: إنه لما يبهج الإنسان أن يسمع بازدهار ونجاح صديقٍ وحليف له. بَيْد أن نجاحك المنقطع النظير لم يُبهجني؛ لأن الآلهة — كما أعلم — شديدة الحسد. وإني لأتمنى لنفسي، ولمن أحبهم أن يكون النجاح حليفنا حِينًا، ونلقى الإخفاق حينًا آخر. وبذا نمر في الحياة بفترات من الخير

والشر، أفضل من حسن الحظ المستمر. فلم أسمع قط عن شخص كان ناجحًا في جميع مشاريعه، ولم تصادفه كارثة في النهاية يكون فيها خرابه الشامل. وعلى هذا، أعِر كلامي الآن آذانًا صاغية، وقابل حظك الحسن بهذه الطريقة: تأمل في قرارة نفسك أيُّ كنوزك أنفس عندك ولا يمكنك احتمال ضياعه، خذه، مهما بلغت قيمته، واقذف به في موضع تكون واثقًا تمامًا من أنه لن تقع عليه فيه عين إنسان مرة أخرى. وإذا لم يقترن حظك الحسن بالنحس بعد ذلك فجنب نفسك الأذى بأن تكرر ثانية ما نصحتك بفعله.»

لما قرأ بوليقراط خطاب أماسيس، وأدرك حكمة هذه النصيحة، شرع يتأمل بإمعان في كنوزه، وعرف أيها يحزنه كثيرًا أن يفقده، وبعد تفكير طويل استقر رأيه على أن خاتمه الذي اعتاد أن يوقع به إمضاءه، ويلبسه في إصبعه هو أنفس كنز لديه. وكان هذا الخاتم عبارة عن فص من الزمرد داخل إطار من الذهب،[١] صنعه ثيورد بن تيليكيس السامي، وبناءً عليه قرر أن يرمي ذلك الخاتم، فركب سفينة ذات خمسين مجدافًا، وأمر البحارة بالإقلاع إلى عرض البحر. فلما صار على مسافة بعيدة من الجزيرة خلع الخاتم من إصبعه وقذف به إلى الأعماق أمام جميع من كانوا على ظهر تلك السفينة. وبعد أن فعل هذا، عاد إلى قصره وأظهر الحزن على ضياع ذلك الخاتم.

حدث بعد خمسة أو ستة أيام أن اصطاد أحد الصيادين سمكة خالها لا تصلح إلا أن تكون هدية للملك، ولذلك حملها وذهب بها إلى باب القصر وطلب مقابلة بوليقراط، فسُمِح له بالدخول، فأعطاه الصياد السمكة وهو يقول: «مولاي الملك، لقد وهبني الله هذه الجائزة فجال بخاطري ألا أذهب بها إلى السوق رغم أنني رجل فقير أعيش من مهنتي فقلت لنفسي: إن هذه السمكة لا تصلح إلا لمولاي بوليقراط وعظمته؛ ولذا أحضرتها إلى هنا لأقدمها لكم.» فسُرَّ الملك من كلامه، وقال له: «ما فعلت إلا حسنًا، وإني لمدين لك بدَينين: دَين هذه الهدية، والآخر من أجل هذا الكلام. تعال إذن، وتناول طعام العشاء معي الليلة.» فذهب الصياد إلى بيته واعتقد أنه شرف عظيم أن يتعشى مع الملك. وفي تلك الأثناء بينما كان الخدم ينظفون بطن السمكة إذ وجدوا فيه خاتم سيدهم، فما إن أبصروه حتى أسرعوا إلى بوليقراط والبِشرُ بادٍ على وجوههم، وأعادوا الخاتم إليه وأخبروه في أي موضع وجدوه. فرأى الملك في تلك المسألة تدخلًا إلهيًّا، فكتب خطابًا إلى أماسيس يُخبِره بكل ما حدث، وأوضح له ما فعله وما آل إليه الأمر، ثم أرسل الخطاب إلى مصر.

---

[١] أخذ العرب قصة الصياد والخاتم من هذه القصة بعد أن غيروا فيها بعض الشيء.

عندما قرأ أماسيس الخطاب الذي جاءه من بوليقراط، أدرك أنه ليس بوسع الإنسان أن ينقذ زميله من المصير المُقدَّر له، كما أدرك سوء عاقبة بوليقراط؛ إذ نجح وازدهر في كل شيء، حتى في استعادة ما رماه. وعلى ذلك بعث رسولًا إلى ساموس وألغى معاهدة الصداقة التي كانت بينهما. فعل هذا، حتى إذا ما حلت الضربة القاضية ببوليقراط، استطاع اجتناب الحزن الشديد لمصيبة صديق ارتبط معه بمعاهدة صداقة.

الفصل الثالث والعشرون

وفاة قمبيز

بينما كان قمبيز في مصر إبان فترة جنونه، ثار ضده أخوان مجوسيان؛ أحدهما كان قمبيز قد وكل إليه الإشراف على شئون قصره في فارس، وهذا هو الذي بدأ بالتمرد؛ فإذ كان عارفًا أن قمبيز قد قتل أخاه سميرديس، وأن موته أُخفِي عن الشعب الفارسي ولا يعلم به منهم سوى فئة قليلة، بينما يعتقد معظمهم أنه لا يزال حيًّا انتهز هذه الفرصة وقام بمحاولة جريئة للوصول إلى التاج ... كان له أخ — نفس الأخ الذي سبق أن قلت إنه شريكه في التمرد — وقد شاءت الصُّدف أن يشبه إلى حدٍّ كبير سميرديس بن كوروس الذي قتله أخوه قمبيز، ولم يشبه سميرديس في صورته فحسب، بل في اسمه كذلك، أي أنه كان يُدعَى سميرديس أيضًا. فحثَّه باتيزيثيس المجوسي الآخر على القيام بالدور كله، فأخذه وأجلسه على عرش المملكة. وبعد أن فعل هذا أوفد رسلًا إلى جميع البلدان، إلى مصر وإلى كل موضع آخر يعلنون الجيوش بأن عليهم منذ ذلك الوقت فصاعدًا أن يطيعوا أوامر سميرديس بن كوروس، وليس قمبيز.

بناءً على ذلك قام الرسل بمهمتهم وأعلنوا الجيوش كما أمروا، كذلك فعل الرسول الذي أُوفِد إلى مصر، فلما وصل هذا الرسول إلى أجباتانا في سوريا وجد قمبيز مع جيشه هناك، فذهب من فوره إلى وسط الجيش مباشرة، ووقف أمامهم جميعًا وأعلن عليهم ما أمره به باتيزيثيس المجوسي، فما إن سمع قمبيز هذا الإعلان حتى اعتقد بصحة ما قاله الرسول، وظن أن بريكساسبيس قد خدعه (أي حسبه لم يقتل سميرديس عندما أرسله إلى فارس)، فحوَّل بصره نحو بريكساسبيس وقال له: «أهذه هي الطريقة التي تنفذ بها أوامري يا بريكساسبيس؟» فأجاب الآخر قائلًا: «مولاي، لا صحة للأنباء القائلة بأن أخاك سميرديس قد ثار ضدك، كما أنه لن يتسرب إلى نفسك أي خوف من قيام أية حرب مع ذلك الرجل، سواء أكانت الحرب عبارة عن قتال كبير أو صغير؛ فقد نفذت أمرك

فيه بيدي، وبيدي دفنته. فإن جاز للموتى أن يخرجوا من قبورهم فتوقع أن يثور ضدك أستياجيس الميدي ويحاربك. بَيْد أنه إذا سارت الأمور حسب ناموسها الطبيعي الذي ألفناه في الماضي، فكن على يقين من أنه لن يصيبك ضر من هذه الناحية، وإني لأنصح الآن بأن نرسل في أعقاب هذا الرسول مَن يقبض عليه، ثم نسأله ونشدد عليه في السؤال لمعرفة من الذي كلفه بأن يأمرنا بإطاعة الملك سميرديس.»

ما إن انتهى بريكساسبيس من كلامه حتى استصوَب قمبيز مشورته، وأرسل في مطاردة ذلك الرسول، فقبض عليه وجِيء به إلى الملك، فقال له بريكساسبيس: «أيها السيد، لقد حملت إلينا رسالة وقلت إنها من سميرديس بن كوروس. إذن فلترد على سؤالي بغاية الصراحة، ثم تنصرف في طريقك دون أن يصيبك أي أذى؛ هل مثُلت في حضرة سميرديس وأصدر إليك هذه الأوامر بنفسه؟ أم تلقيتها من أحد موظفيه؟» فأجاب الرسول يقول: «الحقيقة أن عينيَّ لم تقعَا على سميرديس بن كوروس منذ أن قاد الملك قمبيز الفرس إلى مصر، أما الذي أصدر إليَّ هذا الأمر فهو الرجل المجوسي الذي تركه قمبيز مشرفًا على إدارة قصره؛ إذ قال لنا: إن سميرديس بن كوروس يبعث إليكم بهذه الرسالة.» لم ينطق الرسول في كلامه هذا بغير الحقيقة الحرفية. عند ذلك قال قمبيز لبريكساسبيس: «ها أنت ذا بريء الآن من كل لوم يا بريكساسبيس؛ لأنك نفذت أمري كرجل مخلص. ولكن خبرني الآن، مَن مِن الفرس يمكن أن يكون قد انتحل اسم سميرديس وتألَّب ضدي؟» فأجابه بقوله: «أعتقد يا مولاي أنني فهمت سر المسألة كلها: إن اللذين ثارَا ضدك هما المجوسيان باتيزيثيس الذي وكَّلتَ إليه الإشراف على قصرك، وأخوه الذي يُدعى سميرديس.»

ما إن سَمِع قمبيز اسم سميرديس حتى أدرك لتوِّه صدق كلام بريكساسبيس، وتحقيق الحلم الذي رآه هو نفسه في منامه، أقصد الحلم الذي رآه فيما مضى؛ مِن أن شخصًا ظهر له في نومه وأخبره بأن سميرديس جلس على عرش المملكة، وطاول برأسه السماء، فلما رأى أنه قَتَل أخاه دون ذنب ولا جريرة، بكى وحزِن على فقده إياه. بعد ذلك استشاط غيظًا وهو يفكر في حظه العاثر، فقفز بسرعة إلى ظهر جواده معتزمًا السير بجيشه بغاية السرعة إلى سوسا لمقاتلة ذلك المجوسي. وبينما هو يقفز سقط رباط غمد سيفه، فدخلت سن السيف العارية في فخذه وجرحته في نفس الموضع الذي جرح فيه الإله المصري أبيس. فلما أحس قمبيز بأنه أصيب بجرح الموت، سأل عن اسم البلد الذي هو فيه فقالوا له إنه «أجباتانا». وكان وحي بوتو قد أخبره من قبل بأنه سيقضي آخر

أيامه في أجباتانا، فظن أنه سيموت في مدينة أجباتانا السورية. وعلى ذلك، عندما سمع قمبيز اسم ذلك المكان: أرجعته الصدمة المزدوجة إلى صوابه: الصدمة التي أصابته عندما علم بثورة المجوسي، وصدمة جرحه. وبناء على كل هذا، أدرك الآن قصد الوحي، فقال: «إذن فقد قُدِّر لقمبيز بن كوروس أن يموت هنا.»

فلما رأى الفرس ملكهم يبكي مزقوا ثيابهم التي كانوا يرتدونها، وصاحوا مولولين بعد ذلك، وإذ تعفن العظم وسرت الغنغرينا في الفخذ، مات قمبيز بن كوروس. وقد ظل في الحكم سبع سنوات وخمسة شهور، ولم يترك وراءه ذرية من البنين ولا من البنات. ولم يثق رجال الفرس الذين سمعوا كلامه، في شيء مما قاله فيما يتعلق بأن القابض على زمام الحكم رجل مجوسي، ولكنهم اعتقدوا بأنه إنما يقول هذا حقدًا على أخيه سميرديس، وأنه اخترع قصة موته لتثور ضده جميع الأمة الفارسية بقوة السلاح. وهكذا كانوا متأكدين من أن سميرديس بن كوروس هو الذي ثار ضد قمبيز وتبوأ العرش؛ لأن بريكساسبيس أنكر إنكارًا باتًّا أنه قتل سميرديس؛ إذ من الخطر عليه بعد موت قمبيز أن يعترف بأن سميرديس بن كوروس قد لقي حتفه على يديه.

مات قمبيز، وحكم المجوسي آمنًا مُتخِذًا شخصية سميرديس بن كوروس. وهكذا حكم الشهور السبعة التي تُكمِل السنة الثامنة من حكم قمبيز. وفي مدة حكمه نال رعاياه خيرًا كثيرًا على يديه، حتى إنه عندما مات حزن عليه جميع سكان آسيا حزنًا بالغًا، ما عدا الفرس؛ لأنه بمجرد أن جلس على العرش أرسل إلى كل أمة خاضعة لحكمه يمنحها الإعفاء من الخدمة العسكرية ومن الضرائب لمدة ثلاث سنوات.

الفصل الرابع والعشرون

كيف ارتقى داريوس إلى العرش

في الشهر الثامن لحكم سميرديس اكتُشِفت شخصيته بهذه الطريقة: كان بفارس رجل يُدعَى أوتانيس بن فارناسبيس، لا يقل عن أي فارس آخر في الجاه أو في الثراء، وكان أوتانيس هذا أول من ساورته الشكوك في أن ذلك المجوسي هو سميرديس بن كوروس حقيقة، فأخذ يستقصي عن حقيقة نسبه، فرأى أن الملك لا يُغادر القلعة إطلاقًا، ولا يستدعي قط إلى حضرته أي أحد من نبلاء الفرس، فساقه هذا إلى الحدس بالحقيقة، وما إن بلغت شكوكه ذروتها حتى عمد إلى الطريقة الآتية. كان له ابنة تدعَى فايديما، كانت زوجةً لقمبيز، ثم تزوجها ذلك المجوسي مع زوجات قمبيز الأخريات. فبعث أوتانيس رسالة إلى ابنته هذه يطلب منها أن تخبره: «مَن يكون ذلك الذي تقاسمه الفراش؟ هل هو سميرديس بن كوروس، أو هو رجل آخر؟» فردت عليه فايديما بأنها لا تعرف؛ إذ لم يسبق أن رأت سميرديس بن كوروس، ولذلك لا يمكنها أن تحكم على شخصية الرجل الذي تقاسمه الفراش. فأرسل إليها أوتانيس مرة ثانية يقول: «إذا لم تكوني تعرفين سميرديس بن كوروس أنت نفسك، فاسألي الملكة أتوسا عمن يكون ذلك الرجل الذي تعيشان معه؛ فلا يمكن أن تجهل شقيقها»، فأجابت الابنة بقولها: «لا أستطيع الوصول إلى التحدث مع أتوسا، ولا مع أية امرأة أخرى ممن يعشن في القصر؛ فما إن استولى هذا الرجل على زمام الملك حتى فرَّق بين كل مِنَّا والأخرى، وخصص لكل واحدة حجرة منفصلة عن حجرة زميلتها.»

زاد هذا في وضوح الموقف أمام أوتانيس، ومع ذلك فقد بعث برسالة ثالثة إلى ابنته يقول فيها: «ابنتي، إنك من دم نبيل، ولن تُحجمي عن القيام بعمل خطر يأمرك والدك بأن تقومي به. إذا لم يكن هذا الرجل هو سميرديس بن كوروس، وأنه هو الرجل الذي أظنه اغتصب الملك، فلا يجب أن تَمُر جرأته في اتخاذك زوجة له والحكم على الفرس، دون

أن يُعاقَب. وعلى هذا، افعلي ما آمرك به. عندما يقضي الليلة معك انتظري حتى تتأكدي من أنه قد استغرق في النوم، ثم تحسسي أذنيه، فإن كان له أذنان فاعلمي أنه سميرديس بن كوروس. وإن كان بغير أذنين فكوني على يقين من أنه سميرديس المجوسي»، فردت عليه فايديما تقول إنه لمن الخطر الجسيم إن كان بغير أذنين وقُبِض عليها وهي تبحث عنهما، إنها لتعلم علم اليقين أنه سوف يقتلها من أجل هذا ما في ذلك ريب، وبرغم هذا فستقوم بهذه المغامرة. وهكذا حصل أوتانيس على وعد من ابنته بأنها ستقوم بما طلبه منها. كان سميرديس المجوسي قد قُطِعت أذناه في عهد كوروس بن قمبيز؛ عقابًا له على جريمة دنيئة. وعلى ذلك اعتزمت فايديما ابنة أوتانيس القيام بما وعدت به والدها عندما جاء دورها لتبيت في فراش المجوسي (في فارس تنام زوجات الرجل معه كلٌّ حسب دورها). وبينما كانت بين أحضانه انتظرت حتى راح في نوم عميق وتحسست أذنيه، فإذا بها تجده بغير أذنين، وما إن بزغ الفجر حتى أرسلت كلمة بهذا إلى والدها.

بعد ذلك استدعى أوتانيس إليه اثنين من وجهاء الفرس هما: أسباثينيس، وجوبرياس، وهما رجلان يمكن الثقة بهما تمامًا في مثل هذا الموضوع، وأفضى إليهما بكل شيء، وكان هذان من ناحيتهما قد ساورتهما الشكوك من قبل في هذه المسألة، ولذلك عندما بسط أوتانيس قضيته وحججه إليهما، انضمَّا إلى رأيه في الحال، واتفقوا ثلاثتهم على أن يختار كل واحد منهم لنفسه رفيقًا فارسيًّا يثق به أعظم ثقة. فاختار أوتانيس أنتافيرنييس، واختار جوبرياس ميجابوزوس، أما أسباثينيس فاختار هودارنيس. فلما صار عددهم ستة تصادف أن وصل داريوس بن هوستاسبيس إلى سوسا قادمًا من فارس حيث كان والده حاكمها، وعند مجيئه رأى الستة أنه من الخير أن يُشرِكوه معهم في ذلك الأمر.

وإذ صار الرجال سبعة اجتمعوا معًا ليحلفوا اليمين ويتحدثوا معًا، ويبسطوا وجهات النظر، فلما جاء دور داريوس في الكلام ليُفضي إليهم بما يجول في خاطره قال: «كنت أظن أن لا أحد غيري يعرف أن سميرديس بن كوروس ليس على قيد الحياة الآن، وأن سميرديس المجوسي هو الذي يحكمنا، وعلى ذلك أسرعت بالمجيء إلى هنا؛ لتدبير مقتل ذلك المجوسي، ولكن بما أن الأمر — كما يبدو — معروفٌ لكم جميعًا وليس لي وحدي فمن رأيي أن نعمل في الحال دون أي تأخر؛ إذ التأخر يَضُرُّ بخطتنا.» فقال أوتانيس: «يا ابن هوستاسبيس، إنك ابن أب شجاع، ويليق بك أن تُبدِي أنك شجاع وجريء مثله، غير أنه يجب أن تلتزم جانب الحذر في هذا الأمر، لا يجب الإسراع، بل العمل بحزم، ينبغي

أن نزيد عددنا قبل أن نضرب ضربتنا.» فأجاب داريوس: «ليس الأمر كما ترى؛ إذ يجب أن نعلم نحن الحاضرين هنا أننا إن أخذنا برأي أوتانيس فسنموت أشنع ميتة؛ إذ سوف يُفشي شخص ما خطتنا إلى المجوسي طمعًا في الحصول على مكافأة مالية. كان يجب أن نحتفظ بالمسألة فيما بيننا، ونقوم بالمغامرة وحدنا. ولكن بما أنك قررت أن تُشرِك معك آخرين، وتُطلِعهم على هذا السر كما أطلعتنا عليه، فإني أنصح بالقيام بالعمل اليوم، وإذا مر يوم واحد ولم تعملوا فتأكدوا من أنني لن أسمح لأحد بأن يشي بي لدى المجوسي، بل سأذهب إليه بنفسي وأتهمكم جميعًا علنًا.»

لما رأى أوتانيس أن داريوس متحمس إلى تلك الدرجة، قال: «ولكن بما أنك تجبرنا على العمل اليوم دون أن تمهلنا يومًا واحدًا فأخبرنا بربك كيف ندخل إلى القصر لنهجم عليه؟ إن الحراس كما تعلم في كل مكان — فإذا لم تكن قد رأيتهم بعينَي رأسك، فلا بد أنك سمعت عنهم — فكيف يتسنى لنا أن ندخل وسط أولئك الحراس؟» فأجاب داريوس: «يا أوتانيس، هناك أشياء كثيرة سهلة عند التنفيذ بينما يَصعُب شرحها بالألفاظ، كما أن هناك أشياء سهلة عند الكلام ولا يتم بخصوصها أي عمل نبيل بعد الكلام. أما عن أولئك الحراس فإنك تعلم أننا لن نجد صعوبة في المرور من بينهم، إن رُتبنا وحدها كفيلة بأن تجعلهم يسمحون لنا بالدخول، أما الخوف والتردد فيحثانهم على رفض طلبنا. وعلاوة على هذا فإن لي أقوى حجة في الدخول؛ إذ يمكنني أن أقول إنني رجعت الآن فقط من فارس ومعي رسالة من أبي يجب أن أُفضِي بها إلى الملك. يجب على المرء أن يكذب عندما تقتضي الضرورة هذا، فلا يقول الناس لأنهم يرون الكسب في خداع الآخرين، ويقولون الصدق لأنهم يأملون في الحصول على شيء من قولهم الصدق، كما أنهم يأملون في أن يصدقهم الناس بعد ذلك في أمور أكثر أهمية. وهكذا رغم تناقض سلوكهم فإن الغاية واحدة، فإذا لم تكن هناك مكاسب يسعى المرء وراءها فإن الصادقين يكذبون بقدر ما يكذب الكذابون، ويصدق الكذابون بقدر ما يصدق الصادقون؛ فالحارس الذي يسمح لنا بالدخول بسهولة سينال مكافأته يومًا ما، والويل لمن يقاومنا؛ إذ يجب أن نعتبره عدوًّا، فندخل أمامه بالقوة، ونتخذ طريقنا ونذهب مباشرة لتنفيذ عملنا.»

بعد أن انتهى داريوس من كلامه هذا، قام جوبرياس، وقال: «أصدقائي الأعزاء، متى تسنح لنا فرصة أنسب من هذه لاستعادة المملكة؟ وإذا لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية، فلا أقل من أن نموت ونحن نحاول استعادتها. تصوروا أننا، نحن معشر الفرس، نخضع لحكم رجل ميدي مجوسي، وأي نوع من الرجال هو؟ إنه رجل قُطِعت أذناه! كان بعضكم

حاضرًا وقمبيز راقد على فراش الموت، تذكروا اللعنات الكثيرة التي صبَّها على الفرس إن لم يقوموا بمجهود لاستعادة المملكة. والحقيقة أننا لم نهتم كثيرًا بما قاله؛ لأننا خلناه يتكلم بدافع العداوة لِيحثَّنا على الثورة ضد أخيه، والآن ها أنا ذا أُعطي صوتي للعمل بحسب نصيحة داريوس، هيا، سيروا كتلة واحدة إلى القصر، من القصر الذي نحن فيه الآن، ومن ثَم ننقض على ذلك المجوسي.» هكذا قال جوبرياس، فاستحسن الآخرون رأيه.

بينما كان هؤلاء السبعة يتشاورون معًا تصادف أن وقعت هذه الأحداث: كان المجوسيان يُفكران في خير ما يفعلانه، فاستقر رأيهما لعدة أسباب، على أن يُصادِقا بريكساسبيس. كانَا يعلمان كم أثاره قمبيز في قسوة، وقتل ابنه بسهم، كما كانَا يعلمان أنه هو الذي قتل سميرديس بن كوروس، وأنه الشخص الوحيد الذي يعلم سر مقتل ذلك الأمير. كذلك وجدَا أن جميع الفارسيين ينظرون إليه نظرة احترام وتوقير، ولذلك استدعياه إلى حضرتهما واتخذاه صديقًا لهما، وجعلاه يرتبط بوعد ويُقسِم بالأيمان المُغلظة ألا يفشي التدليس الذي قامَا به على الشعب الفارسي، وألا يكشفه لأحد قط، وتعهَّدَا هما أنفسهما بأن يعطياه في تلك الحال آلاف الهدايا من كل نوع وصنف، وعلى هذا وافق بريكساسبيس. فلما رأى المجوسيان أنهما أفلحا في إغرائه إلى هذه الدرجة، انتقلا إلى اقتراح آخر، وقالا إنهما سيجمعان الفرس عند سور القصر، وأن يصعد بريكساسبيس إلى أحد الأبراج ويخطب في الشعب من ذلك المكان، ويقول لهم إن الذي يحكمهم هو سميرديس بن كوروس ولا أحد سواه. أمراه بأن يفعل هذا لأن بريكساسبيس كان رجلًا عظيم الشأن بين مواطنيه، وكثيرًا ما أعلن على الملأ أن سميرديس بن كوروس لا يزال حيًّا، وأنكر أنه قتله.

أبدى بريكساسبيس استعداده لتنفيذ مشيئتهما فيما يختص بهذا الموضوع، وعلى ذلك جمع المجوسيان الشعب وجعلا بريكساسبيس يصعد إلى قمة البرج، وطلبَا منه أن يُلقِي خطابه، غير أن بريكساسبيس نسي كل ما أوصاه به المجوسيان، وبدأ خُطبته بأخايمينيس، وتسلل منه إلى أن بلغ حُكم كوروس، وعندما وصل بعد ذلك بالتالي إلى حُكم هذا الملك عدَّد جميع الخدمات التي قدمها للفرس، ومن ثَم أخذ يُقَرِّر الحقيقة التي أخفاها خوفًا على حياته؛ إذ كان في إذاعتها خطر أي خطر، بَيْد أن الضرورة اضطرته الآن إلى أن يفشي كل شيء، فأوضح كيف أجبره قمبيز على قتل سميرديس بن كوروس، وأن فارس يحكمها الآن رجلان مجوسيان. وأخيرًا طفق يصب اللعنات الجمة على الفرس إن لم يعملوا على استعادة مملكتهم والانتقام من المجوسيين. وبعد أن أفضى بكل هذا،

ألقى بنفسه رأسًا من ذلك البرج إلى الهوة أسفله. وهكذا كانت نهاية بريكساسبيس الذي كان رجلًا ذائع الصيت بين الفرس طول حياته.

الآن وقد اعتزم الفارسيون السبعة مهاجمة المجوسيين دون إبطاء قدموا الصلاة أولًا للآلهة، ثم انطلقوا صوب القصر، ولم يكونوا يعلمون بعد بما فعله بريكساسبيس. وبينما هم في الطريق إلى القصر بلغتهم تلك الأنباء بعد أن قطعوا حوالي نصف المسافة إلى القصر. وعلى ذلك انتحوا جانبًا بعيدًا عن الطريق وتشاوروا فيما بينهم، فقال أوتانيس وحزبه إنه يجب عليهم أن يُرجئوا هذا الأمر الآن، وألا يقوموا بالهجوم والأحوال في مثل ذلك الغليان، وأما داريوس وأتباعه فكان رأيهم ضد أي تغيير في الخطة، ورغبوا في التوجه مباشرة، وعدم إضاعة أية لحظة. وبينما هم في مناقشات وتَشاحُن إذ رأوا فجأة زوجين من النسور تطاردهما سبعة أزواج من الصقور، فمزقت الصقور النسور بمخالِبها ومناقيرها، فلما أبصر السبعة هذا المنظر وافقوا بصوت واحد على رأي داريوس. وإذ شجعهم هذا الفأل، أسرعوا بالانطلاق إلى القصر.

قوبل هؤلاء الرجال عند الباب كما كان داريوس يتوقع؛ فقد سمح لهم الحراس الذين لم يشكوا في أن وجهاء الفرس قد جاءوا لارتكاب جريمة بالدخول دون أية صعوبة — يبدو أنهم كانوا في حراسة خاصة من الآلهة — ولم يتقدم حارس واحد حتى ليسألهم أي سؤال. فلما وصلوا إلى القاعة الرئيسية التقوا ببعض الخصيان الذين كانت مهمتهم حمل الرسائل من الملك وإليه، فأوقفوهم وسألوهم عما يُرِيدون، بينما هددوا حراس الأبواب في الوقت ذاته للسماح لهم بالدخول. حاول السبعة الاستمرار في طريقهم غير أن الخصيان منعوهم، فما كان من هؤلاء الرجال، وقد شجع كل منهم الآخر بالعبارات الحماسية إلا أن استلُّوا خناجرهم وطعنوا بها كل من حاول الوقوف في طريقهم، ثم اندفعوا إلى بيت الذكور.

في ذلك الوقت كان المجوسيان كلاهما في الداخل يتشاوران في موضوع بريكساسبيس، فلما سَمِعا الضجة مع الخصيان وصياحهم المرتفع أسرعا بالخروج هما أنفسهما لينظُرا ما الخطب، فلما أبصرا الخطر المُحدِق بهما جريَا إلى الأسلحة، فاستطاع أحدهما أن يصل إلى قوس، وأمسك الآخر برمح، وعندئذٍ بدأ القتال في الحال، فوجد الذي تسلح بالقوس أنها لا تُجدِي نفعًا؛ لأن العدو كان على مسافة قريبة جدًّا لا تسمح باستخدام القوس، أما المجوسي الآخر فقاتل برمحه قتالًا عنيفًا فجرح اثنين من السبعة. أصاب أباثينيس في ساقه، وأنتافيرنيس في عينه، بَيْد أن جرح أنتافيرنييس لم يكن قاتلًا ومع ذلك فقد

كلَّفه فَقْد بصر تلك العين. فلما رأى المجوسي الآخر أن قوسه عديمة الجدوى جرى هاربًا إلى حجرة توصل إلى دار الذكور، وأراد أن يقفل الباب خلفه. غير أن اثنين من السبعة دخلا معه، وهما داريوس وجوبرياس، فأمسك هذا الأخير بالمجوسي وتصارع الاثنان على الأرض بينما وقف فوقهما داريوس حائرًا لا يدري ماذا يفعل؛ إذ كان الظلام حالكًا، فسأله جوبرياس: «فيم كسل يدك يا هذا؟!» قال: «أخشى إن طعنت أن أُصيبك بأذى.» فقال جوبرياس: «اضرب ولا تخشَ شيئًا حتى لو أصابت الضربة كلينا.» فهوى داريوس بخنجره، ولِحُسن الحظ قُتِل المجوسي.

وهكذا قُتِل المجوسيان. فقطع السبعة رأسيهما وتركوا جريحيهما في القصر؛ لأنهما عجزَا عن السير، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لكي يحرسا القلعة. وخرجوا من الأبواب يحملون الرأسين في أيديهم، وهم يصيحون مُحدِثين جلبةً وصخبًا، فصاحوا يخبرون الفرس باجتماعهم، وما أسفر عنه ذلك الاجتماع، وأبرزوا لهم رأسَي المجوسيَّين، وفي نفس الوقت أخذوا يقتلون كل مجوسي يقع في طريقهم. فلما علم الفرس بما فعله السبعة، وعرفوا خداع المجوسيين، وجدوا من الصواب أن يقتدوا بالمثل الذي قُدِّم لهم، فاستلوا خناجرهم وأعملوا التقتيل في المجوس أينما وجدوهم. هكذا كان هياجهم، ولو لم يُخيِّم الليل بظلامه على الكون لما بقي هناك مجوسي واحد على قيد الحياة. هذا ولا يزال الفرس جميعًا يحافظون على ذكرى هذا اليوم، ويحتفلون به أكثر من أي يوم آخر في السنة كلها. أصبحت هذه الذكرى عيدًا عظيمًا يُسمُّونه «عيد قتل المجوس»، ولا يجرؤ أي مجوسي على الخروج من بيته طيلة هذا العيد، بل يبقى بمنزله اليوم كله.

بعد مُضِيِّ خمسة أيام على هذا الحادث، وقد سكن الهياج، اجتمع المتآمرون معًا ليتشاوروا في مصير الأحوال إذ ذاك. فأُلقيت الخطب في ذلك الاجتماع. ولم يؤمن الأغارقة بصحة ما ورد في كثير من تلك الخطب، ولكنها برغم هذا قد أُلقيت. فأشار أوتانيس بإسناد إدارة الشئون العامة إلى الشعب بأجمعه، فقال: «أما عن نفسي، فيبدو لي أن من الصواب ألا نُسلِّم مقاليد حُكمِنَا إلى شخص واحد؛ فليس حكم الفرد صالحًا ولا سارًّا. إنكم لا تنسون إلى أي حد ذهب قمبيز في كبريائه وطغيانه، كما لا تنسون غطرسة هذين المجوسيَّين التي لمستموها أنتم بأنفسكم. أما حكم الكثرة فيمتاز أولًا بأجمل الأسماء وهو: «حكومة السلطات المتكافئة»، وفضلًا عن هذا فهو بعيد عن كل الحماقات التي يرتكبها الملك المطلق السلطة. وتُملأ كراسي الحكم في هذه الحكومة بالاقتراع. فالحاكم مسئول عما

يفعله، والتنفيذ موكول إلى عامة الشعب. وعلى هذا أُعطي صوتي في جانب إلغاء الملكية ورفع الشعب إلى مناصب السلطة؛ لأن الشعب هو الكل في الكل.»

هكذا كانت إحساسات أوتانيس، فقام بعده ميجابوزوس وخطب مُوصِيًا بإقامة الأوليجاركيه أو حكم الأقلية، فقال: «أشار أوتانيس في كل ما قاله بإلغاء الملكية، وإني لأوافقه في هذا تمام الموافقة، ولكني لا أرى بوصيته بأن نعهد بالحكم إلى الشعب خيرَ مشورة. فما من شيء يخلو من التفاهم ولا أحد أكثر شرورًا من السوقة غير الخاضعين لنظام أو قانون، ومن الحماقة غير المحتمَلة أن يسعى الناس إلى الهروب من شرور ملك طاغية، فيسلموا أنفسهم لشرور الطغامِ المطبوعين على الفظاظة وعدم الانقياد، فمهما فعل الطاغية فهو على الأقل عالِم بما يفعله. أما الرعاع فجهلة لا يعرفون شيئًا على الإطلاق؛ إذ أنى تكون هناك معرفة لدى العوام غير المتعلمين وعديمي الإحساس الطبيعي بما هو صواب ومناسب؟ سرعان ما نجدهم يندفعون للتدخل في شئون الدولة اندفاع مجرى الماء المفعم بماء الشتاء، وفي تلك الحال يُربِكون كل عمل. دعوا الديموقراطية تحكم أعداء فارس، أما نحن فلننتخب من بين مواطنينا عددًا من الأكفاء، ونضع الحكم في أيديهم، عندئذٍ نكون نحن أنفسنا بين الحكام، وتكون السلطة قد وُكِلَت إلى خير الرجال، والأصلح الأوفق، هو أن تسود أفضل المشورات حكومة الدولة.»

هذا هو ما نصح به ميجابوزوس. ثم قام بعده داريوس، فقال: «ها قد أجاد ميجابوزوس في كل ما قاله عن الديمقراطية على ما أظن. ولكنه لم يُحسِن الكلام عن حكم الأقلية، فلنأخذ الأنواع الثلاثة للحكومات، وهي: الديمقراطية، والأوليجاركيه أو حكم الأقلية، والملكية، ولنفرض أن كل حكومة منها في خير أنظمتها، عندئذٍ لا أرى إلا أن تتفوق الملكية على الحكومتين الأخريين. وأية حكومة أفضل من حكومة خير رجل في المملكة كلها، فنصائح هذا الرجل خَيِّرة مثله، ولذا فهو يحكم جموع الشعب بما يرضي نفوسهم، وفي نفس الوقت، تبقى خططه حيال الأشرار في طي الكتمان، أكثر مما يحدث في نوعَي الحكومة الآخرَين. ويحدث عكس هذا في حكومة الأقلية؛ حيث يتنافس الأشخاص في خدمة الصالح العام، فيؤدي هذا إلى خلق العداوات والأحقاد بين رجل وآخر، وإذ يريد كل منهما أن يكون القائد وأن ينفذ آراءه. ومن هنا تأتي المنازعات العنيفة التي تتطور إلى تشاحن سافِرٍ غالبًا ما ينتهي بسفك الدماء، ومن المؤكَّد أن تتحول الحكومة بعد ذلك إلى المَلكية. وعند ذاك تبرهن الملكية على أنها أفضل نظم الحكم. وكذلك الحال في الديمقراطية، فلا بد فيها من سوء الإدارة، بَيْد أن سوء الإدارة هذا، لا يسوق إلى العداوات، بل إلى الصداقات

بين أطرافها، الذين يجب أن يرتبط بعضهم ببعض ارتباطًا وثيقًا لتنفيذ دناءاتهم، وهكذا تستمر الأحوال على ذلك المنوال حتى يظهر رجل صديق لعامة الشعب، ويضرب على أيدي المُفسِدين، وسرعان ما يُعجَب الجمهور بذلك الرجل ويُعيِّنه ملكًا. وهكذا الحال هنا أيضًا؛ إذ يتضح أن الملكية هي خير أنظمة الحكومات، وأخيرًا لكي نلخص الموضوع في كلمة، أسألكم: مِن أين نلنا الحرية التي نتمتع بها؟ هل منحتنا إياها الديمقراطية أو الأوليجاركيه أو الملكية؟ ولَمَّا كان رجل واحد هو الذي أعاد إلينا حريتنا، فإن حُكمي إذن، هو أن نحافظ على حكم الفرد. وبصرف النظر عن هذا، يجب ألا نُغيِّر في قوانين آبائنا عندما نراها عادلة؛ إذ لا يصح أن نُحدِث فيها تغييرًا ما على الإطلاق.»

وهكذا كانت الآراء التي عُرِضت في ذلك الاجتماع. أما الأربعة الفارسيون الآخرون فأعطوا أصواتهم في صالح الرأي الأخير. فلما رأى أوتانيس الذي أراد أن يمنح مواطنيه حكومة ديمقراطية أن الأغلبية ضده، نهض ثانيةً وقال هكذا أمام المجتمعين: «إخواني المتآمرين! من الجلي أن الملك الذي سيُنتَخب، سيكون أحدنا، سواء اختِير بالاقتراع أو انتَخب عامةُ الشعب مِنَّا مَن يريدون أن يحكمهم، أو بأية طريقة أخرى، وبما أنني لا أعتزم أن أَحكم أو أُحكَم، فلن أرشح نفسي لهذا المنصب. سأنسحب على شرط واحد، وهو ألا يفرض أحدكم سلطانه عليَّ أو على أحد من ذريتي إلى الأبد.» فوافق الستة الآخرون على هذا الشرط، وانسحب أوتانيس، ولم يدخل في المسابقة. ولا تزال أسرة أوتانيس إلى اليوم، هي الأسرة الحرة الوحيدة في فارس التي لا يخضع أفرادها لحكم الملك إلا بحسب اختيارهم، ومع ذلك فمفروض عليهم أن يعملوا بقوانين البلاد شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الفرس.

تشاوَر الستة معًا في أنسب طريقة لاختيار الملك، وفيما يختص بأوتانيس، فإذا نال أحد المملكة، أعطى أوتانيس ونسله من بعده في كل عام — كعلامة شرف خاصة — ثوبًا ميديًّا وغيره من الهدايا المعتبرة أفخم هدايا شرفية في فارس. قرروا منحه هذه الهدايا؛ لأنه أول من فكر في المؤامرة، وهو الذي جمع المتآمرين السبعة معًا. ولذلك مُنِحت هذه الامتيازات لأوتانيس بصفة خاصة. أما الامتيازات الآتية فهي عامة لجميعهم، وهي: يُمنَح كل فرد منهم حرية الدخول إلى القصر بغير إذن، إلا إذا كان الملك مع إحدى زوجاته، وألا يُسمَح للملك بالزواج من أية أسرة خلاف أسرات المتآمرين. أما تعيين الملك فيكون بهذه الطريقة: يركب المرشحون الستة جيادهم في صبيحة اليوم التالي، ويخرجون إلى ضواحي المدينة، والذي يَصهل جواده أولًا بعد أن تشرق الشمس، يُعيَّن ملكًا.

كان لداريوس سايس عبدٌ حادُّ الذكاء اسمه أيباريس. فبعد أن انفض الاجتماع أرسل داريوس في طلبه، وقال له: «اسمع يا أيباريس سيُنتَخب الملك بهذه الطريقة، سنركب جيادنا، ومَن مِنَّا يصهل جواده أولًا بعد أن تُشرِق الشمس، فهو الذي سيحظى بالمملكة. فإن كنت ماهرًا حقًّا فدبر حيلة يمكن أن تصير بها الجائزة من نصيبنا، وليس من نصيب الآخرين.» فأجاب أيباريس: «حقًّا، يا سيدي، إن كان على هذا يتوقف أن تكون ملكًا فليطمئن قلبك ولا تخَف شيئًا؛ أعرف تعويذة أكيدة المفعول ولا تُخفِق إطلاقًا.» فقال داريوس: «إن كنت حقًّا تعرف شيئًا من هذا القبيل فأسرع باستخدامه؛ لأن المسألة لا تتحمل التأخير فستكون التجربة غدًا.» فلما سمع أيباريس هذا فعل هكذا: عندما أقبل الليل أخذ إحدى الأفراس، وكانت أحب فرس إلى الجواد الذي سيركبه داريوس، فربطها في ضاحية المدينة ثم ساق جواد سيده إلى ذلك المكان. وأخذ يدور به حول الفرس عدة مرات، مقتربًا بالجواد من الفرس في كل مرة، حتى التقى الحصان بالفرس أخيرًا.

عندما أصبح الصباح تقابل الستة معًا حسب اتفاقهم على ظهور جيادهم، وركبوا إلى الضاحية: فلما اقتربوا من الموضع الذي رُبِطت فيه الفرس في الليلة السابقة، قفز جواد داريوس إلى الأمام وصهل. وفي نفس تلك اللحظة لمع البرق في السماء؛ إذ كانت السماء صافية الأديم، وتبعه قعقعة الرعد … يبدو أن السماء كانت تتآمر مع داريوس، وبهذا عينته ملكًا. عندئذٍ قفز النبلاء الخمسة من فوق ظهور جيادهم في وقت واحد، وانحنوا أمام داريوس، واعترفوا به ملكًا.

عقد داريوس بعد ذلك زيجات من أرقى الطبقات تبعًا لآراء الفرس، فتزوج باثنتين من بنات كوروس، أتوسا وأرتوستوني. وقد سبق لأتوسا أن تزوجت مرتين؛ إذ كانت في الأصل زوجة شقيقها قمبيز، ثم زوجة للمجوسي. أما أرتوستوني فكانت عذراء. كما تزوج بارموس ابنة سميرديس بن كوروس، وكذلك بابنة أوتانيس التي اكتشفت سر ذلك المجوسي. ولما توطَّد سلطان داريوس في جميع أرجاء المملكة، كان أول عمل قام به هو أن أقام تمثالًا من الحجر يُمثِّل رجلًا على ظهر جواد، نقشت تحته هذه العبارة: «داريوس بن هوستاسبيس، بمساعدة جواده (وبعد هذه، اسم الحصان) وسايسه الطيب أيباريس هو الذي مكنه من أن ينال مملكة الفرس.»

أقام داريوس هذا التمثال في فارس، وبعد ذلك شرع في تكوين عشرين حكومة من النوع الذي يسميه الفرس satrapies، وعيَّن لكل واحدة منها حاكمًا، وحدد الجزية التي يدفعها مختلف الأمم له.

لما كان الهنود أكثر عددًا من أية أمة نعرفها، فقد كانوا يدفعون جزية تفوق ما كان يدفعه أي شعب آخر، وهي ثلاثمائة وستون تالنتًا من تبر الذهب.

ولو حُوِّلَت الأموال البابلونية إلى نفس هذه الموازين الأيوبية لبلغت تسعة آلاف وخمسمائة وأربعين من هذه التالنتات. ولو كان الذهب قدر الفضة ثلاث عشرة مرة، لبلغ وزن تراب الذهب أربعة آلاف وستمائة وثمانين تالنتًا. وبإضافة هذين المبلغَين إلى بعضهما يصير الدخل الذي يصل إلى داريوس سنة بعد أخرى أربعة عشر ألفًا وخمسمائة وستين تالنتًا من النقود الأيوبية، مع إهمال كسور التالنت.

هذا هو الدخل الذي كان داريوس يحصل عليه من آسيا وجزء صغير من ليبيا. ويحفظ الملك العظيم الجزية التي يحصل عليها بالطريقة الآتية: يصهر الذهب ثم يصبه وهو لا يزال سائلًا في قدور من الفخار، بعد ذلك ينزع القدور تاركًا الذهب كتلة صلبة على صورة سبيكة. وعندما يحتاج إلى نقود، يسك من السبائك التي لديه بحسب الحاجة.

الفصل الخامس والعشرون

بعض قصص غريبة

هاك الطريقة التي يحصل بها الهنود على كميات الذهب الكبيرة التي تُمَكِّنهم من إرسال تلك الكميات الهائلة من تبر الذهب إلى ذلك الملك في كل عام: يوجد في شرق الهند طريق مكون كله من الرمال؛ إذ تقع الصحراء الرملية في هذه الجهة من الهند، ويعيش وسط الرمال في هذه الصحراء نوع من النمل الضخم، يَقِل حجمه عن حجم الكلب، ولكنه أكبر من الثعلب. ولدى الملك الفارسي عدد من هذا النمل، صاده له الصيادون من تلك الأرض التي نتكلم عنها الآن. ويصنع ذلك النمل بيوته تحت سطح الأرض، وهو كالنمل الإغريقي الذي يُشبهُه في الشكل إلى حدٍّ كبير، يُخرِج أكوامًا من الرمل وهو يحفر جحوره، وذلك الرمل الذي يُخرِجُه النمل مملوء بالذهب،[1] وعندما يذهب الهنود إلى الصحراء لجمع هذه الرمال يأخذون معهم ثلاثة من الإبل ويُسَرِّجونها معًا، جاعلين ناقة في الوسط، وجملًا ذكرًا على كل من جانبيها، ويربطونها في خطام واحد يقودونها به. يجلس الراكب فوق الناقة، ويختارون لهذا الغرض ناقة قد وضعت مولودها حديثًا؛ لأن النياق تستطيع أن تجري بسرعة الحصان بينما تحمل أثقالًا أكثر مما يستطيع الحصان أن يحمل.

لما كان الأغارقة يعرفون شكل الجمل حق المعرفة فلن أتعب نفسي في وصفه، ولكنني سأوضح أشياء فاتَتْهم ملاحظاتها … للجمل في أرجله الخلفية أربع عظام فخذ، وأربعة مفاصل من مفاصل الركبة.

[1] لم تكشف الأبحاث الحديثة عن معلومات معقولة سواء بخصوص هذا الحيوان أو بخصوص الطباع التي تنسب إليه وربما كان أقرب حيوان إليه هو آكل النمل الذي يحفر جحوره في السهول الواقعة شمالي الهند.

بعد أن يستعد الهنود هكذا يخرجون في طلب الذهب، ويحسبون الوقت بالضبط بحيث يجمعون الذهب في أشد ساعات القيظ حرارة، تلك التي يختفي فيها النمل هربًا من الحر، وتكون حرارة الشمس، في تلك البقاع على أشدها في الصباح وليس في وقت الظهيرة كما هو الحال في أي مكان آخر، وتبلغ الحرارة أقصاها منذ أن تصل الشمس إلى ارتفاع معين في كبد السماء، حتى الساعة التي تقفل فيها السوق أبوابها. في تلك الفترة تكون حرارة الشمس أقسى مما هي في بلاد الإغريق ظهرًا، حتى ليُقال إن القوم يُبلِّلون أنفسهم بالماء في ذلك الوقت من النهار. أما في الظهر فحرارة الشمس في الهند مثل حرارتها في غيرها من الممالك. وبينما يقترب النهار من الغروب تكون الحرارة مساوية لحرارة الشمس في الصباح في البلاد الأخرى، ثم تزداد برودة الجو كلما اقترب المساء حتى يصير شديد البرودة.

عندما يصل الهنود إلى موضع الذهب يملئون «الزكائب» بالرمال، ثم يركبون الجمال عائدين بأقصى سرعة، ومع ذلك فإن النمل يشم رائحتهم كما يقول الفرس، ويندفع خارجًا من جحوره لمطاردتهم. ويقولون إن النمل يجري بسرعة لا يُباريه فيها أي حيوان آخر في العالم كله، وإذا لم يسرع الهنود ويقطعوا مسافةً طويلةً قبل أن يصل النمل إليهم فما من جَامِع ذهب يستطيع أن يفلت من أذاه. وفي أثناء الفرار تتعب ذكور الإبل التي ليست في سرعة إناثها، وتبدأ تجر أرجلها جرًّا، يفعل هذا أولًا أحد الجملَين، ثم يليه الجمل الآخر. أما الأنثى فتتذكر صغيرها الذي تركته وراءها، فلا تبطئ أو تكل. هذه هي الطريقة التي يحصل بها الهنود على معظم كميات الذهب تبعًا لرواية الفرس. أما الجزء الباقي فيُستَخرج من باطن الأرض حيث يوجد بكميات قليلة.

يبدو أن الطبيعة تحابي الأقطار النائية من الأرض فتمنحها أبهى المحاصيل كما حبت بلاد الإغريق فجعلتها تتمتع بجو معتدل أروع مما تتمتع به أية بلاد أخرى. وكما لاحظت أخيرًا توجد بالهند أقصى بقاع مأهولة إلى جهة الشرق، وجميع حيواناتها ذوات الأربع وطيورها أكبر من مثيلاتها في أي مكان آخر، ما عدا الخيول فقط؛ إذ تتفوق عليها الخيول الميدية المعروفة «بالنياسانية». كما أن الذهب يُستَخرج هناك بكميات وافرة، فيُستَخرج بعض منه من جوف الأرض، وبعض يُؤخَذ من الرمال التي تقذفها الأنهار، كما يؤخذ بعض آخر بالطريقة التي ذكرناها. وزيادة على هذا، تنمو بالهند

أشجار برية تُنتِج صوفًا أجمل من صوف الأغنام، ومن هذا الصوف النباتي يصنع الأهالي ملابسهم.[٢]

أما بلاد العرب فهي آخر بلاد مسكونة إلى جهة الجنوب، وهي البلاد الوحيدة التي تُنتِج اللبان الذكر، والمر المكي، وخيار الشنبر، والقرفة، والأفيون. ولا يحصل العرب على كل هذه الأشياء باستثناء المر المكي إلا بشق الأنفس، فيحصلون على اللبان الذكر بوساطة صمغ الجاوي الذي يأخذه الإغريق من الفينيقيِّين ويحصل هؤلاء بدورهم على «البهارات» بدلًا منه؛ وذلك لأن الأشجار التي تُنتِج اللبان الذكر تَحرُسها حيات مُجنَّحة صغيرة الحجم، مختلفة الألوان. وتتدلى من كل شجرة أعداد كبيرة من هذه الأفاعي، وهي من نفس نوع الثعابين التي تغزو مصر، ولا شيء يمكن أن يَطرُد هذه الحيات المجنحة عن أشجار اللبان الذكر سوى دخان الجاوي.

يقول العرب، إن الدنيا كلها ستمتلئ بهذه الحيات إذا لم يُسيطَر على تكاثرها بالطريقة التي يُسيطَر بها على تكاثر الثعابين العادية. والحقيقة أن القدرة الإلهية هي إحدى القوى التي يمكن للمرء أن يتوقعها من قبل، وإنها لذات تدبير حكيم؛ فإن الحيوانات الضعيفة المتصفة بالجبن والتي تقع فريسة لغيرها تلد صغارها بوفرةٍ زائدةٍ حتى لا ينقرض نوعها بسبب الأعداد الكبيرة التي تأكلها الحيوانات الأخرى منها. في حين نجد نتاج الحيوانات المفترسة قليلًا. فالأرانب مثلًا التي تصيدها الوحوش والطيور والإنسان كثيرة النسل بحيث تتفوق في هذه الناحية على أي حيوان آخر، ففي وقت واحد نجد في بطن الأرنب بعض الصغار المكسوة تمامًا بالفراء، وبعضًا آخر عاريًا تمام العُري، وبعضًا كامل التكوين في رحمها، في حين تكون قد حبلت من جديد بعد أن تكونت هذه الصغار في بطنها ولم تولد بعد. أما اللبؤة التي هي من أقوى وأجرأ الوحوش، فلا تلد إلا مرة واحدة طول حياتها، وتلد شبلًا واحدًا ليس غير، ولا تحبل بعده إطلاقًا؛ إذ تفقد رحمها في نفس الوقت الذي تلد فيه صغيرها؛ والسبب في هذا أنه بمجرد أن يبدأ الجنين في التحرك داخل الرحم يخدش جدار الرحم بمخالبه التي تفوق في حدتها مخالب أي حيوان آخر، وبمرور الوقت يكبر الجنين ويستمر في تمزيق الرحم أكثر فأكثر حتى إنه عندما يولد أخيرًا لا تكون في الرحم قطعة واحدة سليمة.

[٢] شجرة الصوف هي الاسم الألماني للقطن.

نعود ثانيةً إلى الأفاعي والحيات المجنحة في بلاد العرب. فلو تكاثرت بالسرعة التي تسمح لها الطبيعة بها لما استطاع رجل واحد أن يبقى على وجه الأرض. بَيْد أنه عندما يجتمع الذكر بالأنثى تقبض الأنثى على الذكر من رقبته في نفس لحظة الحمل، وما إن تمسك به حتى لا يستطيع الفكاك من قبضتها؛ إذ تعض رقبته ولا تتركها إلا بعد أن تقطعها، وهكذا يموت الذكر، غير أنه بعد مدة وجيزة تنتقم الصغار للأب من الأم؛ إذ تشق لنفسها طريقًا داخل الرحم وهي لم تولد بعد، ثم تشق لنفسها طريقًا آخر خارج بطن أمها. وبذا تخرج صغار الثعابين إلى العالم. وهناك حيات على عكس هذا وهي الحيات غير السامة، التي تضع بيضًا يفقس عددًا كبيرًا من الصغار. وتوجد الثعابين في جميع بقاع العالم، أما الحيات المجنحة فلا توجد في أي مكان غير بلاد العرب حيث تجتمع معًا، وبذا تبدو كثيرة العدد.

هذه هي الطريقة التي يحصل بها العرب على اللبان الذكر. أما طريقتهم في جمع خيار الشنبر فهي: يكسون جميع أجسامهم ووجوههم بجلود الثيران أو بأي نوع آخر من الجلد، ولا يترك كل منهم إلا فتحتين لعينيه، ثم يخرجون في طلب خيار الشنبر الذي ينمو في بحيرة غير بالغة العمق، وتزخر هذه البحيرة وشواطئها بالهوام وذوات الأجنحة التي تشبه الخفافيش إلى حدٍّ كبير، والتي تنقضُّ بفظاعة وبجرأة على فريستها فتمزق جسمها بمخالبها. وينبغي على العرب إذن أن يبعدوا هذه الحيوانات عن عيونهم طول الوقت الذي يجمعون فيه خيار الشنبر.

أما الطريقة التي يحصلون بها على القرفة فأغرب من هذه، فهم لا يعرفون أين تنمو أشجار القرفة، ولا أي الممالك تنتجها، غير أن البعض يجري وراء الاحتمالات ويروي أنها تأتي من البلد الذي تربَّى فيه باخوص. يقولون إن طيورًا ضخمة تحضر تلك العيدان — التي نُسمِّيها نحن الأغارقة «القرفة» تبعًا للاسم الذي يطلقه عليها الفينيقيون — تحملها عاليًا في الجو لتبني بها عِشاشها، فتلصقها ببعضها بنوع من الطين إلى حافة صخرة عالية لا تستطيع قدم إنسان أن تتسلق إليها. وعلى هذا فَلِكي يحصل العرب على القرفة يلجئون إلى هذه الحيلة: يجمعون كل الثيران والحمير ودواب الحمل الأخرى التي تَنفُق في بلادهم، ويقطعون أجسامها قطعًا كبيرة، يحملونها معهم إلى تلك البقاع، ثم يضعونها قريبًا من العِشاش، وينسحبون إلى مسافة بعيدة، وعندئذٍ تنقضُّ الطيور الكبيرة وتقبض على قطع اللحوم بين مخالبها، فتطير بها إلى أعشاشها التي لا تتحمل ثقل اللحم فتتهدم وتقع على الأرض، وحينئذٍ يرجع العرب فيجمعون القرفة التي تُصَدَّر بعد ذلك من بلاد العرب إلى الدول الأخرى.

الفصل السادس والعشرون

داريوس

من بين السبعة الفرس الذين ثاروا ضد المجوسي، فَقَد أنتافيرنيس حياته بسرعة عقب تلك الثورة بسبب عمل من أعمال الوقاحة؛ فقد رغب ذات يوم في أن يدخل القصر لإتمام عمل ما مع الملك. وكان القانون ينص على السماح لكل فرد ممن اشتركوا في الثورة ضد المجوسي بأن يدخل القصر بغير استئذان، إلا إذا كان الملك في خلوة مع إحدى زوجاته. وعلى ذلك لم يكن أنتافيرنيس بحاجة إلى أن يطلب الإذن له بالدخول إلى القصر؛ إذ بصفته أحد السبعة، يحق له أن يدخل بغير استئذان، ولكن بالرغم من هذا رفض الحاجب ورئيس الحُجَّاب السماح له بالدخول؛ بحجة أن الملك كان مع زوجته. غير أن أنتافيرنيس ظنهما يكذبان عليه، فاستلَّ مديته وقطع بها أنفيهما وآذانهما،[1] وعلقهما في لجام حصانه، ووضع اللجام حول رقبته، ثم تركهما.

دخل هذان الرجلان على الملك بحالتهما تلك، وذكرَا له كيف حدث ذلك لهما، فاضطرب داريوس خشية أن يكون هذا قد حدث باتفاق الزملاء الستة، فأرسل في طلب كل واحد منهم على انفراد، وسألهم عما إذا كانوا قد وافقوا على سلوك أنتافيرنيس، فلما علم من إجاباتهم أنه لم يحدث قط أي اتفاق بينه وبينهم، قبض على أنتافيرنيس وأولاده وجميع أقربائه القريبين؛ إذ اشتبه في أن يكون هو وأصدقاؤه على وشك القيام بفتنة. فلما قبض عليهم جميعًا، وقُيِّدُوا بالسلاسل كعابثين بالأمن محكوم عليهم بالإعدام، ظلت زوجة أنتافيرنيس تذهب إلى باب القصر، وتقف هناك باستمرار، وتبكي مر البكاء. فلما

[1] كانت طريقة العقاب هذه شائعة في الشرق. ويذكر جميع القراء كيف طبقها أفراد سيبوي الثائرون على مواطنينا ومواطناتنا في عام ١٨٥٧م.

أبصر داريوس أنها لا تكف عن البكاء أمام بابه، أخذته الشفقة عليها، فبعث إليها رسولًا يقول لها: «أيتها السيدة، إن الملك يمنحك هدية منه، حياة أحد أقاربك فاختاري من تريدينه من المقبوض عليهم.» ففكرت مليًّا قبل أن تُجِيب، ثم قالت: «إذا كان الملك يرغب في أن يهب لي حياة شخص واحد فقط فإني أختار أخي.» فلما بلغ الملك ردها، دُهِش وأرسل إليها ثانية يقول: «أيتها السيدة، إن الملك ليطلب منك أن تُخبريه لماذا تركت زوجك وأولادك وفضلت عليهم أخاك لتنقذيه من الموت؟ إنه ليس أقرب إليك من أولادك ولا أعز من زوجك.» فأجابت: «أيها الملك، إذا شاءت الآلهة حصلت على زوج آخر وعلى أولاد آخرين بعد موت هؤلاء، ولكن بما أن أبي وأمي ليسَا على قيد الحياة فمن المستحيل أن أحصل على أخ آخر. كانت هذه فكرتي عندما اخترت إنقاذ حياة أخي.» فبدا لداريوس أن هذه السيدة قد فكرت تفكيرًا حكيمًا، فمنحها علاوة على حياة أخيها، حياة ابنها الأكبر؛ إذ سُرَّ منها غاية السرور. ولكنه قتل جميع الباقين. وهكذا مات أحد السبعة بالطريقة التي ذكرناها، بعد الثورة بمدة وجيزة.

حدث ذات مرة، عندما قفز الملك داريوس من فوق ظهر جواده، أن الْتَوَت قدمه، فسبَّب له هذا الالتواء ألمًا بالغ القسوة؛ إذ خرجت عظمة المفصل من موضعها، وكان في بلاط الملك بعض من الأطباء المصريين الذين يعتبرهم داريوس أمهر أطباء العالم، وعلى هذا لجأ إلى مساعدتهم، بَيْد أنهم لَوُوا قدمه بطريقة فظيعة، واستخدموا معه منتهى العنف حتى زاد الألم قسوة، فظل الملك سبعة أيام وسبع ليالٍ لا يذوق للنوم طعمًا؛ إذ كان يعاني ألمًا مُبرحًا. وفي اليوم الثامن لبلواه كان أحد الفرس قد سمع قبل مبارحته ساردِيس عن مهارة الطبيب ديموكيديس الكروتوني، فأخبر داريوس بأمره، وعند ذلك طلب داريوس إحضاره إليه بغاية السرعة. فلما وجده من ذهبوا لإحضاره بين عبيد أورويتيس مُهمَلًا أحضروه إلى داريوس بحاله التي كان عليها، يرسف في الأغلال، ويرتدي أسمالًا بالية.

ما إن مثل ديموكيديس بين يدي الملك حتى سأله عما إذا كان يعرف الطب، فأجاب بقوله: «كلا يا مولاي»؛ إذ خشي إن هو أعلن عن نفسه أن يفقد كل أمل في رؤيته بلاد الإغريق ثانية. وبرغم هذا فقد أدرك داريوس أن هذا الرجل يستخدم الدهاء، وأنه يعرف الطب حقيقة، فأمر مَن جاءوا به بأن يُحضِروا إليه السياط وأسياخ الكي،[٢] وعند ذلك

[٢] كان فقء العين عقابًا فارسيًّا في الأزمنة القديمة كما هو كذلك في العصور الحديثة.

اعترف ديموكيديس، ولكنه قال في الوقت ذاته إن معرفته بالطب ليست شاملة، لقد عاش زمنًا ما مع أحد الأطباء، وبذا ألمَّ بعض الشيء بهذا الفن، ومع ذلك فقد عهد داريوس بنفسه إلى ذلك الطبيب، فاستخدم ديموكيديس الأدوية الشائعة لدى الأغارقة، واستبدل الطرق العنيفة التي كان يستعملها المصريون بطرق أخف. وبهذا مكَّن الملك أولًا من أن ينال قسطًا من النوم، ثم بعد وقت قصير جدًّا شُفِي داريوس شفاءً تامًّا بعد أن كان قد قطع الأمل في أن يستخدم قدمه تلك مرة أخرى. وعلى ذلك قدم الملك لديموكيديس قيدَين مصنوعَين من الذهب، وعندئذٍ سأله ديموكيديس عمَّا إذا كان يعني بهذا مضاعفة آلامه نظير إعادة صحته إليه. فسُرَّ داريوس من كلامه، وأمر خصيانه بأن يصحبوا ديموكيديس ليرى زوجاته، ففعل الخصيان ما أمرهم به الملك، وأخبروهن جميعًا بأن هذا هو الرجل الذي أنقذ حياة الملك، وبعد ذلك أخذت كل زوجة طبقًا وصارت تغرف به من صندوق مليء بالذهب فتقدم ما فيه إلى ديموكيديس الذي حصل على أموال كثيرة أيما كثرة لدرجة أن عبدًا يُدعَى سكيتون كان يسير وراءه ويجمع النقود الرسمية[3] التي كانت تسقط من الأطباق، فجمع بهذا كومة كبيرة من الذهب.

بعد أن عالج ديموكيديس داريوس في سوسا أقام هناك في بيت كبير، وكان يتناول طعامه يوميًّا على مائدة الملك، ولم يفتقر قط إلى شيء يشتهيه قلبه غير الحرية في أن يعود إلى وطنه، وقد تشفَّع لدى داريوس للأطباء المصريين الذي عالجوا الملك قبل مجيئه، فأبقى على حياتهم بعد أن كانوا على وشك الإعدام وخزًا بأسنة الحِراب؛ لأن طبيبًا إغريقيًّا تفوق عليهم. وبعد ذلك، تمكن من إنقاذ حياة عراف إيلياني كان مُهمَلًا إهمالًا ذريعًا بين العبيد بعد أن تنبَّأ بحظ بوليقراط. وبالاختصار بلغ ديموكيديس منزلة لدى داريوس لم يبلغها أي شخص سواه.

وزيادة على ما تقدم، فبعد وقت قصير حدث أن أُصيبت أتوسا ابنة كوروس التي تزوجت داريوس بدمل فوق ثديها، فأخذ الدمل يتسع ويكبر بعد أن انفجر. ولما كان الدمل في بدء ظهوره صغيرًا، أخفته أتوسا بدافع الحياء، ولم تُخبر به أحدًا، ولكنها لما رأت حاله قد ساءت، لم تجد بُدًّا من أن تُرسِل إلى ديموكيديس، فلما جاءها أطلعته على

---

[3] نفهم من كلمة «النقود الرسمية» أنها كانت الدريقات التي يُسميها هيرودوت في مواضع أخرى، «الدريقات الرسمية» وكانت قيمتها تقرب كثيرًا من قيمة العملة الرسمية الرئيسية المتداولة في بلاد الإغريق.

الخراج فقال لها إن بوسعِه أن يُعالِجها على شرط أن تَعِده أولًا بقَسَم بأن تمنحه كل ما يطلبه، وأكد لها أن طلبه لن يكون شيئًا تخجل لسماعه.

بهذه الشروط أخذ ديموكيديس يعالج أتوسا، وسرعان ما شُفِيَ الخراج. ولما أصغت إلى طلبه تحدثت ذات ليلة إلى داريوس بالحديث التالي:

«يبدو لي غريبًا يا مولاي مع كل بأسك وسلطانك أنك تقضي الوقت بغير عمل، ولا تقوم بأية غزوات، ولا توسع سلطان الفرس. وأعتقد أن رجلًا صغير السن مثلك، واسع الثراء يجب أن يقوم بعمل نبيل ليبرهن للفرس على أن من يحكمهم رجل. كما أن هناك سببًا آخر يدعوك إلى القيام بعمل ما، ليس فقط لأنه مما يليق بك أن تُثبِت للفرس أنَّ مَن يحكمهم رجل، بل وكذلك من أسباب سلامتك أن تُنهِك قواهم في الحروب؛ لئلا تدفع البطالة الجنود إلى التآمر ضد سلطانك. والآن وأنت لا تزال في شرخ الشباب، تستطيع القيام ببعض الفتوحات، فبينما تنمو قوة الجسم ينضج العقل أيضًا، وعندما يَشِيخ الجسم تأخذ القوى العقلية في الذبول حتى تهبط تمامًا.»

هكذا تكلمت أتوسا تبعًا لما لقنها إياه ديموكيديس، فرد عليها داريوس بقوله: «أيتها السيدة العزيزة، لقد تكلمتِ بنفس ما كان يجول بخلدي. إنني أزمع إقامة جسر يصل بين القارتين، وبذا أقوم بمحاربة سكوثيا. ولم تمضِ إلا فترة قصيرة حتى يتم كل شيء كما ترغبين.» غير أن أتوسا استطردت تقول: «اعلم يا سيدي أنه من الخير إرجاء الحرب مع سكوثيا بعض الوقت؛ لأنه من الممكن هزيمة السكوثيين في أي وقت. أرجو يا سيدي أن تقود جيوشك أولًا إلى بلاد الإغريق؛ فإني أتوق إلى أن تخدمني بعض الفتيات اللاكيدايمونيات اللائي سمعتُ عنهن الشيء الكثير. كما أنني أرغب في نساء أرجوسيات وأثينيات وكورنثيات. يوجد في بلاطك الآن رجل بوسعه أن يخبرك وهو خبير من أي فرد آخر في العالم كله بجميع ما تريد معرفته عن بلاد الإغريق، كما أن بوسعه أن يكون مرشدًا، وإني لأقصد ذلك الرجل الذي عالج قدمك.»

فأجاب داريوس بقوله: «زوجتي العزيزة .. بما أن رغبتكِ هي أن نجرب أولًا قوة الأغارقة، أرى من الأوفق قبل المسير إليهم أن نرسل أولًا بعض الفرس للتجسس ومعرفة أحوال تلك البلاد، ومن الممكن أن يذهبوا إلى هناك بصحبة ذلك الرجل الذي تذكرينه. وبعد أن يروا ويعرفوا كل شيء، يمكنهم العودة إلينا وتقديم تقرير شامل عن كل ما هنالك، وبعد أن أُلمَّ بجميع أحوال الأغارقة، أبدأ بمحاربتهم.»

بعد ذلك حاصر الملك داريوس ساموس واستولى عليها. فكانت أول مدينة غزاها، من جميع المدن الإغريقية والبابلية. والسبب الذي جعله يغزو ساموس هو أنه عندما سار

قمبيز بن كوروس لغزو مصر اجتمعت هناك أعداد غفيرة من الأغارقة، بعضهم لترويج تجارته، وبعض آخر ليخدم في الجيش، وآخرون لمجرد مشاهدة تلك البلاد. وكان من بين هؤلاء الأخيرَين سولوسون بن أياكيس وشقيق بوليقراط. وكان في ذلك الوقت منفيًّا من ساموس. وحدث أن التقى سولوسون هذا إبان إقامته في مصر بضربة سعيدة واحدة من ضربات حسن الحظ. تصادف أن كان يرتدي في أحد الأيام عباءة حمراء وهو ذاهب إلى ميدان السوق بمدينة ممفيس، فرآه داريوس الذي كان وقتذاك أحد رجال حرس قمبيز، ولم يكن ذا شأن يُذكر، فتاقت نفس داريوس واجتاحته رغبة ملحة في الحصول على هذه العباءة، فذهب إلى سولوسون وعرض عليه أن يشتريها منه، فأدرك هذا الأخير لهفة داريوس إلى العباءة، وأوحى إليه حظه الحسن أن يرد عليه بقوله: «لا يوجد شيء في هذا العالم كله يُمكِن أن أبيع عباءتي من أجله، ولكني سأمنحك إياها بغير مقابل طالما أنك راغب فيها إلى هذه الدرجة.» فشكره داريوس وقبل العباءة منه.

أحس سولوسون المسكين أنه خُدِع في عباءته وتخلى عنها بغاية البساطة. غير أنه بعد ذلك، عندما تُوفِّي قمبيز، وقام السبعة بثورتهم ضد المجوسي، وكان داريوس هو الرجل الذي وقع عليه الاختيار من بينهم ليحكم المملكة، علم سولوسون أن الرجل الذي لبس تاج فارس هو ذلك الحارس الذي اشتهى عباءته في مصر، وأخذها بغير مقابل. وعلى ذلك سافر إلى سوسا، ولما صار أمام باب القصر الملكي أخبر الحاجب بأنه رجل له فضل على الملك،[٤] فذهب الحاجب إلى داريوس وأخبره بالأمر، فدُهِش داريوس لما سمع، وقال في نفسه: «أي إغريقي يُمكِن أن يكون صاحب فضل عليَّ؟ أو مَن مِنهم يدينني بشيء بعد أن صرت ملكًا؟ من النادر أن كان أحد منهم هنا، لم يكن هنا سوى رجل أو اثنين منذ أن ارتقيت إلى العرش، كما أنني لا أذكر أني مدين بشيء لأي إغريقي. وعلى أية حال، أحضره إلى هنا لأسمع منه ماذا يقصد بهذا الزهو.» وعلى ذلك أَدخَل الحاجبُ سولوسون إلى حضرة داريوس، وسأله المترجمون عن شخصيته، وماذا فعل حتى يقول إنه ذو فضل على الملك. فروى سولوسون قصة العباءة كلها، وقال إنه هو الذي قدم الهدية لداريوس. عندئذٍ صاح داريوس متعجبًا: «مرحبًا بأكرم الرجال. أحقًّا أنت هو الذي أعطاني شيئًا، مَهمَا كان صغيرًا وأنا غير ذي سلطان على الإطلاق؟ حقًّا! إن معروفك العظيم كأعظم

[٤] ذوو الفضل على الملك، جماعة من الأشخاص، سجلت أسماؤهم رسميًّا في الأرشيف الملكي. ويُطالِب سولوسون بوضع اسمه في ذلك السجل.

هدية تقدم إليَّ اليوم، ولهذا سأعطيك في مقابله ذهبًا وفضة بغير حساب؛ حتى لا تندم قط على أنك قدمت خدمة لداريوس بن هوستاسبيس.» فأجاب سولوسون بقوله: «لا تعطني ذهبًا ولا فضة، أيها الملك، وإنما أريد أن تستعيد لي ساموس، مسقط رأسي، واجعلها هديتك لي. إنها الآن ملك لأحد عبيدنا الذي صار حاكمها بعد أن قتل أورويتيس أخي بوليقراط، أتوسل إليك أن تهبني ساموس، وأن تهبني إياها سليمة دون إراقة دماء ولا أسر.»

فلما سمع داريوس كلامه هذا، أرسل جيشًا بقيادة أوتانيس، أحد السبعة، وأمره بأن يُحَقِّق جميع رغبات سولوسون.

الفصل السابع والعشرون

ثورة بابل

بعد أن أقلع جيش أوتانيس قاصدًا ساموس، تمرَّد البابليون؛ إذ أعدوا جميع وسائل الدفاع طيلة الوقت الذي كان المجوسي فيه ملكًا، والوقت الذي تآمر فيه السبعة. فانتهزوا فرصة القلاقل واستعدوا لمقاومة الحصار، وتصادف أن تم كل ذلك في الخفاء دون أن يرى أحد ماذا كانوا يفعلون. وأخيرًا لما حان وقت إعلان تمردهم فعلوا هكذا: بعد أن وضعوا أمهاتهم جانبًا، اختار كل رجل امرأة واحدة من كل أسرة، أية امرأة أعجبته. وهؤلاء فقط من اللائي سُمِح لهن بالبقاء على قيد الحياة، في حين جُمِعت سائر الباقيات في مكان واحد وشُنِقن. أما النساء اللاتي وقع عليهنَّ الاختيار فاحتُفِظ بهن ليصنعن الخبز للرجال، في حين شُنِقت الأخريات؛ كي لا يستهلكن المئونة المخزونة.

لما بلغ داريوس نبأ ما حدث هناك، جمع كل قواته، وبدأ الحرب بالمسير فورًا صوب بابل، وألقى حولها الحصار. بَيْد أن البابليين لم يهتموا بهذا الحصار قيد شعرة، فصعدوا إلى الأبراج التي تعلو أسوارهم، وأخذوا يسخرون من داريوس ومن جيشه القوي. وبلغت الجرأة بأحدهم أن صاح بأعلى صوته قائلًا لهم: «ما فائدة جلوسكم هناك هكذا أيها الفارسيون؟ لم لا ترجعون إلى دياركم؟ لن تأخذوا مدينتنا حتى تلد البغلة.» هذا ما قاله رجل بابلي كان يظن أن البغلة لا تلد إطلاقًا.

بعد أن مرت سنة وسبعة شهور، ملَّ داريوس وجيشه البقاء خارج أسوار بابل؛ إذ وجدوا أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة بأية حال من الأحوال. لقد استخدموا جميع الطرق الاستراتيجية، وكل الفنون ولكن الملك لم يستطع الاستيلاء عليها، ولا حتى عندما حاول استعمال الطريقة التي استولى بها كوروس على تلك المدينة. كان البابليون في غاية اليقظة هذه المرة، ولم يجد داريوس وسيلة قط يمكنه بها أن يهزمهم. وأخيرًا في الشهر العشرين من بدء الحصار حدث أمر غريب لزوبوروس بن ميجابوزوس، الذي

كان من بين السبعة الذين قضوا على المجوسي. لقد ولدت إحدى بغال الحمل التي يملكها، وضعت جحشًا. فلما أسرع الخدم بإبلاغ زوبوروس بهذا الخبر، لم يصدقهم في أول الأمر، وذهب فشاهد الجحش بعيني رأسه، عندئذٍ أمر خدمه بأن يكتموا الأمر، ولا يخبروا به أحدًا على الإطلاق، في حين أخذ يفكر هو نفسه في ذلك الحدث الغريب، فتذكر كلام الرجل البابلي عندما بُدئ بالحصار؛ إذ قال: «لن تأخذ المدينة حتى تلد البغلة.» ... تذكر هذه العبارة وهو غارق في تفكيره، واعتقد أن من الممكن أن تسقط بابل بعد ذلك؛ إذ بدا له أن قوة إلهية هي التي جعلت ذلك الرجل ينطق بتلك العبارة. والآن، قد ولدت بغلته.

وما إن أحس زوبوروس في قرارة نفسه بأنه قُدِّر لبابل أن تسقط حتى انطلق إلى داريوس وسأله عما إذا كان يهمه كثيرًا أن يغزو هذه المدينة، فلما رأى أن داريوس يضع أهمية عظمى حقًّا على هذا الغزو، أخذ يفكر في نفسه من جديد كيف يتسنى له أن ينسب فضل هذا الغزو لنفسه، ويكون هو الرجل الذي يستولي على بابل.

يُقدِّس الفرس الأعمال النبيلة ويرفعون فاعلها إلى أقصى درجات العظمة. وعلى هذا طفق زوبوروس يفكر ويُقلِّب في ذهنه جميع الوسائل التي يمكنه بها الاستيلاء على تلك المدينة، فلم يجد وسيلة ما يمكن أن تنفع إلا إذا شوَّه نفسه وذهب إلى العدو. فإذا ألفى هذا أمرًا سهلًا، شوَّه نفسه بطريقة لا يُجدي فيها علاج قط؛ لأنه جدع أنفه، وقطع أذنيه، ونتف شعره، وضرب نفسه بالسوط ضربًا مُبرِّحًا، ثم ذهب إلى داريوس وهو على تلك الحال المؤلمة.

ثارت كوامن الغضب في نفس داريوس عندما أبصر زوبوروس على هذه الصورة، فقفز من فوق عرشه وصاح بصوت مرتفع سائلًا زوبوروس عمن أحدث به تلك الإصابات، وماذا فعل حتى عُومِل هذه المعاملة القاسية. فأجاب زوبوروس بقوله: «لا أحد في العالم كله سواك يا مولاي يستطيع أن يُحدِث بي هذا الذي ترى. لم تُقدِم يد رجل غريب على فعل هذا بي، ولكنها يديَّ أنا نفسي هي التي فعلته. شوهت نفسي لأني لم أُطِق سخرية أهل بابل من الفرس.» فقال داريوس: «يا لك من رجل تَعِس! إنك تُضفِي أجمل الأسماء على أبشع الأفعال عندما تقول إن تشويه خِلقَتك يساعدنا على تقدم الحصار. كيف يمكن لهيئتك المشوهة أن تحثَّ العدو على الإسراع بالخضوع لنا؟ لا شك في أن لوثة قد أصابت عقلك عندما فعلت بنفسك هذا الفعل الشنيع.» فقال الآخر: «لو كنت أخبرتك بما أزمع عمله لما سمحت لي بالإقدام عليه، ولذلك كتمت الأمر في نفسي حتى نفذت خطتي. والآن يا مولاي إذا لم يحدث إخفاق من جانبك فإننا لا ريب آخذون المدينة. سألجأ إلى الأعداء

بحالتي هذه، وعندما أدخل مدينتهم سأخبرهم بأنك أنت الذي فعلت بي هذا، وأعتقد أنهم سيصدقون كلامي ويثقون بي ثقة تجعلهم يولونني أمر كتائبهم. أما من جهتك يا مولاي فيجب أن تنتظر حتى اليوم العاشر بعد دخولي بابل، ثم تضع بالقرب من أبواب سميراميس فرقة من جيشك، لا يهمك كثيرًا فقدانها، ويكون عددها ألف جندي، ثم انتظر سبعة أيام أخرى وضع فرقة أخرى تتكون من ألفي مقاتل قوي عند أبواب نينوى، وانتظر بعد ذلك عشرين يومًا وضع عند الأبواب الخالديانية فرقة قوامها أربعة آلاف رجل، ولا تُسلِّح هؤلاء، ولا السابقين لهم بأية أسلحة غير السيوف التي لا تكترث لضياعها. وبعد انقضاء عشرين يومًا أصدر أوامرك لقواتك كلها بمهاجمة المدينة من كل جانب. وضع فرقة من الفرس عند الأبواب البيليانية، وفرقة أخرى عند الأبواب الكيسيانية؛ لأنني أتوقع أن يعهد إليَّ البابليون بكل شيء حتى مفاتيح أبوابهم بعد أن يروا ما أحرزته من نجاح، وبعد ذلك أقوم أنا والفرقتان الفارسيتان ببقية الخطة.»

بعد أن ترك زوبوروس هذه التعليمات، انطلق إلى أبواب المدينة وهو يُكثِر من التلفت خلفه؛ ليبدو كجندي هارب. فلما أبصره الرجال الواقفون في الأبراج، والذين وكلت إليهم المراقبة، أسرعوا بالنزول، ففتحوا أحد الأبواب قليلًا وسألوه عن شخصيته وعن المهمة التي جاء من أجلها. فأجاب بأنه زوبوروس، وأنه أتى لاجئًا إليهم بعد هروبه من الفرس. فلما مثُل أمام المجلس أخذ يندب حظه العاثر، وأخبرهم بأن داريوس أنزل به ذلك العقاب الذي يرونه لا لشيء إلا لأنه أشار عليه بفك الحصار؛ إذ يبدو أن لا أمل في الاستيلاء على المدينة. ثم استطرد يقول: «والآن سيبرهن مجيئي إليكم أيها البابليون، على أنه أعظم ربح يمكن أن تحصلوا عليه، في حين سيكون أفدح خسارة لداريوس وللشعب الفارسي. والحقيقة أن من أصابني بهذه التشوهات لن يفلت من العقاب؛ لأنني أعرف جميع خططه.»

فلما رأى البابليون شخصًا من ذوي المراكز العليا على تلك الحال: أنفه مجدوع، وأذناه مقطوعتان، وآثار السياط ظاهرة حمراء على جسمه، وكدمات الدم بادية تحت جلده، لم يخامرهم أي شك في أنه إنما يقول الحقيقة، وأنه أتى فعلًا ليكون صديقًا لهم وعونًا على أعدائهم؛ ولذا كانوا على استعداد لأن يَمنَحُوه كل ما يطلب. ولما توسل إليهم في أن يعهدوا إليه بقيادة فرقة من قواتهم، وكلوا إليه قيادة كتيبة من الجنود، بدأ بمعاونتها يفعل ما اتفق عليه مع داريوس. ففي اليوم العاشر بعد هروبه قاد كتيبته وحاصر ألف رجل كان داريوس قد أرسلهم تبعًا للاتفاق، فانقض عليهم زوبوروس وقتلهم جميعًا. فلما رأى البابليون أن فعله أصدق من أقواله سروا أيما سرور، ووثقوا به ثقة لا حدود لها. ولما مضت المدة الثانية المُتفق عليها خرج بكتيبته من الجنود المختارين، وقتل الألفي

فارسي. وبعد هذا النصر الثاني لهج كل لسان بالثناء عليه. ومرة ثانية انتظر حتى انقضاء الفترة التالية، وقاد الكتائب البابلية إلى حيث يوجد الأربعة آلاف فارسي، فقتلهم جميعًا. كان هذا النصر الأخير هو اللمسة الأخيرة في تكوين سلطته، وجعله الكل في الكل لدى البابليين. وبناءً على هذا عهدوا إليه بقيادة جيشهم كله، وسلموه مفاتيح مدينتهم.

حافظ داريوس على الخطة المتفق عليها، فهاجم الأسوار من كل جانب، وعندئذٍ لعب زوبوروس الدور الباقي من خطته؛ فبينما بذل البابليون المحتشدون عند الأسوار قصارى جهدهم لمقاومة الهجوم الفارسي، فتح زوبوروس الأبواب الكيسيانية والبليانية أمام العدو؛ لهَرَبِ البابليين الذين أحسوا بالخدعة إلى معبد جوبيتر بيلوس، في حين بقي من لم يدركوها في أماكنهم حتى علموا أخيرًا أنهم وقعوا فريسة خدعة عُظمى.

هكذا سقطت بابل للمرة الثانية. فلما تمت لداريوس السيادة عليها، هدم أسوارها وحطم جميع أبوابها؛ لأن كوروس لم يفعل هذا ولا ذاك عندما استولى على هذه المدينة من قبل. بعد ذلك اختار داريوس حوالي ثلاثة آلاف من عظماء المدينة وصَلَبَهم، أما الباقون فسمح لهم بالإقامة في المدينة وسكناها. ولما أراد بعد ذلك عدم ازدهار الجنس البابلي زودهم بزوجات بدل اللواتي شُنِقن (كما ذكرت من قبل؛ لعدم استهلاك كمية المئونة المخزونة). جمع أولئك الزوجات من نساء الأمم المجاورة لبابل، وقد بلغ مجموعهن ما لا يقل عن خمسين ألفًا. وإن البابليين الموجودين في عصرنا هذا لمن نسل أولئك النسوة.

أما زوبوروس فقد حظي بمنزلة عظمى لدى داريوس الذي اعتبر عمله هذا عملًا يفوق كل ما قام به أي فارسي آخر، سواء أكان في العصور السابقة أم في أيامنا الحاضرة، باستثناء كوروس — وهي منزلة لا يعتقد أي فارسي غيره أنه جدير بها. وتبعًا لأقوال الرواة، كثيرًا ما كان داريوس يقول: «كنت أُفضِّل إن لم يشوه زوبوروس نفسه على أن أكون سيدًا على عشرين بابل أخرى.» وزاد داريوس في تكريم زوبوروس، فكان في كل عام يُقَدِّم له الهدايا التي يعتبرها الفرس أعظم ما يصبو إليه المرء. كما منحه حُكم بابل طول حياته دون أن يدفع أية ضريبة. وكذلك منحه عدة مزايا أخرى: كان ميجابوزوس «الذي تولى القيادة في مصر ضد الأثينيين وحلفائهم»، ابن زوبوروس هذا، كما كان زوبوروس «الذي هرب من فارس إلى أثينا» ابن ميجابوزوس هذا.

الفصل الثامن والعشرون

عادات السكوثيين

بعد الاستيلاء على بابل خرج داريوس في حملة على سكونيا. فلما كانت آسيا تزخر بالرجال، والأموال الطائلة تتدفق على الخزانة، اجتاحته رغبة مُلحَّة في الانتقام من السكوثيين الذين غزوا ميديا ذات مرة في عصور سابقة، كما هزموا من التقوا بهم في الميدان. وهكذا بدأ العراك. ظل السكوثيون سادة القسم العلوي من آسيا كله لمدة ثمانٍ وعشرين سنة كما ذكرت من قبل، ودخلوا آسيا في أثر الكيميريانيين، وأطاحوا بإمبراطورية الميديين الذين كانت لهم السيادة حتى وصول أولئك القوم. وعند عودتهم إلى أوطانهم بعد غيبة طويلة استغرقت مدة ثمانٍ وعشرين سنة، كان بانتظارهم عمل شاق، أقل تعبًا من نضالهم مع الميديين؛ إذ وجدوا جيشًا غير قليل العدد على استعداد ليمنع دخولهم. فلما وجدت النساء السكوثيات أن الزمن يمر دون أن يعود إليهن أزواجهن تزوجن بعبيدهن.

يُعمي السكوثيون جميع عبيدهم كي يستخدموهم في إعداد ألبانهم. والطريقة التي يتبعونها هي: يدفعون أنبوبة من العظم — لا تختلف عن الأنابيب الموسيقية — في الفتحة التناسلية للفرس، ثم ينفخون في الأنابيب بأفواههم، فيحلب بعضهم اللبن من تأثير نفخ البعض الآخر. ويقولون إنهم يفعلون هذا لأنه إذا ما امتلأت أوردة الفرس بالهواء ضغطت على الضرع وجعلته يهبط إلى أسفل. ويُوضَع اللبن الذي يُحصَل عليه بهذه الكيفية في جفنات من الخشب يقف حولها العبيد ليقبلوا اللبن. وتعتبر طبقة اللبن التي تطفو على السطح خير الأجزاء جميعًا، وما تحتها أقل أهمية. هذا هو السبب الذي من أجله يُعمي السكوثيون جميع أسراهم في الحروب، وهذا راجع إلى أنهم لا يعرفون شيئًا عن فلاحة الأرض، وإنما يشتغلون بالرعي.

لما أنجب هؤلاء العبيد والنساء السكوثيات أولادًا وكبر الأولاد حتى صاروا رجالًا، وعرفوا ظروف نشأتهم، اعتزموا مقاومة الجيش العائد من ميديا، فاقتطعوا أولًا بقعة

من الأرض فصلوها عن بقية سكوثيا بأن أقاموا سدًّا عريضًا — يبدأ من الجبال التورية وينتهي عند بحيرة مايوتيس الواسعة — وأخيرًا، عندما حاول السكوثيون دخول بلادهم بالقوة، ساروا إليهم وحاربوهم فلم يحرز السكوثيون أي انتصار. وأخيرًا قام من بينهم رجل وخاطب الباقين بقوله: «ما هذا الذي نفعله نحن معشر السكوثيين؟ إننا نُحَارِب عبيدنا، وبذا نُنقِص عددنا بوساطة من يسقطون صرعى في القتال، كما نُقَلِّل من عدد عبيدنا عندما نقتلهم بأيدينا. اعملوا بنصيحتي، دعوا الرمح والقوس جانبًا، وليُحضِر كل رجل منكم سوطًا كالتي تُضرَب بها الخيول، وليذهب إليهم في جرأة وشجاعة. فكلما رأونا نحمل الأسلحة في أيدينا ظنوا أنفسهم أندادًا لنا، ومتساوين معنا في المولد وفي الشجاعة. أما إذا لم يروا غير السياط في أيدينا، شعروا بأنهم عبيد لنا. وعندئذٍ لا يَسعهم إلا أن يفروا أمامنا.»

عمل السكوثيون بهذه النصيحة، فذُهِل العبيد ذهولًا بالغًا لدرجة أنهم نسوا أن يحاربوا، وركنوا في الحال إلى الفرار. هذه هي الطريقة التي عاد بها السكوثيون إلى ديارهم واستقروا فيها بعد أن حكموا آسيا فترة من الزمن، ثم اضطرهم الميديون إلى الجلاء عنها. هذا هو الغزو الذي كان داريوس يتوق إلى الانتقام منهم بسببه، وهذا هو الغرض الذي من أجله أخذ الآن يجمع جيشًا لغزوهم.

هاك عادات السكوثيين وتقاليدهم فيما يختص بالحروب: يشرب الجندي السكوثي دم أول رجل يَصرَعه في الحرب، ومهما بلغ عدد الذين يقتلهم فإنه يقطع رءوسهم جميعًا ويحملها إلى الملك، وبذا يكون له الحق في اقتسام الغنائم. في حين يضيع منه كل حق إذا لم يُحضِر أي رأس. ولكي يسلخ جلد الرأس يقطع حزًّا حول الرأس فوق الأذنين، ثم يمسك بفروة الرأس ويقذف بالجمجمة بعيدًا. بعد ذلك يأخذ ضلع ثور ويكحت به ظهر الفروة حتى يُنظِّفها تمامًا من اللحم، ثم يُطرِّيها بأن يدعكها بين يديه، ويستعملها فوطة بعد ذلك. ويفخر الرجل السكوثي بفروات رءوس القتلى هذه، ويُعَلِّقها في عنان حصانه، وكلما كان عدد الفروات التي يعرضها كبيرًا عظمت منزلته بين مواطنيه، ويصنع كثير منهم لنفسه معطفًا من هذه الفراء أشبه بعباءات فلاحينا، وذلك بأن يخيط عددًا من الفروات معًا. ومنهم من يسلخ جلد الأذرع اليمنى لأعدائهم القتلى، ويصنع من الجلد الذي يُنزَع بما فيه من الأظفار كسوة لجعبة سهامه. وإن جلد الإنسان لسميك ولامع، ويفوق في بياضه سائر الجلود الأخرى تقريبًا. وبعض منهم يسلخ جلد الجسم كله، ويشده فوق إطار يحمله معه أينما ذهب. هذه هي تقاليد السكوثيين فيما يختص بفراء الرأس وجلود القتلى من أعدائهم.

وإليك الطريقة التي يعالجون بها جماجم الأعداء، والحقيقة أنها ليست جماجم كل أعدائهم، وإنما جماجم من يحملون لهم أعظم كراهية. بعد أن يخيطوا أسفل الحواجب ويُنظِّفوا ما بداخل الجمجمة، يكسونها من الخارج بالجلد، هذا كل ما يفعله الرجل الفقير. أما الغني فيُبطِّن داخل الجمجمة بالذهب. وفي كلتا الحالين تُستعمَل الجمجمة كأسًا يشربون منها. وكذلك يفعلون الشيء نفسه مع أصدقائهم وأقاربهم إن كان بينهم ثأر وهزموهم في حضور الملك. وعندما يزورهم الأغراب يُطلِعونهم على هذه الجماجم، ويَشرَح لهم المُضِيف قرابة أصحابها له، وكيف حدثت العداوة بينه وبينهم، وكيف تغلب عليهم؛ وذلك لأنهم يعتبرون كل هذه المظاهر من أمارات الشجاعة.

إذا مَرِض الملك السكوثي أرسل في طلب ثلاثة من أشهر العرافين في عصره، فيتكهنون له هكذا، يقولون: عادة إن الملك مريض؛ لأن فلانًا، ويذكرون اسمه، قد أقسم يمينًا كاذبة بالوطيس الملكي. وهذا هو القَسم العادي الذي يحلف به السكوثيون عندما يُقسِمون اليمين على أمر هام، وعندئذٍ يُقبَض على من اتهمه العرافون بالحلف كذبًا، ويُؤتى به أمام الملك، فيُخبِره العرافون بأنهم علموا بواسطة فنهم أنه أقسم كذبًا بالوطيس الملكي، وبهذا كان سببًا في مرض الملك. فيُنكر الرجل التهمة، ويحتج بشدة، ويؤكد أنه لم يحلف قط يمينًا كاذبة، ويُعلِن شكواه بصوت عالٍ ويتمسك بأنه مظلوم: عند ذلك يُرسِل الملك في طلب ستة عرافين جدد يحكمون في الأمر بوساطة العرافة، فإذا وجد هؤلاء أن الرجل مذنب فيما نُسِب إليه قُطِع رأسه في الحال بوساطة من اتهموه أولًا، واقتسموا أمواله وممتلكاته فيما بينهم. أما إذا برَّأه هؤلاء جيء بعرافين غيرهم، ثم غيرهم، للتَّكهُّن في هذا الأمر، فإن برأته الغالبية العظمى منهم، أُعدِم من أدانوه أولًا.

أما طريقة إعدامهم فهي هكذا: تُملأ عربة بالحطب، وتُربَط فيها الثيران، وتُقيد أرجل العرافين معًا، وتُربَط أيديهم خلف ظهورهم، وتُكمَّم أفواههم، ويُلقَون وسط الحطب، ثم تُشعَل النار في الحطب. وإذ تذعر الثيران من اللهب تجري بالعربة. وغالبًا ما تحرق النار العرافين والثيران، بَيْد أنه يحدث أحيانًا أن يحترق عريش العربة فتفلت الثيران بعد إصابتها ببعض الحروق. كذلك يُحرَق الكهنة الكاذبون، كما يُسمَّون بهذه الطريقة لأسباب أخرى غير ما ذكرنا، وعندما يعدم الملك أحدهم يُحَذِّر من بقاء أيِّ ولد له حيًّا، فيعدم جميع الأولاد الذكور مع أبيهم، ولا يُسمَح بالبقاء على قيد الحياة لغير الإناث.

توجد قبور ملوك سكوثيا في أرض الجيرهيين المُقيمين بأول موضع يصلح فيه نهر بوروشينيس للملاحة؛ فعندما يموت الملك يحفرون له قبرًا مربع الشكل كبير الحجم.

وبعد إعداد القبر يأخذون جثة الملك بعد شق البطن وإخراج ما فيه وتنظيفه، وملئه بمخلوط من أوراق السنديان المفرية، واللبان الذكر، وبذور المقدونس، وبذور الأنيسون، ثم يخيطون الفتحة، ويغلقون الجثة بالشمع، ويضعونها فوق عربة، ويطوفون بها على مختلف القبائل، وعندما تتسلم كل قبيلة جثة الملك تقلد ما فعله السكوثيون الملكيون في أول الأمر، فيقطع كل رجل قطعة من أذنه، ويقص شعره، ويحز حزًّا حول ذراعه، ويشرط شقًّا في جبهته وأنفه، ويغرس سهمًا في يده اليسرى. بعد ذلك يقوم المكلَّفون بالجثة بنقلها إلى قبيلة أخرى من القبائل الخاضعة لحكم السكوثيين ويتبعها أفراد القبيلة التي مرت عليهم الجثة أولًا. وبعد تمام الطواف على القبائل التابعة لسلطان السكوثيين في دولة الجيرهيين الواقعة في أقصى منطقة، يذهب القوم بها إلى مقابر الملوك حيث توضع جثة الملك الميت في القبر الذي أُعدَّ لها، ممدَّة فوق خشبة، وتُغرَس الرماح في الأرض على كل من جانبي الجثة، ثم توضع ألواح من الخشب فوق الرماح لتكون بمثابة سقف يُغطَّى بأعواد الغاب (البوص)، ويدفنون مع الملك إحدى محظياته بعد شنقها، وكذلك حامل كأسه وطاهيه وسايسه وخادمه الخاص وحامل رسائله، وبعض خيوله وأوائل ممتلكاته الأخرى، وبعض الكئوس الذهبية؛ لأنهم لا يستعملون الفضة ولا النحاس. بعد ذلك يشرعون في عمل كومة فوق القبر، ويتبارى كل منهم في جعلها مرتفعة قدر المستطاع.

بعد مرور عام على موت الملك تُقَام احتفالات أخرى، فيؤخذ خمسون شابًّا من خيرة خدم الملك المُتوفَّى، وكلهم من السكوثيين الوطنيين. ولما كان شراء العبيد غير معروف في هذه البلاد، فإن ملوك سكوثيا يختارون من يريدون من رعاياهم ليقوموا بخدمتهم. يؤخذ خمسون من هؤلاء ويُشنقون، كما يُقتَل خمسون جوادًا من أجمل الخيول، وبعد موت هذه تُفتَح بطونها وتُخرَج أحشاؤها، ويُنظَّف التجويف، ويُملأ بالتبن، ويُخَاط الشق ثانية، وبعد الانتهاء من هذا تُدفع عدة أعمدة في الأرض زوجين زوجين، ويوضع نصف إطار عجلة فوق كل زوج من هذه الأعمدة حتى يتكون ما يشبه القبو، ثم تُدفَع سيقان قوية في أجسام الخيول بطولها من الذيل إلى الرقبة، ثم تُرفَع الخيول فوق إطارات العجلات بحيث تستند كتِفَا الحصان على إطار العجلة الأمامي، ويَسنِد الإطار الخلفي البطن والفخذين الخلفيين. أما القوائم فتتدلى في الهواء، ويوضع في فم كل حصان لجام وعنان، ويُبسط الأخير أمام الحصان، ويُربَط في وتد. ثم يؤتَى بالخمسين شابًّا المشنوقين، ويوضعون فوق الخمسين حصانًا، ولعمل هذا .. تُدفع ساق أخرى في جسم كل شاب بطول السلسلة

الفقرية حتى الرقبة، ويبرز طرفها السفلي من الجسم، ويوضع في حفرة بالساق التي في جسم الحصان. وهكذا يُرَص الخمسون راكبًا في دائرة حول القبر، ويُترَكُون على هذه الصورة.

هذه هي الكيفية التي يُدفَن بها الملوك.

الفصل التاسع والعشرون

داريوس يغزو سكوثيا

بدأت استعدادات داريوس لغزو سكوثيا، فأوفد الرسل إلى جميع الجهات يحملون أوامر الملك؛ فعلى بعضهم أن يمدَّ الجيش بالجنود، وبعض آخر يمده بالسفن، وغير هؤلاء يقيمون جسرًا فوق البوسفور. وفي هذه الأثناء توسَّل أرتابانوس بن هوستاسبيس شقيق داريوس، توسَّل إلى الملك أن يتنازل عن هذه الحملة مُبيِّنًا له المشقات البالغة التي تكتنف الهجوم على سكوثيا. وعلى الرغم من حُسن نصيحة أرتابانوس فإنها لم تفلح في إقناع داريوس بالرجوع عن تلك الحرب؛ ولذلك كف عن نصح داريوس، وعندما تمت استعدادات الجيش، قاده داريوس من سوسا.

حدث أن جاء إلى داريوس رجل فارسي يُدعَى أيوبازوس، وكان أبًا لثلاثة أولاد، كانوا جميعًا ذاهبين مع الجيش، فتوسل أيوبازوس إلى الملك أن يسمح لأحد أبنائه بأن يبقى معه، فأجاب داريوس بأنه إذا نظر إليه نظرة صديق تقدَّم بطلب متواضع: «سيسمح لهم جميعًا بالبقاء.» فسُر أيوبازوس سرورًا لا مزيد عليه متوقعًا إعفاء أولاده من الخدمة العسكرية، فأمر الملك خدمه بأن يأخذوا أولاد أيوبازوس، ويقتلوهم، وهكذا بقوا جميعًا ولكن بعد أن جُرِّدُوا من حياتهم.

عندما بدأ داريوس سيره من سوسا ووصل إلى منطقة خالكيدون على شواطئ البوسفور حيث أُقِيم الجسر، ركب سفينة وأبحر إلى الجزر الكوانيانية التي — تبعًا لرواية الإغريق — طفت ذات مرة على وجه الماء. فاتخذ مجلسه في المعبد، وطفق يشاهد بحر بونت، الجدير بحق بكل اعتبار. والحقيقة أنه لا يوجد في الدنيا بحر آخر بتلك الروعة، فيمتد طوله إلى أحد عشر ألفًا ومائة فورلنج، وعرضه في أكثر أجزائه اتساعًا ثلاثة آلاف وثلاثمائة فورلنج، وأما مصبه فعرضه أربعة فورلنجات. ويُسمَّى هذا البوغاز الذي أقيم فوقه جسر داريوس باسم البوسفور، وطوله مائة وعشرون فورلنجًا، ويمتد بين أيوكسيني

وبروبونتيس. أما البروبونتيس فعرضه خمسمائة فورلنج وطوله ألف وأربعمائة فورلنج، ويَصُب مياهه في الهيلسبونت الذي طوله أربعمائة فورلنج، ولا يزيد عرضه على سبعة فورلنجات، ويوصل إلى بحر متسع يسمى بحر إيجة.

بعد أن انتهى داريوس من تأمله في البحر، عاد ثانية إلى الجسر الذي أقامه له ماندروكليس أحد الرجال الساميين، كما أنه أمعن النظر في شواطئ البوسفور، فأقام عليها عمودين من الرخام الأبيض، نقش عليهما أسماء جميع الأمم التي يتكون منها جيشه. نقش الأسماء على أحد العمودين باللغة الإغريقية، وعلى العمود الآخر باللغة الآشورية. كان جيشه يتألف من جميع الشعوب الخاضعة لحكمه، وفيما عدا رجال البحرية، كان جيشه يبلغ سبعمائة ألف رجل بما فيهم الفرسان. أما الأسطول فكان قوامه ستمائة سفينة. وبعد ذلك بمدة نقل البيزنطيون هذين العمودين إلى مدينتهم، واستخدموهما في إقامة مذبح لديانا الأرثوسية، وتركوا قطعة منهما بجوار معبد باخوص في بيزنطة، وكانت مليئة بالكتابة الآشورية. وبحسب تخميني يقع الموضع الذي أقام فيه داريوس الجسر على البوسفور في منتصف المسافة بين مدينة بيزنطة والمعبد القائم عند مدخل البوغاز.

سُر داريوس أيما سرور بالجسر الذي أقامه ماندروكليس السيامي فوق ذلك البوغاز، لدرجة أنه لم يمنحه الجوائز العادية فحسب، بل وأعطاه عشرة من كل نوع منها. ولكي يقدم ماندروكليس أولى هذه الجوائز عمل على صنع صورة للجسر كله، ظهر فيها داريوس وهو يتبوأ مجلس الصدارة، وجيشه يمر من فوق تلك القنطرة، ثم قدم هذه الصورة لمعبد جو نوفي ساموس.

بعد أن كافأ داريوس .. ماندروكليس، عبَر البحر إلى أوروبا، وأمر الأيونيين بدخول بحر بونتوس والإبحار إلى مصب نهر إيستر؛ حيث أمر بإقامة جسر فوق ذلك النهر، وانتظار مجيئه. كانت البحرية تتكون أساسًا من الأيونيين والأيوليين، وسكان الهيلسبونت. وعلى ذلك أبحر الاسطول مارًّا بالجزر الكواينانية، واتجه رأسًا إلى نهر إيستر، ودخل ذلك النهر حتى المكان الذي يتفرع فيه مجراه وهذا يقع على مسافة إبحار يومين من البحر، وألقى مراسيه هناك. وفي ذلك الوقت اجتاز داريوس البوسفور وسار خلال تراقية. وإذ عثر على منابع التيروس أقام معسكره وظل هناك ثلاثة أيام.

يقول جميع من يسكنون بجوار التيروس إنه صحي أكثر من أي نهر آخر، ويشفي أمراضًا عدة منها الجرب سواء أُصيب به الإنسان أو الحيوان، وتستمد منابعه — التي يبلغ

عددها ثمانية وثلاثين منبعًا — ماءها من صخرة واحدة، وبعض هذه المنابع بارد، في حين أن بعضها الآخر ساخن، وتقع جميعًا في منتصف المسافة بين مدينة هيرمايوم القريبة من بيرنيثوس وبين مدينة أبولونيا الواقعة على نهر أيوكسيني، وتبلغ مسيرة يومين من كل من هاتين المدينتين، ونهر تيروس هذا هو أحد روافد نهر كونتاديسدوس الذي يصب في نهر أجريانيس، وهذا بدوره يصب في نهر هيبروس الذي يصب في البحر قرب مدينة أينوس.

توقف داريوس عند شواطئ نهر التيروس حيث أقام معسكره، وقد أعجبه هذا النهر لدرجة أنه أمر بإقامة عمود على شاطئه في ذلك الموضع، ونقش عليه «إن منابع نهر التيروس لَتُخرِج مياهًا أجود وأجمل من مياه الأنهار طرًّا. لقد زارها أجمل الرجال جميعًا داريوس بن هوستاسبيس ملك الفرس وجميع القادة أثناء مسيره لمحاربة سكوثيا.» هذه هي العبارة التي نقشها على النُّصب الذي أقامه في ذلك الموضع.

واصل داريوس سيره حتى بلغ نهرًا ثانيًا يُسمَّى أرتيسكوس، يجري خلال بلاد الأودريسيين ysians، وعند ذلك حدد موضعًا، وأمر بأن يُلقي كل جندي من جيشه حجرًا أثناء سيره، فلما أطاع الجنود أمره، واصل سيره تاركًا خلفه تلالًا عظيمة من الأحجار التي قذفها جنوده.

لما بلغ داريوس نهر الإيستر بجيشه البري أمر جنوده بأن يعبروا النهر وبعد أن اجتازوا جميعًا، أمر الأيونيين بأن يهدموا القنطرة التي مرَّ فوقها، ثم يتبعوه بكامل القوة البحرية في مسيرة على البر. كانوا على وشك تنفيذ أمره لولا أن تقدم كوويس Coes بن إيركساندر قائد الميتيلينيانيين Myttilenaeens من داريوس، وسأله أولًا عما إذا كان الملك يسمح بأن يسمع كلام رجل يرغب في الإفضاء بما يجول في نفسه، ثم قال: إنك يا مولاي على وشك مهاجمة بلد ليس فيه أي جزء مزروع، ولا يوجد به أية مدينة مسكونة، وعلى ذلك ينبغي أن تترك هذه القنطرة كما هي، وتترك من أقاموها لحراستها. فإذا التقينا بالسكوثيين وهزمناهم كما أتعشم أمكننا العودة من هذا الطريق. أما إذا لم نستطع أن نعثر عليهم أمكننا أن نضمن تقهقُرنا في أمان، فإنني لا أخشى أن يهزمنا السكوثيون في القتال، وإنما كل ما أخافه هو أن نخفق في العثور عليهم، وعندئذٍ نتكبد خسائر جسيمة ونحن نسير في بلادهم. ولربما يقول قائل إنني أُبدِي نصيحتي هذه أملًا في السماح لي بالبقاء هنا. بَيْد أن الحقيقة هي أنه لا قصد لي سوى أن أُشير بما أرى أنه خير سبيل نسلكه. كما أنني لا أقبل أن أتخلف هنا مع من سيبقون لحراسة الجسر، وإنما أعتزم

أن أتبعك في جميع الحالات. فسُرَّ داريوس من نصيحة كوويس، ورد عليه بقوله: «أيها الميتيليني العزيز عندما أعود سالمًا إلى قصري لا بد أن تحضر إليَّ لأُكافئك بالأعمال الطيبة على نصيحتك الطيبة التي أبديتها لي اليوم.»

بعد أن أتم الملك كلامه أخذ سيرًا من الجلد، وعقد فيه ستين عقدة، ثم استدعى إليه جميع رؤساء الأيونيين، وتحدث إليهم بقوله: «أيا رجال أيونيا، لقد سحبت أوامري السابقة بخصوص ذلك الجسر. انظروا ها هو ذا سير من الجلد خذوه ونفذوا كل ما آمركم به بخصوصه ... ابتداءً من اليوم الذي أترككم فيه قاصدًا سكوثيا حلوا كل يوم عقدة، فإذا لم أرجع قبل اليوم الذي تحلون فيه آخر عقدة فغادروا مكانكم وعودوا في البحر إلى مختلف أوطانكم، وفي تلك الأثناء يجب أن تعرفوا أنني غيرت رأيي بشأن هذه القنطرة التي يجب أن تقوموا بحراستها بكل عناية! وبالمحافظة على سلامتها وبقائها، بهذا تسرونني أبلغ السرور.» وما إن قال داريوس هذه الأقوال، حتى شرع يسير بكل سرعة.

الفصل الثلاثون

القبائل السكوثية

تشاور السكوثيون فيما بينهم بشأن تلك الظروف التي استجدَّت عندهم، فوجدوا أن قوتهم وحدهم ليست كافية للوقوف أمام جيش داريوس في القتال وجهًا لوجه. وعلى ذلك أوفدوا رسلًا إلى الشعوب المجاورة لهم والتي كان ملوكها قد اجتمعوا للتشاور في موضوع الهجوم الذي سيقوم به عليهم مثل ذلك الجيش العرمرم. لقد اجتمع ملوك الثاوريين، والأجاثورسيين، والنيوريين، والأندروفاجيين، والميلانخلانيين، والجيلونيين، والبودينيين، والساوروماتيين.

كانت تقاليد الثاوريين تقضي بأن يضحوا للعذراء بجميع الأشخاص الناجين من السفن المحطمة، وبجميع الأغارقة الذين تضطرهم الأحوال الجوية إلى الجنوح إلى البر. وهاك طريقتهم في التضحية بهؤلاء: بعد إتمام الاحتفالات التمهيدية يضربون الضحية على رأسه بهراوة، ثم يقذفون بجثته من فوق صخرة شاهقة فيسقط إلى الهوة السحيقة؛ حيث يوجد المعبد. أما الرأس فيثبتونه إلى صليب.

والأجاثورسيون قوم بالِغو الترف مولعون أشد الولع بالتحلي بالذهب، وزوجاتهم مشاعات فيما بينهم جميعًا حتى يكونوا كلهم إخوة كأعضاء في أسرة واحدة، لا يحسد أحد منهم الآخر، ولا يحمل له حقدًا ولا ضغينة.

وعادات النيوريين شبيهة بعادات السكوثيين. وقد حدث قبل هجوم داريوس أن هجر أحد الأجيال دياره أمام هجوم جموع كبيرة من الأفاعي غزت بلادهم. كانت بعض تلك الأفاعي مما تربى في بلادهم، والبعض الآخر وفد إليهم من الصحراء الشمالية. وإذ أصيبوا بخسائر فادحة من جراء هذه المصيبة، هجروا وطنهم ولجئوا إلى بلاد البودينيين.

أما الأندروفاجيون فأشد وحشية من أي شعب آخر؛ فهم لا يعرفون العدالة ولا يخضعون لأية قوانين. إنهم قوم رُحَّل، يلبسون الزي السكوثي، ويتكلمون لغة غريبة عليهم هم أنفسهم، وعلى خلاف أي شعب آخر في هذه المناطق يأكلون لحوم البشر.

ويلبس الميلانخلانيون جميعًا عباءات سوداء، ومن هنا جاء اسمهم، وعاداتهم سكوثية.

والبودينيون أمة ضخمة قوية، عيونهم جميعًا زرقاء، وشعورهم حمراء زاهية اللون، ويطلقون على مدينتهم اسم «جيلونوس» وتحيط بها أسوار عالية، ويبلغ طولها ثلاثين فورلنجًا من كل ناحية، وهي مصنوعة كلها من الخشب، ويتكلم أولئك القوم لغة نصفها إغريقي ونصفها الآخر سكوثي.

ولا يتكلم البودينيون نفس اللغة التي يتكلمها الجيلونيون، كما أنهم يختلفون عنهم في طريقة معيشتهم. إنهم الوطنيون الأصليون لهذه المنطقة، وهم شعب رُحَّل، وعلى خلاف كل جيرانهم يأكلون القمل. أما الجيلونيون فعلى عكس ذلك يفلحون الأرض ويأكلون الخبز، ولديهم حدائق، ويختلفون عن البودينيين في كل من الهيئة ولون البشرة.

يُروَى عن الساوروماتيين أنهم عندما اشتبك الأغارقة في حرب مع شعب الأمازون أبحر الأغارقة بعد انتصارهم في المعركة، وأخذوا معهم ثلاثًا من سفنهم مليئة كلها بالنساء الأمازونيات اللواتي وقعن في الأسر، وما إن ابتعدت السفن عن اليابسة وصارت في وسط البحر حتى ثارت الأمازونيات على البحارة وقتلنهم جميعًا لآخر رجل، ولما كنَّ لا يعرفن شيئًا عن الملاحة ولا عن السفن، ولا يعرفن كيف يستخدمن الدفة ولا المجداف ولا الشِّراع، ذهبن بعد موت الرجال إلى حيث ساقتهن الريح والأمواج. وأخيرًا وصلن إلى شواطئ بالوس مايوتيس، إلى الموضع المُسمَّى كريمني، أي «الصخور» ... الواقع في أرض السكوثيين الأحرار، فنزلن إلى البر وسرن صوب المناطق المسكونة، وعندما التقين بأول سرب من الخيول استولين عليه وامتطين ظهوره، وشرعن في نهب تلك المنطقة السكوثية.

لم يدرِ السكوثيون ماذا يعملون إزاء ذلك الهجوم؛ فهم لا يعرفون نوع تلك الثياب التي يرتديها من هاجموهم ولا لغتهم ولا الشعب الذي ينتمون إليه. كانوا يحسبونهم رجالًا ... غير أنه عندما وقع في أيديهم بعض القتلى أدركوا الحقيقة. عند ذلك تشاوروا فيما بينهم، فقرروا ألا يقتلوا منهن واحدة بعد ذلك، وأن يُرسِلوا إليهنَّ فرقة من أصغر الرجال سنًّا، يقرب عدد أفرادها من عدد النساء حسب تقديرهم، وأن يُؤمروا بإقامة معسكرهم في المنطقة القريبة من معسكر أولئك النساء، وأن يحاكوهن في كل ما يعملنه،

وإذا تقدمت منهم الأمازونيات فعليهم أن ينسحبوا ولا يشتبكوا معهن في قتال، وإذا توقفن اقترب منهن الشُّبان وضربوا فساطيطهم بقرب معسكر أولئك الأعداء ... فعلوا كل هذا رغبة في الحصول على ذرية من هذا الشعب الشهير.

بناءً على هذا ... رحل الشبان، ونفذوا الأوامر التي تلقوها حرفيًّا، وسرعان ما أدركت الأمازونيات أن هؤلاء لم يأتوا ليصيبوهن بأذى، وعلى ذلك لم يقمن من ناحيتهن بمعاكسة السكوثيين بعد ذلك، ثم أخذ المعسكران يقتربان من بعضهما يومًا بعد يوم، وكان كل من الفريقين يحيا الحياة نفسها التي يحياها الفريق الآخر، ولم يملك أي منهم شيئًا سوى السلاح والخيول. وهكذا اضطروا إلى الحصول على قوتهم من الصيد والنهب.

وأخيرًا، تصادف أن التقى اثنان منهم، واستطاع الرجل أن يكسب بسهولة مودة المرأة التي أخبرته بالإشارات (لأن كلًّا منهما لم يكن يعرف لغة الآخر) أن يُحضِر معه أحد أصدقائه في اليوم التالي، إلى الموضع نفسه الذي التقيا فيه، ووعدته بدورها بأن تحضر معها سيدة أخرى، ففعل الشاب ما طلبته منه تلك المرأة وبرَّت هي بوعدها، فلما سمع بقية الشبان بما حدث، سعى كل منهم إلى اكتساب ودِّ امرأة أمازونية.

ما هي إلا فترة وجيزة حتى اندمج المعسكران في معسكر واحد، وعاشر السكوثيون الأمازونيات معاشرة الأزواج، ولم يكن بوسع الرجال أن يتعلموا لغة النساء، في حين أن النساء سرعان ما تعلمن لغة الرجال، فلما استطاع كل منهم أن يتفاهم مع الآخر، قال الرجال للأمازونيات: «إن لنا آباء وأمهات، ولنا ممتلكات، وبناءً على هذا هيا بنا نترك طريقة الحياة هذه ونرجع إلى أمتنا؛ حيث نعيش معهم ستكُنَّ زوجاتنا، ونعدكن بأننا لن نتزوج غيركن.» بَيْد أن الأمازونيات أجبنهم قائلات: «إننا لا نستطيع الحياة مع نسائكم؛ لأن عاداتنا تختلف عن عاداتهن تمام الاختلاف، فدَيدَنُنا جذب القوس وقذف الرمح وركوب الخيل، أما شئون السيدات فلا ندري منها شيئًا، وأما نساؤكم فعلى نقيض ذلك لا يفعلن شيئًا من هذا، بل يقضين حياتهنَّ داخل العربات حيث يَقُمن بالأعمال النسوية، ولا يخرجن قط للصيد أو لعمل أي شيء. لا يمكن أن نتفق وإياهن إطلاقًا. ولكن، إن كانت لكم رغبة حقيقية في الاحتفاظ بنا كزوجات لكم، ومعاملتنا بعدل وإخلاص، فاذهبوا إلى والديكم في بلدكم، واطلبوا أن يعطوكم ميراثكم، ثم عودوا إلينا لنعيش وحدنا معًا.»

استصوب الشبان مشورة السيدات وعملوا بها، فذهبوا وأخذوا نصيبهم من الممتلكات، ثم عادوا إلى زوجاتهم اللائي خاطبنهم عند إذ بقولهن: «إننا لنخجل ونخاف من أن نعيش في هذه البلاد التي نحن فيها الآن. فلم نسرقكم من آبائكم فحسب، بل وأصبنا سكوثيا

بأضرار جسيمة بوساطة غاراتنا للسلب والسرقة، وبما أنكم تُحِبوننا كزوجات، نرجو أن توافقوا على الطلب الذي سنطلبه منكم. هيا بنا نهجر هذه الديار كلية ونرحل فنعيش فيما وراء نهر تانايس.» ومرةً أخرى وافق الشبان.

بعد أن عبروا نهر تانايس اتجهوا شرقًا إلى مسيرة ثلاثة أيام من ذلك النهر، ثم اتجهوا شمالًا إلى مسيرة ثلاثة أيام من بالوس مايوتيس حيث وصلوا إلى المكان الذي يعيشون فيه الآن، واتخذوه مسكنًا لهم. ولا تزال نساء الساوروماتيين محافظات على عاداتهن منذ ذلك الوقت حتى اليوم، يُمارِسن الصيد وهن على ظهور الخيل بصحبة أزواجهن، وأحيانًا وحدهن. وفي الحرب ينزلن إلى معمعان القتال مرتديات نفس الزي الذي يرتديه الرجال.

يتكلم الساوروماتيون لغة سكوثيا، ولكنهم لا يتكلمونها صحيحة قط؛ إذ تعلمتها الأمازونيات سقيمة في أول الأمر، ويقضي قانون الزواج عندهم ألا تتزوج فتاة ما إلا إذا قتلت رجلًا في معركة، ويحدث أحيانًا أن تظل سيدة بغير زواج إلى سن متقدمة؛ لأنها لم تستطع القيام بهذا الشرط.

لما دخل مبعوثو سكوثيا إلى حضرة ملوك هذه الشعوب الذين كانوا مجتمعين للمداولة أخبروهم بأن ملك الفرس بعد أن أخضع القارة كلها أقام قنطرة فوق بوغاز البوسفور، واجتازه إلى قارة أوروبا، حيث أخضع التراقيين، وإنه لَيُقِيم الآن قنطرة فوق نهر إيستر قاصدًا أن يُخضِع أوروبا كلها لحكمه.

تداول الملوك المجتمعون بعد أن سمعوا ما قاله السكوثيون، وفي النهاية انقسموا في الآراء، فاتفق ملوك الجيلونيين والساوروماتيين والبودينيين، وتعهدوا بتقديم المساعدة للسكوثيين. أما ملوك الأجاثورسيين والنيوريين والأندروفاجيين والميلانخلانيين والثاوريين فردوا على الطلب الذي تقدم به إليهم السكوثيون هكذا: «إذا لم تكونوا قد بدأتم بمحاربة الفرس لوجدنا طلبكم عادلًا، ولوافقنا على رغباتكم وضممنا قواتنا إلى قواتكم، ولكن الذي حدث هو أنكم انفردتم بدوننا بغزو أرض الفرس، وطيلة المدة التي وهبكم الرب فيها القوة استخدمتموها في أن تحكموها. والآن لمَّا رفعهم نفس الرب أتوا اليكم ليفعلوا بكم مثل ما سبق أن فعلتم بهم. أما نحن فلم يسبق أن تعرضنا بالأذى لأولئك القوم في الحرب الماضية، ولن نكون البادئين بالأذى الآن. فإذا غزوا أرضنا وبدءوا بالاعتداء علينا، فلن نسمح لهم به. ولكننا سنظل في أرضنا حتى نرى ذلك يحدث منهم؛ لأننا نعتقد أن الفرس قد حضروا الآن، لا ليهجموا علينا، بل ليعاقبوكم أنتم يا مَن اعتديتم عليهم أولًا.»

عندما وصل هذا الرد إلى السكوثيين قرروا بسبب رفض جيرانهم محالفتهم ألا يشتبكوا مع العدو في أية معركة وجهًا لوجه، وإنما ينسحبون أمامهم، ويأخذون معهم قطعانهم، ويردمون جميع الآبار والعيون في أثناء تقهقرهم، ويتركون البلاد كلها جرداء وخالية من الكلأ.

الفصل الحادي والثلاثون

الحملة السكوثية

لما قرَّ قرار السكوثيين على اتخاذ هذه التدابير، خرجوا لملاقاة جيش داريوس يسبقهم أسرع فرسانهم ليكونوا طليعة الاستكشاف، وأرسلوا أمامهم في أثناء تقهقرهم عرباتهم التي تحمل نساءهم وأطفالهم وجميع ماشيتهم ما خلا عددًا قليلًا بقدر حاجتهم إلى الطعام، على أن تواصل العربات سيرها نحو الشمال دون أن تغير اتجاهها.

وجد الكشافة السكوثيون أن الجيش الفارسي قد تقدم بعد نهر الإيستر بمسيرة ثلاثة أيام، وفي الحال تقدموه بمسيرة يوم واحد وهم يقيمون معسكرهم من آنٍ إلى آخر ويتلفون كل زرع في الأرض. وما إن لمح الفرس فرسان السكوثيين حتى جدُّوا في السير وراءهم في الطريق نفسها، في حين كان هؤلاء يتقهقرون باستمرار.

فلما بلغ داريوس الصحراء توقف عن المطاردة، واستراح بجيشه على ضفاف نهر الأواروس؛ حيث أنشأ يبني ثمانية حصون ضخمة يبعد كلٌّ منها عن الآخر بمسافات متساوية تبلغ ستين فورلنجًا أو ما يقرب من ذلك، وكانت بقايا تلك الحصون لا تزال موجودة في عصري، وطيلة الوقت الذي شُغِل فيه داريوس ببناء الحصون، دار السكوثيون الذين كان يطاردهم حول المناطق العليا راجعين إلى سكوثيا، فلما رأى داريوس أنهم قد اختفوا تمامًا، ترك حصونه دون أن يتمها، وعاد متجهًا إلى الغرب ظانًّا أن السكوثيين الذين رآهم من قبل هم الأمة كلها، وأنهم هربوا في ذلك الاتجاه، فأسرع في السير ودخل سكوثيا؛ حيث التقى بقسمَي الجيش السكوثي المُنضمين وفي الحال أخذ في مطاردتهما، فظل السكوثيون في خطتهم من التقهقر أمامه باستمرار، جاعلين المسافة بينهم وبينه مسيرة يوم واحد، في وقت طفق هو فيه يجدُّ في مطاردتهم، وهم يقودونه تبعًا للخطة التي سبق أن وضعوها إلى بلاد الشعوب التي رفضت محالفتهم فقادوه أولًا إلى أرض الميلانخلانيين، فحدثت فوضى بالغة بين أولئك القوم بسبب غزو السكوثيين لهم أولًا، ثم

الفرس وبعد أن أوقع السكوثيون هؤلاء القوم في حيص بيص، اتخذوا طريقهم إلى بلاد الأندروفاجيين فكانت النتيجة مماثلة لما حدث لسابقيهم، ثم واصل السكوثيون سيرهم مخترقين بلاد النيوريين حيث نشر مجيئهم الذعر بين السكان كما حدث لغيرهم من قبل، وظلوا هكذا في تقهقرهم حتى بلغوا أرض الأجارثورسيين. بَيْد أن هذا الشعب لما شاهد ما حدث لجيرانه من فرار وفزع، لم ينتظر حتى يغزو السكوثيون بلاده، بل بعث إليهم رسولًا يمنعهم اجتياز حدوده ويُحذِّرهم من أنهم إذا حاولوا دخول بلاده، قاومهم بقوة السلاح، وعندئذٍ وقف الأجاثورسيون عند حدودهم للدفاع عنها ضد الغزاة. أما مَن سبقوهم من الميلانخلانيين والأندروفاجيين والنيوريين، فبدلًا من الدفاع عن أنفسهم، عندما دخل السكوثيون والفرس بلادهم، نسوا تهديدهم السابق وفروا في فوضى إلى الصحاري الواقعة جهة الشمال، وعندما رفض الأجارثورسيين دخول السكوثيين إلى بلادهم، انسحب هؤلاء الأخيرون وعادوا أدراجهم ليقودوا الفرس من بلاد النيوريين إلى بلادهم سكوثيا نفسها.

ظلت الحال على هذا المنوال مدة طويلة، وبدا للفرس أن ذلك الزوغان لن ينتهي، وأخيرًا أرسل داريوس فارسًا إلى إيدانثورسوس ملك سكوثيا، بهذه الرسالة: «أيها الرجل الغريب الأطوار! لِمَ تلجأ إلى دوام الهروب أمامي في حين أن هناك طريقين يُمكِنك اتخاذ أحدهما في سهولة؟ فإن كنت تعتبر نفسك قادرًا على صد جيوشي، فاترك هذا التجوال وتعال إليَّ، واشتبك معي في معركة، وإن كنت ترى أن قوتي أعظم من قوتك، وحتى في هذه الحال … يجب أن تكف عن الفرار، وجب عليك أن تُحضِر بعض الثرى والماء إلى مولاك وتأتي للتفاوض.»

فأجاب إيدانثورسوس ملك سكوثيا على هذه الرسالة بقوله: «هذه هي طريقتي أيها الفارسي. لن أخاف قط أيَّ رجل، ولن أهرب منه. لم يسبق أن فعلت هذا فيما مضى، كما أنني لا أهرب منك الآن. ما من شيء جديد أو غريب فيما أفعله، بل أسير على نظام حياتي العادي الذي أتبعه في أيام السِّلم. والآن، أخبرك بالسبب الذي من أجله لم ألتحم معك في معركة. ليس لنا — نحن معشر السكوثيين — مدن ولا أرض مزروعة تضطرنا — خوفًا من استيلائك عليها أو نهبها — إلى الإسراع بمقابلتك ومع هذا، فلو كنت متلهفًا إلى قتالنا بسرعة، فهناك قبور آبائنا. اذهب إليها أولًا، وحاول أن تشتبك معهم. عندئذٍ سوف ترى ما إذا كنا سنقاتلك أو لا نقاتلك، فإذا لم تفعل هذا، فكن على يقين من أننا لن نلتحم معك في موقعة إلا إذا راقنا ذلك. هذا هو ردي على طلب القتال. أما من حيث المولى، فلا أعترف بمولى سوى جوف سلفي، وفيستا الملكة السكوثية السابقة. وأما الثرى والماء

اللذان تطلبهما فلن أرسلهما لك، غير أنك ستتلقى مني هدايا أكثر ملاءمة لك. وأخيرًا أقول لك، نظير تسمية نفسك مولاي: «اذهب وابكِ»» (هذا هو ما يعنيه الناس بطريقة الكلام السكوثية). وهكذا عاد الرسول يحمل هذه الرسالة إلى داريوس.

في تلك الأثناء، اعتزمت الفرقة السكوثية التي بقيت في البلاد ألا تقود الفرس بعد ذلك إلى هنا أو إلى هناك، بل أخذت تهجم عليهم كلما جلسوا يتناولون طعامهم. كان السكوثيون ينتظرون حتى ذلك الميعاد ثم ينقضون على الفرس، تبعًا للخطة التي قرروها من قبل. وفي تلك الإغارات كانت الخيول السكوثية تضطر الخيول الفارسية إلى الفرار، وعندئذٍ لا يجد فرسانها بُدًّا من أن يفروا ويلتجئوا إلى المشاة الذين كانوا يهبون لنجدتهم دائمًا. أما السكوثيون فبمجرد أن يسوقوا الخيول، ينسحبون ثانيةً خوفًا من مشاة الفرس، كما أنهم كانوا يقومون بمثل هذه الغارات ليلًا.

انتفع الفرس بأمر غريب ضد السكوثيين في غارات هؤلاء الأخيرين على المعسكر الفارسي، إنه نهيق الحمير ومنظر البغال. فكما لاحظت من قبل لا تُنتِج بلاد السكوثيين حميرًا ولا بِغالًا، ولا يوجد بها حمار ولا بغل واحد بسبب البرد. فإذا ما نهقت الحمير، فزع الفرسان السكوثيون وفي أغلب الأحوال في حين تكون المعركة دائرة حامية الوطيس، وتسمع خيول السكوثيين نهيق الحمار، تفزع وتدور حول نفسها، وترهف آذانها السماع ذلك الصوت المنكر؛ لأنها لم تسمع صوت الحمار من قبل، ولم ترَ صورته قط. وبطبيعة الحال، لم يكن هذا عديم الأثر على سير المعركة.

لما رأى السكوثيون فزع الفرس اتخذوا بعض الإجراءات لحثهم على عدم مغادرة سكوثيا أملًا في أن يُلحِقوا بهم ضررًا بليغًا عندما تنضب مئونتهم، وللقيام بذلك كانوا يتركون بعض ماشيتهم مع الرعاة، في حين ينسحبون هم أنفسهم إلى مسافة ما، فَيهجم الفرس على الرعاة لسلب الماشية، ويستولون عليها، وبذا ترتفع روحهم المعنوية.

فعل السكوثيون هذا عدة مرات، حتى جُنَّ جنون داريوس أخيرًا، وعند ذاك بعث الرؤساء السكوثيون الذين كانوا يعرفون من أين تؤكل الكتف رسولًا إلى المعسكر الفارسي يحمل بعض الهدايا للملك، وهي: عصفور، وفأر، وضفدعة، وخمسة سهام. فسأل الفرس الرسول عن معنى هذه الهدايا. فرد عليهم قائلًا: إن الأوامر التي صدرت إليه تقضي عليه بتسليم هذه الهدايا والعودة بأقصى سرعة، وليس أكثر من هذا، ثم أضاف قائلًا: إذا كان الفرس على شيء من الحكمة أدركوا معناها بأنفسهم. فلما سمعوا هذا، عقدوا مجلسًا ليتباحثوا في هذا الأمر.

أبدى داريوس رأيه للمجلس يفسر معني تلك الهدايا، فقال: إن السكوثيين يريدون تسليم بلادهم له، برًّا وبحرًا. هذا هو ما استطاع أن يستشفه من معنى هذه الهدايا؛ لأن الفأر يسكن اليابسة ويأكل الأطعمة نفسها التي يتغذى بها الإنسان، في حين أن الضفدعة تقضي حياتها في الماء، أما العصفور فيُشبِه الحصان إلى حدٍّ كبير، وتدل السهام على تسليم كل قواتهم. بيد أن جوبرياس أحد السبعة الذين تآمروا ضد المجوسي قام يعارض داريوس في تفسيره ذلك، قائلًا: إن السكوثيين يقصدون بذلك أن يقولوا: «أيها الفرس، إن لم تتحولوا إلى طيور تحلق في جو السماء، أو تصيروا فيرانًا تحفر أجحارها تحت سطح الأرض، أو ضفادع تختفي تحت الماء، فلن تفلتوا من هذه البلاد، بل ستلقون حتفكم بسهامنا.»

أما فرقة السكوثيين الوحيدة التي تركت في أول الحرب لحراسة بالوس مايوتيس وأوفدت الآن للتحدث مع الأيونيين الواقفين عند نهر الإيستر، فلما بلغت القنطرة قالت للأيونيين: «يا رجال أيونيا، سنعطيكم حريتكم إن فعلتم ما نشير به عليكم. نعلم أن داريوس قد أمركم بالبقاء هنا لحراسة الجسر لمدة ستين يومًا ليس غير، وسمح لكم إن لم يحضر إليكم قبل ذلك الموعد بأن تعودوا إلى بلادكم. إذن يجب عليكم أن تفعلوا هكذا لتكونوا بغير لوم أمامنا وأمام داريوس: انتظروا هنا حتى تنقضي المدة التي حددها لكم، وبعدها ... انصرفوا إلى أوطانكم.» فلما وعدهم الأيونيون بذلك، عاد السكوثيون بسرعة بالغة.

الفصل الثاني والثلاثون

الانسحاب من سكوثيا

بعد أن أرسل السكوثيون الهدايا إلى داريوس، كان دور الجيش السكوثي الذي لم يتحرك إلى نهر الإيستر، أن يشتبك، بفرسانه ومشاته، في قتال مع الجيش الفارسي. وبدا كأنما الجيشان سيلتحمان ما في ذلك شك. ولكن حدث أن جرت أرنب بين الفريقين، فأسرع السكوثيون الذين أبصروها بمطاردتها وهم يصيحون ويحدثون فوضًى بالغة. فلما سمع داريوس تلك الجلبة استفسر عن سببها، فأخبروه بأن السكوثيين قد جروا لصيد أرنب، فاستدار إلى من تعوَّد أن يتحدث إليهم، وقال: «الحقيقة أن أولئك القوم يحتقرونني كل الاحتقار، وأرى الآن أن جوبرياس كان على حقٍّ عندما فسر معنى الهدايا. وإذ اتفقت وإياه في الرأي الآن، أرى أن نضع خطة حكيمة نضمن بها الأمان أثناء تقهقُرنا وعودتنا إلى بلادنا.» فقال جوبرياس: «نعم يا مولاي، كنت على يقين تام قبل مجيئي إلى هنا من أن هذا شعب صعب المراس. ومنذ حضرنا زاد يقيني، وخصوصًا الآن وقد رأيتهم يلعبون بنا. وعلى هذا فمشورتي هي أنه عندما يخيم الليل، نوقد النيران كعادتنا في الأيام الماضية ونترك هنا جزءًا قليلًا من جيشنا، من الرجال الضعفاء غير القادرين على احتمال المشاق، كما نترك حميرنا مربوطة إلى مذاودها، ونتراجع عن سكوثيا قبل أن يسير أعداؤنا إلى نهر الإيستر ويهدموا الجسر، أو يتخذ الأيونيون قرارًا يكون فيه خرابنا.»

هكذا أشار جوبرياس. وعندما أقبل الليل عمل داريوس بنصيحته، فترك جنوده المرضى ومَن لا يهتم كثيرًا لخسارتهم، وترك معهم الحمير مربوطة في المعسكر، وعاد أدراجه؛ ترك الحمير حتى يسمع العدو نهيقها، وترك الرجال لأنهم كانوا مرضى وعديمي الفائدة، حتى يظن العدو أنه يوشك أن يهجم عليه بخبرة رجاله، وفي الوقت ذاته لكي يحرس أولئك الرجال معسكره. وبعد أن أعلن داريوس خطته للرجال، أمر بإشعال النيران، وبدأ سيره حثيثًا صوب نهر الإيستر. فلما أحست الحمير برحيل الجيش، أخذت

تنهق عاليًا أكثر مما كانت تفعل في أي وقت مضى. فلما سمع السكوثيون صوتها، لم يخامرهم أي شك في أن الفرس لا يزالون في مكانهم ذاته.

عندما بزغ فجر اليوم التالي ورأى الرجال الفارسيون الباقون بالمعسكر أن داريوس خدعهم، رفعوا أيديهم إلى السكوثيين، وتحدثوا إليهم بما يناسب موقفهم. فما إن سمع العدو بذلك حتى ضم جميع قواته معًا، كما انضم إليه كل حلفائه من الساوروماتيين والجيلونيين والبودينيين وشرعوا يجدُّون في مطاردة داريوس، واتجهوا مباشرة نحو نهر إيستر. ولما كان أغلب الجيش الفارسي من المشاة ولا يعلمون شيئًا عن الطرق القريبة في تلك البلاد في حين كان السكوثيون كلهم من الفرسان، ويعرفون أقصر الطرق. وهكذا حدث أن الجيشين لم يلتقيا. فوصل السكوثيون إلى الجسر قبل أعدائهم. فلما وجدوا أن الفرس لم يصلوا بعدُ، خاطبوا الأيونيين الذين كانوا على ظهور سفنهم، وقالوا: «يا رجال أيونيا! لقد انتهى موعدكم، ومن الخطأ أن تبقوا هنا. لا شك في أن الخوف هو الذي حجزكم والآن يحق لكم أن تهدموا الجسر وأنتم مطمئنون، وتسرعوا عائدين إلى وطنكم، وتفرحوا بنيل حريتكم، وتشكروا من أجلها الآلهة والسكوثيين. أما نحن فسنتولى أمر مولاكم وسيدكم السابق، ولن يقاتل أي أحد منكم بعد ذلك.»

عندئذٍ عقد الأيونيون مجلسًا. فقام مليتاديس الأثيني ملك الخيرسونيسيين المقيمين على الهيلسبونت، ورئيسهم على نهر الإيستر ونصح القواد الآخرين بأن يفعلوا حسب رغبة السكوثيين، ويستعيدوا الحرية لأيونيا. غير أن هيستيايوس الميليسي عارض هذه الفكرة بقوله «إننا لا نتمتع بعروشنا في مختلف دولنا إلا عن طريق داريوس، فإذا أُطيح بقوته فلن أبقى سيدًا على ميليتوس، ولا تبقى أنت ملكًا على مدنك، فما من مدينة منها تفضل الملكية على الديمقراطية.» فلما سمع بقية الرؤساء الذين كانوا على وشك الموافقة على كلام هيستياديس، غيروا آراءهم مؤيدين هذا الأخير.

وإذ اعتزم الرؤساء الأغارقة العمل بنصيحة هيستيايوس، قرروا فيما بينهم أن يردوا على السكوثيين ويفعلوا هكذا: أن يتظاهروا بموافقة السكوثيين، ولكي يرى هؤلاء أنهم يهدمون الجسر في حين أنهم في الحقيقة لا يعملون شيئًا ذا أهمية، ولكي يمنعوهم في الوقت ذاته من عبور نهر الإيستر بالقوة عن طريق ذلك الجسر، أن يهدموا الجسر المستند فوق أرض سكوثيا إلى مسافة قاب قوسين من ضفة النهر، فقام هيستيايوس وخاطب السكوثيين، باسم جميع الأغارقة، قائلًا: «ما أروع نصيحتكم، أيها السكوثيون وحسنًا فعلتم بالمجيء إلينا بهذه السرعة؛ فقد أرشدتمونا إلى الطريق الصحيح، وها أنتم ترون

بعيونكم، أننا نهدم الجسر. ثقوا بأننا سنبذل قصارى جهدنا في سبيل نيل حريتنا. وفي الوقت نفسه، الذي ننكب فيه على عملنا، من واجبكم أن تبحثوا عن الفرس، من أجلنا ومن أجلكم، وأن تنتقموا منهم بما يستحقون!»

وثق السكوثيون بوعود رؤساء الأيونيين، وعادوا أدراجهم أملًا في الالتقاء بالجيش الفارسي، ومع ذلك فلم يعثروا له على أثر، ويقع اللوم في ذلك على الخطوات التي اتخذوها في أول الأمر، فلو لم يُتلِفوا جميع المراعي، ولم يردموا جميع الآبار والعيون الموجودة في بلادهم؛ لسهل عليهم أن يعثروا على الفرس متى أرادوا، ولكن الذي حدث أن الخطة التي ظنوها حكيمة كانت في الواقع سبب إخفاقهم. لقد ساروا في طريق به ماء وكلأ لخيولهم، وأخذوا يبحثون عن خصومهم فيه متوقعين منهم أن يتقهقروا في ذلك الطريق نفسه الذي يمكن الحصول فيه على هذه الأشياء. أما الفرس فساروا في الطريق الذي سلكوه من قبل، ولم يحيدوا عنه إطلاقًا. ورغم هذا، فقد وصلوا إلى القنطرة بشقِّ الأنفس، وكان وصولهم إليها ليلًا، فذعروا غاية الذعر عندما وجدوها مهدمة؛ إذ ظنوا أن الأيونيين قد رحلوا.

كان بجيش داريوس رجل مصري، صوته أقوى من صوت أي رجل آخر في العالم كله، فأمره داريوس بالوقوف عند حافة الماء وأن ينادي هيستيايوس الميليسي، فلبى هذا الرجل أمر داريوس، وسمعه هيستيايوس من أول نداء. فجاء بالأسطول ليساعد في عبور الجيش، وأصلح القنطرة من جديد.

بهاتين الوسيلتين هرب الفرس من سكوثيا، في حين كان أعداؤهم يبحثون عنهم بغير جدوى، ومنذ ذلك الوقت والسكوثيون يحتقرون الأيونيين ويقولون عنهم: إنهم أنذل الناس أحرارًا؛ وأوفى الناس عبيدًا! وأكثرهم تملُّقًا لسادتهم.

وبعد أن اجتاز داريوس تراقيَا، وصل إلى سيستوس في الخيرسونيز؛ حيث عبره إلى آسيا بمساعدة أسطوله، تاركًا ميجابوزوس الفارسي ليحكم الجانب الأوروبي. هذا هو الرجل الذي كرمه داريوس أمام جميع الفارسيين تكريمًا عظيمًا … وكان داريوس يوشك أن يأكل بعض الرُّمان، فلما كسر أول رمانة سأله أخوه أرتابانوس: «ما الذي تريده بكثرة حب الرمان؟» فقال: «أن يكون لدي بعدد حبوب الرمان من أمثال ميجابوزوس؛ فهذا يسرني أكثر من أن أكون ملكًا على بلاد الإغريق.» هذا هو الإطراء الذي كرم به داريوس ذلك القائد الذي عهد إليه برئاسة القوات التي تركها في أوروبا، ويبلغ عددها حوالي ثمانين ألف رجل.


هنداوي